يوسف السباعي



فديتك يا ليلى



فديتك يا ليلى



يوسف السباعي

فديتك ياليلى

آثار على الرمال

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الإهـــــداء

إلى العزيز الذى لم أهد له بعد كتابا وهو أحق الأعزاء بالإهداء .

إلى قارئتى المجهولة .

وقارئى المجهول .

إلى صديقَى الروح اللذين أوثقت الكتب عرى المحبة بيننا دون أن يرى أحدنا الآخر .

أهدى كتابى هذا .

رمز صداقة روحية خالصة .

يوسف السباعي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

رجل لا يدرى

ضباب كثيف فى أخدود من الرمال .. كان يحاول دائما أن يشق طريقه فيه ، وساقاه يحس بهما متثاقلتان كأنهما قد شدتا إلى الأرض بأثقال تجعل السير وئيدا عسيرا

وهو يحاول أن يدفع نفسه إلى الأمام دفعا لا يكاد ينزع قدمه الغائصة فى الرمال الناعمة حتى يدفعهما لكى تغوص فى الرمال مرة أخرى .

ورغم كل ذلك فقد كان يجاهد فى التقدم جهاد المستميت .... غير عابىء بثقل قدميه أو بلين الرمال .... كان يريد الخلاص من ذلك الضباب المتكاثف الذى يكاد يكتم أنفاسه .. وكان به لهفة على أن يبصر ما وراء تلك الظلمات المعتمة .

إن هناك لا شك شيئا فى نهاية ذلك الأخدود الضيق العميق ... شيئا يريد الوصول إليه ولو بشق الأنفس ... شيئا هاما حيويا يشعر أن حياته معلقة به .

ما هو ؟... وما كنهه ؟ . إن ذهنه لا يستطيع تحديده بالضبط . هذه المشقة التى يعانيها وسط الرمال الثقيلة والضباب المعتم تستغرق كل تفكيره وتستنفد كل جهده .. فتختلط عليه المرئيات ويروح منها ذهنه فى « دوامة » سريعة تمزج كل ما به وتتركه عاجزا حائرا .

حسن ... ما عليه من بأس .. ليتقدم ... ويتقدم ... لا داعى للتفكير .. كل ما عليه هو أن يثابر على السير ... وينتزع أقدامه المتقلة بالحديد ... من الرمال المطبقة عليها فيخطو الخطوة تلو الخطوة ... فى جهد ومشقة .. وجلد واستماتة .. إنه لابد فى النهاية واصل .

ورفع يده فمسح بها قطرات تندى بها جبينه .

عرق ؟!! ... أم رشاش ؟

ولكن من أين له الرشاش وسط هذه الرمال ؟! إنه عرق .. لشد ما أجهد نفسه فى السير .. ولكنه مع ذلك لن يتوقف .

وهكذا استمر فى السير .. يخطو بمجهدة متثاقلة .. فلا تفكير فى شىء سوى أن يبلغ النهاية ويصل إلى ذلك الشىء الذى يريد الوصول إليه .

وفجاة توقف فى مكانه .

ما هذا ؟.. لقد سمع صرخة .. أجل .. صرخة حادة شقت مسامعه .. أتراه واهما ؟!!

إنها تبدو وكأنها آتية من وراء الضباب .. مقبلة من نهاية الطريق .. وكأنه بها صادرة من ذلك الشىء الذى يجد فى الوصول إليه .

إنه إذا إنسان .. بدليل أنه يصرخ .. إنه يريد الذهاب إلى إنسان .. أجل .. أجل .. رجل ؟! امرأة ؟! لا يذكر .

ولكن لماذا يصرخ هذا الشىء الذى فى نهاية الطريق ؟ لعله فى ضيق أو فى خطر ، وهو يريد أن يسعفه . إذا فهو يعرف أنه قادم إليه .. لم إذا لا يكرر الصياح ؟! لم لا يصيح مرة ثانية وثالثة حتى يبلغه ؟! أيكون عاجزا عن الصياح ؟! ألا يحتمل أن يكون قد أطبق عليه الخطر ؟! أما يجب إذا أن يحث الخطا إليه ؟! أجل .. يجب أن يسرع جاهدا . قاتل اللّه هذه الرمال المنهالة تحت قدميه ... إنها تعوقه عن العدو .

إلى متى هذا السير ؟! وما بال الغمة لا تنقشع ، والضباب لا يتبدد ، والرمال لا تنقطع ! والطريق لا تبدو نهايته ؟! .

إلى متى كل هذا ؟! وماذا يجبره على السير .. أمن أجل صرخة فى الهواء ؟! وصرخة من ؟ لا يدرى ، بل ربما كانت مجرد وهم من صنع الذهن المجهد والنفس المكدودة .

أف لكل هذا ؟ يجب عليه أن يكف عن هذا السير المضنى ... يجب أن يتوقف أو يعود القهقرى ... ولكن إلى أين ؟! إنه لا يعرف .. لا يعرف شيئا عن كل ما حوله ... لا شيء سوى هذا الأخدود الممتد من الرمال ، والضباب المحيط المتكاثف .

لا .. لا .. ليس أمامه سوى السير ... إن فيه على الأقل أملا فى شيء ... أى شيء .

آه من ذلك الشيء لو يستطيع بلوغه !!.

وعاود السير مرة أخرى ينقل قدميه فى إعياء ويبل شفتيه بطرف لسانه ، ويمسح بكفه قطرات العرق المتصببة من جبينه .

ومرة أخرى أحس بقدمية تتسمران فى الأرض هذه المرة لا لبس فيها ولا غموض ... لم تكن صرخة مبهمة كالمرة السابقة .. بل كان نداء واضحا مميزا ... كان نداء باسمه عاليا حادا يشق الفراغ المحيط به .

من أين أتى ؟.. من أمامه ؟ أين نهاية الطريق ؟

ما ذلك الشيء الذى يريد الوصول إليه ؟ لا يستطيع أن يحدد بالضبط من أين أتى .. ولكنه مع ذلك يجزم بسماعه ... قد يكون آتيا من أمامه .. أو .. من ورائه .

من وراء ؟!!

إذا فهناك من يناديه من وراء !

من ؟ ... و لم ؟.. وماذا يريد منه !

أيطارده ؟ ربما .. إذا فهو مطارد .. من إنسان يعدو وراءه .

ويلاحقه .. إذا فهذا الشيء كامن وراءه لا أمامه .. وهو مجد في النأى عنه لا في بلوغه ... في الفرار منه لا في اللحاق به ...

ولكن لم يطارده ؟ ماذا يبغى منه ؟

وهنا تذكر أن يده اليسرى غير خالية ... إنه يحمل بها حقيبة صغيرة .. آه .. تلك هى السبب .. إنها بغية المطاردة .. وغرض الملاحق ..

وشدد عليها قبضته .. وأطبق عليها أصابعه .. حتى نفرت عروق يده .

لن يمكنهم منها .. لن يستطيع أحد أن يأخذها منه .. لن يجسر إنسان على الاستيلاء عليها أو فتحها .. أو معرفة ما بها .

ولكن ماذا بها ؟ لماذا يخشى عليها كل هذه الخشية ؟.

ماذا بها ؟.. ماذا بها ؟ ويحه !! إنه هو نفسه لا يعرف ماذا بها . ليفتحها إذا ويرى ماذا بها .

لا ... لا ... إنه لا يجسر .. إن ما بها مخيف ، مخيف جدا .. ماذا بها ؟.. إنه يعرف .. لمن الله هذا الذهن المضطرب والداكرة المشوشة .

آه .. لقد تذكر .

اللئام ... السفلة ... إنهم يريدون ما بها ... لكى يودوا به ... ويقضوا عليه .

إن بها مستند إدانته ... بها أدلة جنايته ... أدلة حاسمة لا تقبل شكا ولا نقضا ... بها آثار الجريمة ... وأكثر من هذا .. بها السلاح الذى قتل به ضحيته .

إنه قاتل .. هارب يمعن فى الابتعاد عن جريمته وعن مطارديه ... حاملا معه آثاره وسلاحه .

ولكن لم لا يقذف بها ويتخلص منها ؟! لم يلصقها بنفسه ... ويقيمها شاهدا على كل ما فعل ؟!.

ارمها بعيدا ... أيها الأحمق .

لا ... لا ... إنه لا يستطيع ... إن أصابعه تزداد بها تشبثا وعليها إطباقا ... أتراه يخشى أن يعثروا عليها، ويعرفوا ما بها ؟! ربما .. ولكن هناك دافعا أقوى من هذا يدفعه إلى التشبث بها ... إنه يريدها لنفسه .. إنه يحس أنها جزء منه .

ولكن فيم وقوفه هكذا والمطارد لابد فى أعقابه . اجر .. اجر .. تقدم .. تقدم ... انج بنفسك ... وفر من أمامه .

ومرة أخرى عاود السير فى استماتة واستيئاس .

كان يتحرك بالقوة الدافعة من خلفه .. قوة الخشية والخوف والرغبة فى الفرار ، بعد أن كان يتحرك بالقوة الجاذبة من أمامه ... قوة اللهفة والشوق والرغبة فى الوصول .

وعادت قدماه تدفعان فى الرمال وتنزعان منها ... وشمل الضباب المحيط ذهنه كما شمل جسده .. ولم يعد يفكر فى غير شيء واحد ... السير ... السير إلى الأمام ... السير قدما .

وأخيرا بدا له أنه قد وصل .

وصل ؟.. إلى أين ؟ أنسى أنه مطارد هارب ؟! وأن غرضه من هذا السير المنهك الشاق ... ليس الوصول إلى شيء .. بل الفرار من شيء ؟!

ولكنه مع ذلك يعتقد أنه قد وصل .. إن هناك أصواتا تناديه .. أصواتا رقيقة ناعمة ... والضباب يوشك أن ينقشع .. والرمال تزداد صلابة تحت قدميه .. وساقيه تشتدان والأثقال المعلقة بهما تخف شيئا فشيئا .. والرياح تهب حاملة فى طياتها نسمات رطبة ندية تبدد بها الضباب المخيم .

أجل ... إنه يوشك أن يصل .. إنه ليس بهارب ولا قاتل .. يجب أن يجد فى السير ... لا خوفا مما وراءه .. بل رغبة فيما أمامه .

وانطلق يعدو ... والأصوات المنبعثة من نهاية الطريق تزداد وضوحا .. إنها تهتف باسمه .. راجية مستعطفة .. ذائبة .

إنها تناديه فى شوق ولهفة .. وهو أيضا يحس لها ذلك الشوق وتلك اللهفة .. ليعد .. ليعد ... إنه يوشك أن يبلغها .

إن الأصوات تزداد وضوحا .. إنها تعلو ... تعلو .. ولم يعد هتافها رجاء واستعطافا ، بل أضحى استغاثة واستنجادا . اقترب ... اقترب .. إنها تريدك ... وإنها فى حاجة إليك . أغثها .. أدركها .

إنه آت .. آت .. إنه يسابق الريح ... لحظة واحدة ويصل إليها ... إن قوة خارقة تدفعه .. إنه لم يعد يحس بالرمال ولا بقدميه على الرمال .. إنه لم يعد يجرى .. وإنما يطير .. ليس له أقدام ، بل أجنحة ... ولم يعد يحس إلا بالريح تلفح وجهه .

لحظات بعدها يصل .. ثوان .. بل أقل .

إنه آت .. آت ...

وفجاة .. وبعد أن قارب الوصول ... وبعد أن كادت الرمال تنتهى والضباب ينقشع والنهاية تبدو ... أحس بموجة رملية جبارة عاتية تبرز له فجأة كالمارد فتنقض عليه ... وتصدمه صدمة عنيفة ... فيحاول المقاومة ... ولا تلبث موجة أخرى أن تتلوها .. ثانية وثالثة ... وإذا صراعه مع الرمال قد أضحى صراعا مع الموج .. وثقل الساقين قد أصاب الجسد كله ... ولم يعد يفيده فى قهر الموجة ضرب ذراعيه ولا قرع ساقيه ... بل وجد نفسه يعلو بين براثن الموج فى عنف ويهبط فى شدة .. وأنفاسه تتلاحق ... حتى يوشك أن يختنق .

والأصوات ما زالت تصيح به ... مستنجدة مستغيثة .. وهى تتباعد وراء الموج ... ضائعة بين صخبه ، متبددة فى ضجيجه .. وقد أخذت تخفت شيئا فشيئا ... حتى صمتت تماما .

وأخيرا بدأت الأنواء تهبط وتبسط ... وتوالت عليه بخفة الموجة تلو الموجة ... وتضاءل الصراع وهدأ ... وأضحت الرجات العنيفة من أسفل إلى أعلى بين طيات الأمواج العاتية ... هزات خفيفة لينة .. وتملكه استرخاء المستلقى فى راحة عقب جهد عنيف .. ولم يعد يحس من الصراع والضجة إلا بلمسات الموج المنتظمة تتوالى عليه فى رقة بين آونة وأخرى وكأنها جناح الطائر يمسه فى رفق .

ومضت برهة وهو من حاله تلك فى راحة تشبه الغيبوبة ، لا يكاد يحس إلا بالهزة المنتظمة والمسة المتواترة .

أجل ... استمرت الهزة ... وتوالت المسة ... ولكن لا من موج سائر ولا من جناح طائر ... بل من أشياء أثبت وأكثر صلابة ... أشياء ملموسة محدودة ... غير مبهمة ولا مشوشة ، ولا مضطربة ولا موهومة .

لقد أضحت هزة الموج هزة مقعد وثير جلس عليه مسترخيا بجوار نافذة .. وأضحت مسة جناح الطائر المتوالية المنتظمة أشياء تمر من وراء زجاج النافذة مرورا خاطفا لا تكاد تقبل حتى تذهب ، ولا تكاد تظهر حتى تختفى .

إنها أشياء متحركة .. أشبه بالقوائم أو الأعمدة ... بل إنها أعمدة فعلا .. أعمدة « تلغراف »... أو جذوع شجر ... أو خليط من هذا وذاك .

ولكن ما الذى يحركها ؟!

ويحه !! ما أغباه !! إنه هو الذى يتحرك ... أو هو الذى يجلس فى شىء متحرك ... أجل ... أجل .. هذا الحيز المحدود والمقاعد

المتراصة ، والنوافذ الزجاجية ، والرفوف الشبكية ذات الحقائب لابد أن تكون فى عربة قطار .

وبدأ الصفير يتصاعد حادا من القاطرة أشبه بصرخات الاستغاثة .

إذا فهو على سفر .. وكل ما مر به لا يعدو أن يكون أضغاث أحلام . ولكن لماذا السفر ؟ إلى أين ؟ ومن أين ؟

أهو متجه إلى شيء ... أم هارب من شيء ؟!

مرة ثانية لا يدرى ... تماما كما كان لا يدرى وهو يعدو فى الرمال الثقيلة والضباب المعتم ... إلى أين ؟! ومن أين ؟

لا يدرى ... لا يدرى .

بل إنه لا يدرى الفاصل بين الحلم والحقيقة ... واليقظة والغفوة ... إن كل ما فى ذهنه مبهم مشوش مضطرب .

أين الأحلام من اليقظة ! وأين اليقظة من الأحلام !! متى يكون فى حلم ، ومتى يكون يقظانا ؟! من هو ؟! وماذا يريد ؟ إلى أين يذهب ؟! ومن أين أتى ؟

أنه لا يدرى ... لا يدرى .

كل ما يدريه عن نفسه .. هو أنه لا يدرى شيئا ، ولا يحس بشيء .. إلا ذلك الحزن المبهم والخوف الغامض .

وبحركة لا إرادية أطبق قبضته اليسرى بشدة وعنف .

وأحس بشيء من الطمأنينة وهو يجد الشيء الذى أطبق عليه بيده ما زال موجودا ... أجل .. كانت الحقيبة ما زالت فى موضعها ..

حمدا لله .. لن يستطيعوا أخذها منه .. ولن يستطيعوا رؤية ما بها .. إنه يريدها .. ويخشى مما بها .

إن بها حياته .. وفيها حتفه .

أهو قاتل حقا ؟! من قتل ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ .. يجب عليه أن يهرب .. يجب أن يعدو .. يعدو .. بدل أن يجلس هكذا مسترخيا متخاذلا .

ومرة أخرى أحس أنه يوشك أن يخوض أخدود الرمال .. ويغرق فى أمواج الضباب ... عندما وجد يدا تربت ساقة برفق.. وسمع صوتا رقيقا بجواره يقول له :

ـ لقد وصلنا .. إن القطار يدخل المحطة .. هيا بنا .

وجذبه الصوت مما أوشك أن يهوى إليه .. وتلفت إلى مصدره فوجد رجلا يجلس بجواره .. ميز فيه ذلك الوجه الباسم اللطيف الذى رافقه من أول السفر .. والذى رافقه أيضا قبل هذا .. بل يذكر أنه يرافقه دائما أينما حل .

إنه مطمئن إليه ... فوجهه يوحى بالثقة والطمأنينة.. وقد تذكر أنه قال له إنه صاحبه .. صاحبه ؟! من ؟! ... لقد نسى الاسم .. كما نسى كل شىء .. ولقد حاول أن يذكره بأشياء لم يستطع أن يذكرها .

لا يهم كل هذا .. المهم .. هو أن هذا الرفيق ... مبعث أمن وطمأنينة ... ولا يبدو منه ضير ولا خطر .. وليس هناك ضرر فى أن يستمع إليه ويتبعه ما دام هو نفسه لا يدرى .. إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل .

فقط .. يجب أن يحرص على شىء واحد ... وهو الحقيبة !

يجب أن يطبق عليها جيدا ... يجب ألا يغفل عنها أبدا ... يجب ألا يسمح لأحد ـ أيا كان ـ أن يمسها أو يحاول فتحها أو الاستيلاء عليها .

وعاد يشدد القبض عليها وهو ينهض متبعا صاحبه ... وخرجا من باب الديوان الذى كانا يجلسان فيه والذى قد خلا إلا منهما .. ودلفا من الممر الضيق حتى وصلا إلى باب العربة ثم هبطا إلى الرصيف وسارا

بين الجموع المتحركة إلى خارج المحطة .. وعبرا الباب الذى وقف عليه عامل التذاكر . وفى الخارج دلفا إلى أحدى عربات الأجرة ... وصاح صاحبه بالسائق :

ــ شارع ماسبيرو .

تحركت العربة ومال هو إلى الوراء متكئا بظهره على ظهر المقعد وأطلق تنهيدة تحمل بعض الراحة والطمأنينة .. لقد كان فعلا يحس أنه أكثر طمأنينة وهو فى العربة منه وهو سائر فى فناء المحطة وسط الجموع المتحركة وبين صياح باعة الصحف والحمالين . لقد كان المنظر مألوفا لديه ، ولكنه مع ذلك كان يشعر منه بكثير من قلق وخشية .

هذا الزحام ، وتلك الصيحات والنداءات كانت تخيفه وتقلقه .. كان يخشى أن يتسلل نحوه أحد هؤلاء المحيطين به فيخطف الحقيبة ويعدو بين الناس فاضحا أمره .. ولكن ما شأن الناس به ؟ وبحقيبته ؟

من يدرى .. ربما كان أحدهم يعرف .

يعرف ماذا ؟

يعرف أنه قاتل .

قاتل ؟.. أهو قاتل حقا ؟

أجل .. أجل .. إنه قاتل .. يحس بعبء جريمته يثقل على روحه ويطبق على أنفاسه .

ولكن ليس هناك من يعرف جريمته غيره .. أو على الأقل هذا هو ما يخيل إليه .. ليس هناك من يتهمه بشىء ... كل من حوله ينظرون إليه نظرة طبيعية جدا .. أو على الأقل هذا هو ما يبدو منهم .

صاحبه مثلا .. هذا المخلوق الرقيق الجالس بجواره ... إنه يعامله معاملة إنسان شريف مهذب .. وليس بمجرم ولا قاتل .

إنه قطعا .. لا يدرى .

أم هو نفسه الذى لا يدرى ؟؟

من يدرى ؟!

يدرى ؟! لا يدرى !! تلك هى مصيبته .. هذا الذهن المشوش المضطرب .. والنفس الضالة الحائرة .. الخائضة فى أخدود الرمال .. التائهة وسط الضباب .. الغريقة بين الأمواج .. المثقلة بالشعور بالوزر .. المذعورة .. الخائفة الوجلة .. التى لا يقر لها قرار .. والتى لا تفتأ تعدو أبدا ... هاربة من مجهول .. متلهفة على مجهول .

أنى له أن يدرى شيئا ... بعد كل هذا ؟!

ولكن أخير له أن يدرى .. أم يظل متخبطا فى دياجيره تلك ؟! لا .. لا يجب أن يدرى شيئا .

هذا الشخص الجالس بجواره مثلا قد أنبأه أنه صاحب قديم له ، عزيز عليه .. ومع ذلك هو لا يذكره .. أبدا .. ولقد أنبأه باسمه .. فنسيه .. كيف يخاطبه الآن ؟!

لا ضرورة لمخاطبته .. إن أفضل شىء له أن يلوذ بأهداب الصمت .. هذا هو آمن الطرق .. إن خير ما يستر به حاله .. هو ألا يتكلم .. لا داعى لأن يدرى شيئا ... يكفى أنه جالس فى أمان ، ويكفى أن تكون قبضته مشددة على الحقيبة .

وعاد يضم الحقيبة إليه جيدا ، ويشدد عليها قبضته .

وكانت السيارة تشق طريقها فى شارع الملكة .. وكان الوقت قبيل الغروب ووقفها المرور عند تقاطع شارع فؤاد بجوار مبنى الإسعاف .

وتلفت حوله يستطلع جلية الأمر .. فيم وقفها ؟... وما هذه العربات المتكاثرة حولها ؟! لماذا لا يسيرون ؟! هل هناك شىء ؟! .

وعاودت العربة سيرها .. هذا الطريق يعرفه جيدا .. لقد سبق له أن مر به فيما مضى .. متى ؟ .. لا يذكر .. ولكنه يعرف هذه المبانى ، وهذه الحوانيت .. هذا الجامع القائم على يمينه ليس بغريب عليه ... لا

.. ولا هذه المدخنة السوداء العالية ... ودارت العربة جهة اليمين فى طريق أفضى إلى ساحة واسعة تشقها بضعة خطوط ترام وتقوم فى زاوية منها كنيسة ضخمة تعلوها القباب والأبراج .. هبطت الشمس من ورائها فصبغت قممها بلون الأرجوان .

هذا المنظر أيضا ليس بغريب على ناظريه .. إنه يستطيع أن يجزم بأنها ليست المرة الأولى التى يمر فيها بهذا المكان .. ولكن متى كانت المرة الأولى .. منذ بعيد .. أم قريب ؟! لا شك منذ بعيد جدا .. فالصورة فى ذهنه شاحبة باهتة .

وزاد انحراف السيارة يمينا وعبرت الساحة سائرة فى طريق قامت المبانى على يمينه ، وعلى يساره امتد سور حجرى منخفض حجز الطريق عن شاطئ النهر ، ومن ورائه من خلال الأشجار المتدلية فروعها .. بدت مياه النهر تترقرق متألقة فى أشعة الشمس الهابطة .

واستراحت نفسه إلى المنظر الجميل المرسوم أمامه .. واستغرق فى تأمله ، ولكنه لم يلبث حتى أفاق على صوت رفيقه يصيح بالسائق :

ــ يمينك .. عند الباب القادم .

ووقفت العربة وهبط صاحبه فنقد السائق أجره ، و لم يجد بداً من الهبوط وراءه ، وسارت العربة ، ووقف الاثنان فى مدخل عمارة ، ورفع صاحبه بصره إلى أعلى ، ثم تلفت حوله كمن يبحث عن شىء .

عمن يبحث صاحبه ؟. إنه لا يبدو على معرفة جيدة بالمكان فهو يتلفت تلفت الباحث الحائر .

ترى إلى أين هما ذاهبان ؟

إنه بالطبع لا يدرى .. كما لا يدرى دائما أى شىء عن كل شىء .

ولكن هذه المرة .. أليس من حقه أن يدرى ؟!

إذا كان لم يدر فيما سبق .. أليس من الواجب أن يدرى الآن ؟!.

أجل .. أجل .. لابد أن يعرف إلى أين يذهب به صاحبه .. هذا أقل ما يجب معرفته .

وتقدم من صاحبه وقد رسم على شفتيه بسمة هادئة وسأله متأدبا :

ـ إلى أين نحن ذاهبان ؟

ومد صاحبه يده متأبطا بها ذراعه في ود وصداقة ، وقال كأنما يذكره :

ـ إلى الدكتور محمود .. محمود توفيق .

الدكتور ؟ !! الدكتور محمود توفيق ؟!! من هو ؟ إن صاحبه يذكره كأنما هو شخص معروف لديه .. وكأن حضورهما إليه كان أمرا معروفا سبق الاتفاق عليه .

ليس أمامه سوى الموافقة .. لا داعي للمناقشة ألبتة .. هذه أشياء تبدو كأنه يجب أن يعرفها .. ومصيبته أنه لا يعرف ما يجب أن يعرفه مما لا غبار على عدم معرفته .. إنه لا يعرف شيئا أبدا .. ولذا فمن الخير أن يوافق في هدوء ويسر .. وأن يقنع من الفهم والمعرفة بالصمت والسكوت .

وفي تلك اللحظة بدا « بواب » نوبي بجلباب أبيض ولفافة رأس بيضاء ، فأشار إليه صاحبه متسائلا :

ـ الدكتور توفيق في أي دور ؟

ـ الدور الخامس شقة نمرة ٢٧ .

وتقدم البواب إلى المصعد ففتحه وتبعه الاثنان فدخلا المصعد .

الدكتور توفيق ؟.. من هو؟ ولماذا يذهبان إليه ؟ لعل بصاحبه علة لأنه هو نفسه لا يشكو من شيء .

وماله هو يتجشم كل هذه المشقة ... ما دام الأمر لا يعنيه !

إنها مسألة صداقة .. على أية حال لا ضير عليه من مرافقة صاحبه .

ووقف المصعد ، وفتح صاحبه الباب .. ثم عبرا ممرا ضيقا إلى باب مفتوح علقت عليه لافتة زجاجية كتب عليها « دكتور محمود توفيق أخصائى الأمراض النفسانية » وفى صمت دلف صاحبه إلى الداخل .

أمراض نفسانية ؟!

ويحه .. من منهما المصاب ؟! هو أم صاحبه ؟!

هو الغريق التائه الشارد الذاهل الذى لا يذكر ولا يدرى ! أم صاحبه الذى قاده وتولى أمره حتى الآن ؟! حمدا لله . إنه لم يسأله شيئا حتى لا يفضح نفسه .

إنه يذكر الآن أنهما قد قاما برحلتهما هذه فى سبيل الذهاب إلى هذا الطبيب .. من أجله هو.. هوالضائع أبدا فى غيبوبة من الرمال والأمواج .. هو الذى لا ينام ولا يستيقظ .. الذى لا يفرق بين السبات والصحو ، بل يحيا فى خليط من هذا وذاك .. شىء واحد هو الذى يجده ملموسا مجسدا فى سباته ويقظته .. هو هذه الحقيبة التى يشدد عليها قبضته ، والذى يشعر أن فيها حتفه ، ومنها حياته .

واستقبلهما رجل يرتدى معطفا أبيض قادهما إلى صالة رصت بها بعض المقاعد والأرائك ، وبدا فى مواجهتها باب متسع يفضى إلى شرفة تطل على شارع « ماسبيرو » الموصل بين طريق الملكة و « كوبرى أبو العلا » .

وسألهما الرجل الانتظار حتى ينتهى الطبيب من زائر لديه .

ووقفا برهة يدوران ببصريهما بين الصور المعلقة فى الحائط ثم سأله صاحبه :

ـ أننتظر هنا أم فى الشرفة ؟

وتجاوز ببصره باب الشرفة ورنا إلى الأفق البعيد حيث الماء المنبسط فى رجرجة خفيفة متألقة وقد اختلط لونه البنى بلون الشمس

الهابطة الذهبية الأرجوانية ، ولم يكن هناك وجه للموازنة بعد هذا بين الصالة والشرفة ، فقد أخذ المنظر بألبابه ، وأجاب صاحبه فى شبه رجاء :

ـ الشرفة أفضل .

وتقدما إلى الشرفة وجلس كل منهما فى مقعد مريح من القش ... وعندما اطمأن إلى سلامة الحقيبة فى يده رنا ببصره وراء سور الشرفة الحديدى مطلقا تنهيدة راحة .

كان المنظر رائعا حقا ... الطريق لا يبدو منه إلا حافة ضيقة من الرصيف العريض الأقرب للشاطئ وقد صفت عليه أشجار الفيكس العريضة الورق ، الداكنة الخضرة ، المطلقة الفروع ، بلا تشذيب حتى لتكاد تتشابك وتتعانق .. وقد بدا وراء جذوعها السور الحجرى المنتظم الواطئ . ويلى الشجر والسور صفحة النهر العريض المنساب فى رفق .. المنبسط فى عنفوان وتؤدة ... وفى الناحية اليسرى بدت الكنيسة ذات القباب التى ينتهى عندها امتداد الطريق بجوار النهر ويبدأ انحرافه حولها ... وعلى النهر نفسه بدا كوبرى قصر النيل ، وعلى وجه أدق ، طرفه البعيد .. إذ حجب الطرف القريب الثكنات الحمراء والكنيسة البيضاء ، وفى الناحية اليمنى بدا « كوبرى أبو العلا » تنساب العربات والترام أسفل الهيكل الحديدى الممتد فوقه .. وفى الناحية الأخرى من الشاطئ بدا خليط من الفيكس والبانسيانس والجوكوراندا قامت وراءها فى الناحية اليمنى العمارات العالية على الجانب الآخر من الطريق ... وفى الوسط انبسطت ساحة السباق وملاعب البولو فى نادى الجزيرة ، وبعض الأبنية الصغيرة المشيدة فيه ، وفى الناحية اليسرى بدا المتنزه القائم على حافة النيل وفى وسطه الجامع بمئذنته العالية الشماء .

وظل يقلب بصره بين الأشجار والمساحات الخضر ومئذنه الجامع وقباب الكنيسة ، حتى استقر أخيرا فوق صفحة الماء المنبسطة إلا من تجعدات خفيفة تحدثها هبات النسيم .

وتعلق بصره فى التجعدات التى بدت كأمواج رقيقة ناعمة ، وبدأ يحسن أن التجعدات البادية على صفحة الماء قد أخذت تزداد شيئا فشيئا ، وأن النسمة الرقيقة التى كانت تهب على صفحة الماء أخذت تشتد وتقوى .

وبدأ النسيم يصفر حتى أضحى ريحا .. والتجعدات تعلو فتصبح موجا .. والصياح يتعالى من وراء الموج حتى صار هديرا وزئيرا .

وزادت قبضته ضغطا على يد الحقيبة .

مرة أخرى بدأ الصراع ... إنهم لا شك يريدون الحقيبة ، يريدون أن يعرفوا ما بها ليوقعوا به ... وارتفعت موجة عاتية فلطمته لطمة شديدة .. كان عليه فى هذه المرة أن يفر إلى الشاطئ .. إن المسألة ليست بالهينة ، بل تحتاج إلى جهد شديد ... هيا .. لا تنى ولا تكل .. ضع قدميك على الشاطئ .. أجل .. هكذا أمسك الرمال بكلتا يديك .. لا .. لا بل بيد واحدة .. إياك أن تفلت الحقيبة ! ها قد وصلت .. الرمال ثقيلة .. والضباب على الشاطئ معتم . ولكن عليك أن تسير ، عليك أن تعدو .. اعد .. أسرع .. انبسطت ساحة السباق وملاعب البولو فى نادى الجزيرة ، وبغض لا تقف .. انزع قدميك .

ودخل الممرض « التومرجى » إلى الشرفة وقال داعيا الزائرين :

ـ تفضلا .

وتلفت صاحبه إليه وقال فى رقة وفى شبه اعتذار :

ـ أظن من الأفضل أن تنتظرنى .. سأحدثه برهة ثم أدعوك .

لم يجبه بكلمة ، فقد كان منهمكا فى العدو ، وكان يعدو فى الرمال والضباب هاربا من شىء ، متلهفا على شىء .. كان لا يكاد يشعر بما حوله ، لا يرغب فى أكثر من أن يتركوه . وصمت لا يحدث أحدا ، ولا يحدثه أحد .

وتبع صاحبه « التومرجى » إلى حجرة الطبيب ، فعبرا الصالة إلى ممر ضيق أفضى بهما إلى باب على يمينه .. طرقه « التومرجى » وسمع نداء رقيقا يعلو من ورائه :

ـ تفضل .

ودفع « التومرجى » الباب وأدخل الرجل ، ثم أغلق الباب وراءه .

ومن خلف مكتب صغير نهض الطبيب يستقبله مرحبا وهز يده فى حرارة قائلا :

ـ أهلا بك .. كيف الحال ؟! مضت مدة لم نتقابل ؟

ـ سنتان على الأقل .

ـ كانت آخر مرة رأيتك فيها فى محاضرة الدكتور نصيف فى دار الحكمة .

ـ أجل .. أجل .. وأظننا تقابلنا بعد ذلك فى الأوبرا .

ـ كانت مقابلة خاطفة لا تحتسب .

ـ تفضل .. اجلس .. خيرا إن شاء اللّه .. أى ريح طيبة دفعت بك إلينا ؟!

ـ ليست طيبة تماما ... إنها عاصفة بعض الشىء ، هذه أول مرة أحضر لك هنا .. عيادة لطيفة ، أنيقة ، وواجهة تشرف على منظر لطيف .. ولكن يبدو أن موقعها ليس « صقعا » .

ـ لا ضرورة للموقع « الصقع » ... المهم ... الزبون « الصقع » .. نحن لنا زبائننا الذين يبحثون عنا يا سيد زكى .

ـ الحال رائجة إذا ؟!

ـ جدا .. رزق الهبل ـ كما يقولون ـ على المجانين ـ إنى لم أحاول من قبل .. الاعتراف بطب النفس ، و لم يخطر لى على بال قط .. أن أطلب من أحد أخصائيه معونه جدية .

ـ على كل حال نحن فى الخدمة .. وعلى استعداد لتقديم كل معونة .

— متشكر جدا .. هذا ما كنت أنتظره .

— خير أن شاء الله .. ماذا بك ؟

— بى أنا ؟!

ولم يتمالك نفسه أن أطلق ضحكة خافتة قصيرة :

— لست أنا هذه المرة .. قد أحتاج إليك فى المرة القادمة ..

ثم صمت برهة وأردف قائلا :

— إنه صديق عزيز لدى .. عزيز كأخ .. أو أكثر من أخ .

— وأين هو ؟

— إنه يجلس فى الشرفة .. لقد بدا لى من الخير أن أراك أولا على حدة ، وأن أحدثك عن كل ما أعرف ، مما أجد حرجا فى سرده أمامه ، وأحذرك من بعض ما يجب الحذر منه ، حتى لا تضايقه عن غير قصد .

وضحك الدكتور توفيق وأجاب مطمئنا !!

— نحن لا نضايق هنا أحدا ... إن عملنا هو إن نذهب الضيق ، وأن نريح المريض .

— أنا أعرف ذلك .. ولقد قلت إنك قد تفعل ما يضايقه عن غير قصد .

— لا عن قصد ، ولا عن غير قصد .

— الظاهر أنك تريد أن تضايقنى أنا عن قصد .

وضحك توفيق وأجاب :

— أتم حديثك ، لن أضايقك بعد هذا .

— قلت إنى فضلت أن أراك على حدة حتى أسرد لك المسألة برمتها ، وأذكر رأيى كطبيب باطنى حاولت علاجه وأجريت عليه كشفا تاما ، وفحصته فحصا دقيقا .

— وماذا وجدت به ؟

ـ لا شيء .. لا شيء أبدا .. سليم أربعة وعشرون قيراطا ، النبض منتظم ، والحرارة طبيعية .. والضغط عادى والقلب سليم .. و .. و .. إلخ .

ـ إذا مم يشكو ؟

ـ هو نفسه لا يشكو من شيء .. ولا يتحدث عن شيء ..

ـ إذا ماذا به ؟

ـ ماذا به ؟

وأطرق برأسه برهة ثم أردف قائلا :

ـ إنه دائم الذهول والشرود ... دائم الصمت والفكر يبدو كأنه يهبط فى أغوار عميقة بين آونة وأخرى .. أو يظل فى غيبوبة تنأى به بعيدا عنا وعلى وجهه سيماء ..

وقاطعه توفيق متسائلا :

ـ هل تعود تعاطى أى نوع من أنواع المخدرات ؟

ونفى زكى السؤال بشدة وبطريقة جازمة :

ـ لا .. لا .. ليس هو ذلك الشخص .. إنه لم يدخن فى حياته سيجارة واحدة .. أنه مخلوق مثالى .. إنى أعرفه تماما كما أعرف نفسى .. ولا شك أنك تعرفه أنت أيضا .. أو على الأقل تعرف اسمه .. إنه إبراهيم محسن الموسيقار المعروف .

ـ إبراهيم محسن ؟! طبعا أعرفه .. إنى معجب جدا بموسيقاه .. بل إنى لا أكاد أقدر أحدا من الموسيقيين الشرقيين سواه .. إنى أعتقد أنه مخلوق مرهف حساس .. ولا شك أنه قد أصيب بصدمة عنيفة .

ـ ربما .. ولكن لا أحد يدرى عنها شيئا إلا هو.. وهو ذاهل شارد لا يعى ولا يذكر ولا يتكلم .. أظن من الخير أن أقص عليك ما أعرفه عنه .. وما استطعت أن أحصل عليه من معلومات مما أدى إلى حالته تلك .

وبدأ زكى يسرد حديثه قائلا :

الفصل الثانى

روح فى حقيبه

عرفته ونحن طالبان فى مدرسة الخديوى إسماعيل وكان اسمها وقتذاك كما تعرف « الثانوية الملكية » .

وكانت المعرفة عقب معركة حامية دارت بيننا فى « حارة اليهود » وهى أحدى دروب المدرسة ، وفى ركن قصى منها بجوار « أولى تالت » ، وراء معامل الطبيعة والكيمياء .. وضربته جيدا .. وضربنى جيدا .. وبعدها .. ومنذ ذلك اليوم نشأت بيننا صداقة يحسدنا عليها أحب الإخوة وأعز الأقرباء .

لقد أحببته جيدا ... ولى العذر .. فهو مخلوق .. لا يملك إنسان ، أيا كان ، إلا أن يحبه .

كان .. من يومه .. كما سمعته أنت فى موسيقاه .. رقيق النفس ، مرهف الحس ، ولم أكن كذلك بل كنت على نقيضة عداء كثير الحركة لا يستقر لى قرار ... ومع ذلك فقد علمنى كيف أستقر ، وكيف أجلس فى الفسح بجواره على أحد المقاعد لنتحدث ، أو كيف أسير دون أن أعدو أو أقفز .

ولست أريد أن أسرد عليك تاريخ حياته فلا أظن لدينا من الوقت ما يسمح لنا بسرد تفاصيله .. ثم إنى لا أجد فى ماضيه الشيء غير الطبيعى الذى قد تجد فيه ما يمكن أن تستند إليه فى تشخيص حالته .. فقد كان نموذجا للإنسان المستقيم الناجح المحظوظ .

ولكنى مع ذلك أحب أن أشغل من وقتك بضع لحظات فى وصف شخصيته ونفسيته وخلقه ، وهو ما قد تحتاج إليه أنت وما سيتعذر

عليك الحصول عليه إلا منى .. أنا أقرب الناس إليه والذى أعرفه خيرا من نفسه .

كان أكثر ما يميزه عنا ونحن صبية هو إحساسه الدائم بالذنب .. والعجيب أنه لم يكن هناك ما يدعوه أبدا لهذا الإحساس .. فذنوب « التلمذة » بطبيعتها من التفاهة بحيث لا يكاد يحس الإنسان بحملها .. وهو بالذات كان أقلنا ارتكابا لهذه الذنوب .. إن لم يكن عديم الذنوب.. ومع ذلك كنت لا أفتأ أرى القلق ينتابه بين آونة وأخرى .. لأشياء لا أظنها ــ لو كنت فاعلها ــ بتاركة فى نفسى أى أثر ، أو قل إنى ما كنت أستشعر فعلها قط .

مثلا .. أذكر ذات مرة أنه خرج من أحد الامتحانات حزينا مقطب الجبين ، فظننته قد أخطأ الإجابة ، وقلت له مازحا :

ــ لا تكتئب .. فى الملحق متسع للجميع .. دعنا نشترك فيه معا .

ــ أى ملحق ؟

ــ ملحق اللغة الفرنسية .

ــ لمن .

ــ لك .

ــ أنا ؟.. لقد أجبت عن جميع الأسئلة .

ــ إذا فما بالك حزينا ؟

ــ حزين من أجلك .

ــ من أجلى أنا ؟

ــ أجل .

ــ لم ؟!

ــ لقد خمنت ثلاثة أرباع الأسئلة التى أتت فى الامتحان وذاكرتها قبل الدخول بنصف ساعة .. ولو أننى قلتها لك لضمنت الإجابة الصائبة عنها .

ورغم إحساسي بشيء من الخذلان لم أملك إلا أن أجيبه ضاحكا :

- لا تحمل لى هما ... لقد أجبت إجابة .. أظنني أستطيع بها أن أنجح .

- كنت أستطيع مساعدتك ... ولكنني لم أفعل ... لأني انهمكت في استذكارها ولأني خفت ألا تصدقني وتضحك علي .

وهكذا دائما كان يستشعر الذنب .. لا لأنه ارتكب شيئا بل لأنه قصر في فعل شيء .. فقدكان يتهم نفسه دائما بأنه كان يستطيع أن يفعل ... ولم يفعل .

ومثل آخر .. أذكره الآن جيدا كأنما حصل بالأمس ، كنا قد تأخرنا في الخروج من المدرسة ذات يوم ... حيث كنا نشاهد بعض الألعاب التي يقوم بها فريق « الجميناستيك » على الأجهزة ، وعند خروجنا من البوابة وجدنا ازدحاما في الشارع وشاهدنا عربة الإسعاف وقد تكاكأ حولها الناس ووجدنا الشيخ فضل البواب يصرخ باكيا وعلمنا أن ابنه كان جالسا أمام باب المدرسة ، وتركه الرجل بضع دقائق ليقضي حاجة فعدا الطفل إلى الشارع لاهيا عند ما تصادف مرور عربة مسرعة صدمته صدمة كسرت ساقه .

ومن الطبيعي أن تترك أمثال هذه الحوادث ألما في النفوس ، ولكن من غير الطبيعي أن يروح الإنسان محملا نفسه بلا أدنى مناسبة عبء مسئوليتها وذنب وقوعها .

لقد تأثرت أنا ... وحزنت بعض الحزن على عمي فضل وابن فضل .. وهكذا فعل كل من شاهد الحادثة .. ولكن إبراهيم لم يكن ليأخذها كما أخذناها بمثل هذه السهولة ، بل كان لا بد له أن يحشر نفسه بين أبطالها ويزج بشخصيته بين مرتكبيها والمسئولين عنها .

وعلمت في اليوم التالي أنه لم ينم في ليلته إلا لماما وأنه بكى بكاء حارا ، وسألته في شيء من الغيظ :

ـ ومالك أنت ؟

ـ مالى أنا ؟ لقد كنت أستطيع منع الحوادث .

ـ كيف ؟

ـ لو لم أقف لمشاهدة اللعب .. وخرجت فى موعدى لرأيت الطفل وهو يعدو فى الشارع ولاستطعت إنقاذه .

ـ كلنا إذن مسئولون عن الحادثة .. بل كل إنسان لا بد أن يكون مسئولا عن حادثة ما .. فما من حادثة تقع إلا كان يستطيع منعها إنسان .. كن عاقلا وكف عن هذا السخف .

وغيره .. وغيره .. لقد كان دائما يحس أنه مقصر فى حق سواه وأنه كان يستطيع أن يفعل خيرا .. ولو فعله ، فإنه نادم لأنه كان يستطيع أن يفعل خيرا منه .

ذلك هو الشيء الذى يمكن أن أعتبره فيه غير طبيعى .. والذى أعتقد أنه لازمه فى كل أدوار حياته بعد ذلك . وأنا نفسى أستطيع إرجاعه إلى تجسد الخير فى نفسه وإلى يقظة شديدة فى ضميره تجعله شديد الحساسية بمتاعب الناس وآلامهم .. شديد الرغبة فى مشاركتهم إياها ، أو رفع حملها عنهم .

ولا شك أنى عندما أصفه بأنه شيء غير طبيعى .. أقصد أنه غير طبيعى بالنسبة للناس .

ولكنه قد يكون طبيعيا بالنسبة له وبالنسبة لطريقة تكوين نفسه وخلقه .

فقد كان ذا نفس رقيقة مرهقة .. نفس فنان مفرط فى الحساسية .

كان فنانا موهوبا ذا أذن موسيقية سريعة الالتقاط ، وكنت أعجب له كيف يقف فى الطريق فجأة ليلتقط نغمة عابرة ويبدو لى أنه يترنح من فرط النشوة ، وكنا إذا ما خرجنا فى المظاهرات أجده قد تسلل من بيننا ، ليذهب إلى أحد محال الأسطوانات فيسترق السمع . مجانا ...

أو إلى معهد الموسيقى حيث يقبع فى أحد أركانــه ليسـمع دون أن يحـس به أحد .

كانت الموسيقى تجرى فى دمه .. ولم تجد المحاولات التى بذلها أهلـه فى إبعاده عنها ، وفى فرضهم رقابة شديدة عليه تجعله يسـير فـى طريـق التلمذة المحدود .. لينتهى به الأمر إلى مهنة محترمـة .. طبيـب مثـلا .. أو محام .. أو مدرس .. أو .. إلخ ..

وقد سار فى الطريق المرسـوم .. سـار بجسـده وليـس بروحـه .. ولم يكن فى دروسه بالمفرط فى الذكاء ولا بالمفرط فى الغبـاء .. كـان طالبـا ممتازا فى بعض العلوم أذكر منها العربية .. لا سيما الإنشـاء والمحفوظـات التـى كـان يجيـد إلقاءهـا وكـان ضعيفـا فـى بعـض آخـر ، وأذكـر منهـا الإنجليزية ، والميكانيكا .

أقول أنه سار فى طريـق الدراسـة بجسـده .. أمـا روحـه فقـد كـانت هائمة فى الموسيقى والألحان والغناء .. وأذكر أنه بـدأ ينتـج ألحانـه سـرا وهو مازال طالبا .

ولم يكن فى خلقـه علـى طيبتـه واسـتقامته ، نبيـا .. بـل كـان مثلنـا يكذب أحيانا ويقصر فى واجباته أحيانا .. وكان مثلنا أيضـا .. يحـب : الأكل .. واللهو .. والمزاح ... والفتيات ، وكانت له مغامراته التـى قـد تخفى على الجميع إلا عليّ .. وكانت له .. مـاذا أيضـا ؟ كـل شـىء .. كبقية البشر العاديين .

ولكنه كان معتدلا .. معتدلا .. معتدلا فى كل شـىء .. طبعـا عـدا ذلك الشيء الذى قلت لـك عنـه فـى أول الأمـر وهـو معاونـة غـيره .. وحـب الموسـيقى ، ولم يكـن يدخـن ولا يشـرب الخمـر ولا يتعـاطى أى نوع من المخدرات .. ولم يحاول أن يرجع ذلك إلى طبيعته الخيرة .. بـل إلى رغبته عن فعل ما لا لزوم لفعله ، وعما يجد فـى نفسـه حاجـة ملحـة إليه .

ويمثل هذا التركيب فى خلقه والتكوين فى نفسه جرت حياته : تلميذ فى الظاهر ، وفنان فى الباطن .. لا تخلو من نجاح وسقوط وأفراح وأتراح ، حتى حصلنا على « البكالوريا » معا ، وكان تخرجه من القسم الأدبى وتخرجى من القسم العلمى .

وفى ذلك الصيف الذى حصلنا فيه على الشهادة التى كانت لدينا بمثابة جواز مرور إلى طبقة الرجال ... والتى كانت تنقلنا من تلميذ ثانوى إلى طالب فى الجامعة بينه وبين الوظيفة « فركة كعب » .. فى ذلك الصيف نفسه توفيت والدته .

ولا شك أنها كانت صدمة قاسية عليه .. فقد حزن على فقدها حزنا شديدا .. وأحس وأبوه لغيبتها لوعة أليمة .. فقد خلفت وراءها فراغا لم يستطع أحد بعدها أن يشغله .

ومع ذلك فقد مرت الوفاة كما تمر كل وفاة .. فما أظنها كانت بالحدث الفريد فى نوعه .. برغم أنه تلقاها وقتذاك على أنها كذلك .

مرت ليلة المأتم وهومحطم منهار متداع .. و لم يخل الأمر طبعا كعادته من أن يستشعر من موتها نوعا من التقصير برغم أنه لم يفارقها خلال مرضها لحظة واحدة ... وأنه سهر على تمريضها ، فلم يغمض له جفن الليالى الثلاث السابقة للوفاة .. ولكنه مع ذلك لم يعدم مبررا لاتهام نفسه بالتقصير .. و لم يعدم سببا يعلل به مسئوليته فى وفاتها .

وعاونته ما استطعت على الصبر والتجلد ... وتوالت الأسابيع والأشهر وهى تقرض بأنياب النسيان كتل الحزن الجاثمة التى بدت فى أول الأمر جامدة لا تتفتت .. خالدة لا تتبدد .. حتى أضحت فى النهاية ذكرى نصيبها استمطار الرحمة واستنزال الغفران .

والتحق بكلية الآداب والتحقت بكلية الطب .. وسار كل منا فى طريقه ولكن الصداقة بيننا لم تهن ، والرابطة القوية من الحب والإخاء لم

تضعف .. بل بقى كل منا على وفائه لصاحبه ولهفته عليه برغم تباعد فرص اللقاء ولا سيما في أوقات الشدة المدرسية أعنى قبيل الامتحانات .

وعاش مع أبيه (الذى كان وقتذاك يشغل وظيفة كبيرة قارب الخروج منها بحكم السن) وثالثهما فى الدار « مدبولى » الطباخ .. أو ثالثهما كلبهما .. فقد كان به من الكلاب شبه كبير .. من ناحية الوفاء والأمانة . وفى تلك الفترة بدأ تحرره من قيود « التلمذة » ولم يعد يأبه كثيرا لأخفاء ميوله ، وبدأ نبوغه يظهر للملأ واحتل فى عالم الموسيقى مكانا مرموقا .

ومرت دراسته العليا دون حادث يذكر .. أعنى حادثا له أثر عميق يتصل بموضوعنا .. فما أظن حياته فترة ذاك قد شابها غير الشوائب العادية التى تشوب حياة فنان فى طريقه إلى المجد .

أظنه أحب بضع مرات .. ففتاة من الجامعة أحبها بحق الزماله ، وفتاة بجوار مسكنه أحبها بحق الجيرة .. وفتاة معجبة أحبته ثم هجرته فوضع لها بضعة ألحان .. وأذكر أنها لوعته وأقضت مضجعه فترة من الزمن لابأس بها .. ولكنه ما لبث أن أفاق .

وغير هذا لا أذكر شيئا ذا بال .. اللهم إلا احالة والده على المعاش وقضاء وقته ما بين الدار فى القاهرة وبضعة الأفدنة التى يملكها فى القليوبية والتى تولى زراعتها لحسابه منذ أن أحيل إلى المعاش .

وتخرج بعد أربع سنوات لم يرسب فيها سنة واحدة ، بل كان تفوقه فى دراسته العليا - رغم اشتغاله بالموسيقى - واضحا ، ووجد نفسه أخيرا قد ألقى من فوق كتفه حمل الدراسة الذى طالما أثقل كاهله ، وأضحى كما يريده والده .. رجلا محترما ذا شهادة عالية .. وبدأ بعد ذلك يفرغ تماما .. لألحانه وموسيقاه ... أو على حد قوله .. يعيش لنفسه .

ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى فقد والده . وكانت صدمته هذه المرة أخف بعض الشيء من صدمته الأولى بوفاة والدته .. أولا لأن الوفاة حدثت بعد مرض طال بضعة أشهر حتى باتت متوقعة بين آونة وأخرى ، وفقدت وقع المفاجأة التى كانت لوفاة الوالدة ، وثانيا - كما يبدو لى - أنه كان يحب والدته أكثر من والده .. فقد كان بالأخير نوع من الأنانية والانطواء .. أضعفت من قوة الصلة التى كانت يجب أن تكون بين الاثنين .

ولست أعنى بقولى هذا طبعا أنه لم يحزن أو أنه لم يحاول كعادته أن يدخل فى روع نفسه وفى روعنا مدى تقصيره فى العناية به ومدى مسئوليته فى وفاته ، وأنه لو لم يفشل فى الحصول على دواء معين لما حانت منية أبيه بتلك السرعة ولاستطاع أن يمد فى أجله .

ولم أناقشه كثيرا فى أوهامه تلك .. فقد تعودتها منه فى كل تافهة تمر بنا فما بالك بوفاة والده !؟

ومرت الوفاة ، دون أن تحدث فى حياته تغييرا يذكر .. فقد كان بطبيعته أميل إلى الاستقرار ، عزوفا عن التغيير والتنقل .. فاستمر قاطنا نفس الدار وهى « فيلا » متوسطة كائنة فى حدائق القبة .. مشرفة على المزارع القائمة على أطرافها .كان أبوه قد تولى بناءها على قطعة أرض يملكها ، واستمر محتفظا بالخدم ولا سيما « مدبولى » الطباخ العجوز ، الذى احتل فى الدار مركز المسئول الأول وكان له بمثابة الأب والأم وولى الأمر .

وعاد إبراهيم إلى تأجير الأرض التى ورثها عن أبيه بعد أن كان أبوه قد تولى زراعتها لحسابه إذ لم يكن لديه وقت ولا دراية بمثل هذه المشاكل واكتفى من الأرض ببضع مئات من الجنيهات تدرها عليه فى كل موسم زراعى يبددها فى معاونة نفسه على الحياة للتفرغ للموسيقى

والألحان ومعاونة الناس ومعاونة ضميره على الاستراحة من خوفه الدائم من التقصير فى معاونة الناس .

وأظن هذا كل ما يمكن ذكره باختصار عن حياته وعن خلقه ... وأظننى استطعت أن أرسم لك الإطار الذى أستطيع أن أضع فيه الحادثة المباشرة التى نتجت عنها حالته تلك .

بقيت مسألة هامة وهى الناحية النسائية فى حياته سواء أكانت عاطفية أم جنسية ، إنه لم يتزوج حتى الآن ، وأنا أعرف أن رأيه كان دائما ألا يتزوج بمحض إرادته .. أو على حد قوله .. إنه لن يلقى بنفسه إلى التهلكة بيديه .. أما إذا دفعته يد أخرى فليس أمامه ألا أن يتقبلها صاغرا .

ولست أشك أن مبعث إعراضه عن التقيد بالزواج هو أنه لم يشعر قط بالحاجة إليه ، فهو لم يحس بنقص فى أى مطلب له سواء أكان لقلبه أم لجسده .. فهو ما يسمونه بالرجل الحسن المنظر . فإذا أضفنا إلى حسن منظره لطف معشره وخفة ظله ودماثة خلقه وشهرته كموسيقار وجدنا أنه لم يكن من المستغرب أن تكون حياته دائما مليئة بأنثى تقدم له فى يسر وبلا مقابل وبلا قيد ما يغنيه تماما عن زوجة تقيده وتطبق على أنفاسه .

ولا أظنه ارتبط بإحداهن ارتباطا طويلا .. بل كان يبدو لى فى بعض الأحيان أنه يحب فى وقت واحد ثلاثة أو أكثر ، ولا أظنه كذلك خدع إحداهن أو خذلها ، بل كان — حتى بعد انتهاء العلاقة الوثيقة التى قد تربطه بإحداهن — يستمر على علاقة طيبة معها .

مفهوم ؟ .. هل استطعت أن أصفه جيدا من هذا الناحية ؟ أخشى لا .. وأخاف أن أكون أبديته فى صورة زير نساء .. وهو لا شك يتناقض تمام التناقض مع الصورة التى رسمتها له قبل أن أتحدث عنه فى هذه الناحية .

ولا شك أيضا أنك قد تتساءل عن موقف ضميره الوخاز اليقظ الكاره لشقاء غيره ، التواق إلى إسعاده ومعاونته .

ألم يكن أنسب لهذا الضمير أن يهدأ إلى واحدة وينطوى وإياها فى حياة هادئة يستطيع خلالها أن يقدم يد العون والسعادة للزوجة والأولاد ؟! .

حسن .. قد يكون هذا صحيحا .. ولكن تذكر أننى قلت إنه لم يخدع إحداهن أو يخذلها ، بل كان معهن دائما صريحا قويما .. وكان يقول إنه يبادلهن المتعة ، وأنه يسعدهن جميعا ، وأنه يعاونهن بطريقته الخاصة على الحصول على أكبر قدر من الهناء ، ولن يسىء إلى غرضه أنه هو نفسه يفيد المتعة ويحصل على السعادة .

ذلك كان تعليله .. وقد يكون غير مقبول .. ككل تعليل لذنب لا يعدم أن يجد فيه صاحبه ما يبرر به ذنبه .

ولكن لم نسميه ذنبا ، وتلك هى طبيعة الرجال ؟.. ورفقة النساء دائما أشد شيوعا وأكثر متعة من زواجهن .. ولا سيما لفنان قد يعتبر نفسه ملكا مشاعا أكثر منه ملكا خاصا لمخلوق معين ، ويجد أن حريته ووقته أثمن من أن يضيعهما تحت رحمة زوجة . وأنه يجب أن يعيش كالعصفور حرا طليقا يهتف على كل غصن ويغرد على كل فنن .

وهو ـ كما قلت لك ـ ليس نبيا .. بل هو مثلنا تماما .. ميال إلى المعصيات .. يكذب ويهمل ويفسق .. ولكن الفارق بيننا وبينه أننا نرتكب تلك الأشياء فى سهولة وبغير أن نعبأ كثيرا بوقعها على غيرنا ما دام وقعها على غيره ، وقبل أن يتأكد تماما من أنها إذا لم تفد غيره فهى على الأقل لن تضره .. وبعد ذلك كله لا يجد هناك ما يمنع ضميره من الوخز والتحرك .

وثمة مبررات أخرى ـ غير الرغبة فى التحرر من القيود ـ لاستساغته حياة الحرية تلك .. واكتفائه من الزوجة بالحبيبات والرفيقات .. وهو استقرار فى حياته المنزلية وراحة هيأها له العم « مدبولى »

الطيب ، المحنك ، الماهر ، الذى أقام له من نفسه أما وأبا وجعله لا يشعر قط بالمضايقات التى يقاسيها الأعزب ، بل كان يجد كل مطالبه فى الحياة من مأكل طيب ، وملبس نظيف ، ومضجع هادئ مريح ، بلا أى جهد بل بغير إحساس بأن هذه الأشياء تتطلب جهدا ، فقد كان يجدها معدة متوفرة بلا سؤال ولا تفكير .

ومبرر آخر هو انهماكه فى الدراسة الموسيقية ومحاولته إنجاز عمل ضخم كان ينوى - على حد قوله - أن يحدث به عند ظهوره ضجة كبرى .

وأخيرا .. وهو أقوى المبررات وأشدها .. والذى أعتقد قطعا أنه هو السبب الحقيقى .. ما يسميه هو ويقول عنه .. الافتقار إلى اليد الدافعة .. أى إلى المرأة التى يشغف بها حبا .. والتى تطير لبه .. وتذهب عنه صوابه .. والتى تقذف به إلى التهلكة بدفعة من أصبعها .. والتى كان يدعو اللّه من قلبه .. ألا تصادفه قط .. حتى يظل متمتعا بحريته .

أظننى أستطيع أن أبدا بعد ذلك بسرد الحادثة المباشرة .. وأنا واثق أنك تعرفه جيدا ، وتفهم أى نوع من الناس هو ، وأنك تستطيع أن تؤول تصرفاته وأعماله التأويل الصحيح .

بدأت الواقعة فى أواخر الشتاء من شهر ونصف شهر أو شهرين .

عندما التقيت بإبراهيم .. لقاء مصادفة .. لم يكن أحد منا يتوقعه .. وكان قد مضى على ما يقرب من شهرين لم ألقه .. فلقيته على وحشة وشوق ، وعلمت منه أنه قد عزم على أن يعتكف فى مكان ناء لا يرى فيه أحدا ولا يراه أحد حتى يتمكن من وضع « أوبرا » جديدة .. فقلت له :

- ولم لا تعتكف فى بيتك ؟

- لا .. لا .. لا فائدة .. حاولت أن أقبع فيه فلم أستطع .. أنا أعرف نفسى جيدا .. أنى أريد مكانا خاليا غير مطروق أسجن نفسى فيه .

ـ أظن « قره ميدان » .. هو خير ما يصلح لك ؟

ـ قره ميدان .. حر .

ـ إذا طره .. أظنه « طراوة » .؟ ويمكنك أن تحجز فيه حجرة بحرية .

ـ لا داعى للتعجل .. فأنا وأثق أنهم سيضعوننى فيه بعد إخراج الأوبرا .

ـ إذا إلى أين تنوى الذهاب . أيها المعتكف الكبير ؟

ـ قد أذهب إلى مطروح .. أو الغردقة .. أو أى منفى مشابه .

وهنا خطر لى خاطر وجدت فيه خير حل له فقلت هاتفا :

ـ اسمع .. مالك تذهب بعيدا ... المنفى أمامك معد جاهز لا يكلفك مليما واحدا .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد بيتى فى الإسكندرية .

ـ بيت السيوف ؟

ـ أجل .. إنه خال الآن ولن أذهب إليه قبل ثلاثة اشهر .

ـ واللّه فكرة .. ولكن ... ؟

ـ لكن ماذا ؟! لن نجد مكانا نائيا منعزلا مثله .. تستطيع أن تمكث فيه كأهل الكهف .. وأؤكد لك أنه لن يسأل عنك إنسان .. وسيمنحك ما شئت من هدوء وخلو بال وشاعرية .. إنه أصلح مكان لنزول الوحى على أمثالك . أظنك لن تجد معتكفا خيرا منه . ألديك اعتراض ؟

ـ لدى اعتراض واحد .. أنت تعرفه .

ـ ما هو ؟

ـ البعوض .. أتذكر الليلة التى قضيتها عندك فى الصيف الماضى .. إنى لم أنم لحظة واحدة .

ـ طبعا لأنه لم يكن هناك استعداد لنومك .. لقد نمت بلا ناموسية .. لأنه لم تكن هناك واحدة خالية .

ـ والبيت حر.

ـ حر ؟! لا تكن أحمق .. لقد نمت فى العام الماضى فى حجرة الاستقبال القبلية .. وكان الوقت عز الصيف .. أما هذا العام فالوقت ربيع وتستطيع أن ترتع فى حجرات البيت كما تشاء .. أؤكد لك أنك ستحتاج إلى التدثر بالأغطية .

وهكذا استطعت إقناعه بالاعتكاف فى بيتى الخالى . والواقع أنى كانت محقا فى إصرارى على إقناعه بالذهاب . فقدكان البيت نموذجا له . فأنا أعرفه جيدا .. وأعرف ولعه بمثل ذلك المكان الكائن فيه البيت وبالمناظر المحيطة به .

سأصف لك البيت وصفا سريعا عاجلا . أنت تعرف السيوف ؟ لا تعرفها ؟ إنها النقطة الكائنة فى مدخل الإسكندرية من ناحية الطريق الزراعى قبل فيكتوريا مباشرة .. أتعرف طريق أبو قير الذى تقوم على جانبيه النخيلات ويسير موازيا للترعة المتفرعة من المحمودية إلى الرأس الأسود .. قبل أن تصل إلى تقاطع طريق أبو قير والطريق الواصل إلى فيكتوريا القائمة عنده نقطة المرور الكائنة بجوار الكوبرى .. قبل أن تصل إلى هذه النقطة وأنت سائر على الطريق الزراعى القادم من القاهرة .. تجد مصرفا موازيا للترعة ولطريق أبو قير ولا يبعد عنهما أكثر من مائتى ياردة .. حيث تقع بين الاثنين أرض الأوقاف الزراعية الممتدة حتى الرأس الأسود . إذا اتجهت يمينك بحذاء المصرف ورأيت طريقا غير مرصوف يسمى طريق النخيل قام على جوانبه بعض النخيل الذابل وأشجار الكافور الجافة ، فإذا سرت فى الطريق بجوار المصرف مخلفا بضعة بيوت متفرقة على الطريق ، وجدت بيتا فخما أنيقا لمستشار ثرى متقاعد يجاوره بيت هو آخر البيوت القائمة فى الطريق ، ولا يبدو بعده سوى

أرض فضاء مقسمة للبناء تنتهى بأراض زراعية تبدو فى أفقها بضعة دور صغيرة .

هذا البيت الذى يجاور البيت الكبير هو البيت المقصود .. أو بلغة العرب بيت القصيد . ومن العبث أن تحاول رؤيته من الخارج فقد تكاثفت أشجار الجازورينا والكافور المحيطة به وتشابكت فروعها وتلاحمت أوراقها حتى أخفته تماما عن الأبصار وأقامت من نفسها غطاء أشبه « بالمكبة » لم تترك خارجها غير السور الخشبى والجاراج ، فإذا تجاوزت باب الحديقة الخشبى فى شارع جانبى وجدت البيت قائما أمامك وسط حديقة متكاثفة معشوشبة أشبه بالقلاع الخشنة رمادى اللون قاتم النوافذ قد أحيطت نوافذه السفلية بحواجز ذات قضبان حديدية غليظة ، ويبدو فى مدخله المواجه لباب الحديقة بضع درجات تفضى إلى الباب ، وفى الناحية الأخرى تبدو شرفة كبيرة ذات حاجز حجرى واطئ وقد دس أسفلها كوم من حطب الكافور الجاف وأصص مكسورة وأحجار وأتربة لم يحاول أحد إزالتها منذ أن غادرته قاطنته الأولى وهى إنجليزية عجوز .

والبيت من الداخل يبدأ بدهليز ضيق يفضى إلى « صالة » صغيرة تطل على الشرفة السابق وصفها ، وقد وضع على يمين الداخل بيانو ضخم قديم وعلى يساره بضعة مقاعد .. وفى المواجهة سلم رخامى يتجه إلى اليسار يؤدى إلى الدور الثانى الذى احتوى على غرف النوم والحمام ، وعلى اليمين غرفة الاستقبال ، ثم حجرة الطعام ذات المدفأة الكبيرة ثم المطبخ .

ذلك هو ما يحضر فى ذهنى من تفاصيل البيت ، ويبدو لى أن التفاصيل نفسها ليست بذات أهمية بقدر منظر البيت والجو المحيط به .

إن البيت أشبه بقلعة فى غابة .. والعين لا تبصر حوله إلا أراضى واسعة تتناثر فيها بضع دور مميزة بالحدائق المحيطة بها والنباتات المتسلقة على جدرانها وأسقفها الحمراء المائلة الجمالون .

وأسفل البيت يجرى المصرف الذى يحد الحقول الخضراء المترامية الأطراف الزاخرة بأعواد القصب التى تتماوج أطرافها فى مهب الريح ، ووراء كل ذلك حشد قائم من النخيلات كأنها حراس الأفق .

ذلك هو البيت الذى استقر به صاحبنا ليغرق فى موسيقاه ويضع مجموعة من ألحانه الجديدة ، نموذجا لمعتكف ومثلا لمهبط وحى ، لا يكاد يزعجه فيه طارئ ولا عابر ، ولا يؤنس وحدته رفيق ولا سامر .. اللهم إلا خادمة الأمين وولى أمره وطباخه « مدبولى » .

ولست أدرى كيف مرت به الأيام وقتذاك .. ولكنى أعرف بصفة عامة من بضع رسائل قصيرة تبادلناها ، أنه كان راضيا عن البيت وعن حياته فيه كل الرضاء ، وأنه لم تشب صفو أوقاته شائبة كدر ولا ضيق ، وكنت أعتقد أنه مستغرق فى وحدته ، منهمك فى ألحانه ، وأنه يعيش فى البيت النائى أشبه بناسك فى صومعة .. حتى وصلتنى منه رسالة ذات يوم تنبئنى بطريقة يسيرة عابرة .. بأنه خطب .

ولا أكتمك القول أن دهشتى من النبأ كانت شديدة ، فقد كانت خطبته ، وهو فى وحدته تلك ، آخر ما يخطر لى على بال ، ومع ذلك فقد أخذت الدهشة تتبدد تدريجيا ، بعد شىء من التفكير استطعت أن استنبط به الطريقة التى يحتمل أن تكون قد تمت بها الخطبة .

كانت الخطيبة ابنة الجار الذى يقطن البيت الكبير المجاور لبيتى .. ولست أشك — برغم أنه لم يحدثنى عن شىء من التفاصيل — أن المسألة ، اتخذت صورة حب سريع جارف ملتهب اشعلته الجيرة والوحدة وفرط الحساسية ، فأقدم فى غمرة حبه على خطبتها .

على أية حال لم يكن فى الخطبة شىء يسبب الانزعاج ، بل على النقيض ،كانت — بعدزوال الدهشة المفاجئة — أبعث على الرضاء والغبطة .. فقد كانت الفتاة .. فيما أعتقد — فتاة طيبة الأصل والخلق ، وكان جدها الذى يقطن معه رجلا طيبا موفور الثراء ، ذا مركز محترم ، إذ كان كما قلت مستشارا سابقاً .

وأرسلت إليه أهنئه وأعتب عليه مفاجأته لى وإتمامه الخطبة بهذه الطريقة الخاطفة التى لم تتح لى مشاركتى فرحته وقلت له إنى محتفظ بحقى فى الاحتفال بها عندما نلتقى .

ومرت بعد ذلك أيام أخرى شغلتنى عنه مشاغل الحياة ، حتى وصلتنى منذ بضعة أيام برقية من خادمه يسألنى الحضور حالا .

وكان للبرقية وقع شديد الأثر على نفسى ، وذهبت بى الظنون أسوأ المذاهب ، وأوجست منها أشد المخاوف ، ولم أملك سوى الإسراع لأعرف جلية الأمر .

وبعد نصف ساعة كنت أجلس فى أول قطار يذهب إلى الإسكندرية . وكنت شارد الذهن خلال الطريق وأخذت أوطن النفس على قبول شر النتائج ، ولكنى لم أكد أصل إلى البيت وأقترب من الحديقة حتى بلغت مسامعى أصوات موسيقى لا تخطىء مصدرها أذناى .

لقد كانت موسيقاه ... هو .

وأحسست بالطمأنينة تعاودنى ، والسكينة تملأ نفسى .. وحثثت الخطا متجها إلى الشرفة المطلة على الحديقة والتى لم يكن بابها مغلقا ، ودفعته فانفتح أمامى ، ووجدت إبراهيم جالسا أمام البيانو منهمكا فى العزف .

وأحسست من رؤيته سليما بفرحة لقاء الغائب الميئوس من لقائه .. فما شككت لحظة من البرقية التى وصلتنى أنى فقدته أو أوشك أن أفقده .

وإلا .. فما الداعى لتلك البرقية المبكرة التي تدعونى إلى الحضور العاجل ؟

أجل .. لعنة الله على الطباخ الغبى .. ماذا تراه يقصد بعمله هذا ؟

أى من دفعه إلى إهداء تلك البرقية المزعجة لى ؟!

ووقفت خلف إبراهيم ووضعت يدى على كتفه محاولا مفاجأته .

وبدأ لى أنه قد فوجئ فعلا ، بل كانت مفاجأته أشد كثيرا مما كنت أتوقع حتى أضحى الحال مفاجأة لى أنا .

لقد أحسست به ينتفض تحت يدى ، ثم يلتفت بحذر وخشية كأنه مجرم هارب وقع فجأة تحت قبضة مطارديه .

وأدهشتنى نظرات عينيه عندما وقعت علىّ . فقد كانت نظرات ذعر وخيفة .. لم يكن بها أقل ترحيب أو أبتهاج بل إدراك ومعرفة .

كان ينظر إلى من فوق كتفه نظرة شاردة ذاهلة وجلة خائفة . وما لبث أن انتفض كعصفور بلله القطر ، وأخذ يتسلل من تحت يدى مغادرا مقعده أمام البياتو وهو ينظر إلى نفس النظر وقد أطبق بإحدى يديه على حقيبة صغيرة حتى اختفى فى الحجرة المقابلة .

ووقفت أرقبه وهو يختفى عن ناظرى فاغرا فاه ، مشدوه النظرات ، معقود اللسان ، وأنا مطبق الشفتين .. لا أكاد أحسر على النطق .

لم أحاول تحيته أو الاستفسار عما به .. فقد كانت نظرته وفراره منى صدمة شديدة الوقع على .. ووقفت برهة حائرا أرقب الباب الذى اختفى وراءه .. محاولا أن أتمالك نفسى وأستعيد ثبات أعصابى .. وهممت باللحاق به لكى أعرف منه حقيقة الأمر عندما بدا « الطباخ » على باب الممر المؤدى إلى المطبخ .

و لم يكد يبصرنى الرجل حتى اندفع إلى وفى وجهه ما يشبه البكاء والاستغاثة .. وتشبث بى تشبث غريق فى عجلة نجاة وهتف بى :

ـ الحقنا يا سيدى .

ـ ماذا حدث ؟

ــ سيدى إبراهيم .

ــ ما له ؟

ــ لا أعرف .. ولا هو يعرف .. ولا أحد يعرف أبدا .

ــ أخبرنى بالضبط عما حدث .

ــ لا شيء أبدا .. لقد كان سليما أربعة وعشرين قيراطا .. لم يشك من شيء مطلقا .. وفى صباح الأمس عاد من الخارج مطبقا على الحقيبة التى رأيته يطبق عليها ، وقد بدت عليه حالة الذهول والشرود .. وهو لا يميز أحدا .. ولا يرى أحدا ولا يفعل إلا الصمت والحملقة والشرود .. وبين آونة وأخرى تصيبه نوبات تجعله فى أزمة شديدة يبدو عليه خلالها الألم والإجهاد .. وقد ظننت ما به عارضا طارئا نتيجة إجهاد وحاولت أن أهدئه وأريحه ، وأروح عنه بالمزاح كما تعودت أن أفعل ، ولكنه لم يلتفت إلى ولم يسمعنى .. بل كان بنظر إلى كأنه لا يرانى .. وخشيت أن يكون قد أصيب بالجنون ، ولم أدر ماذا أفعل .. وأخيرا لم أر بدا من الاستغاثة بك .. فأنا أعلم حبك له ، ومعزته فى نفسك ، أرجوك يا سيدى أن تنقذه مما به .. إنها « عين أصابته » ! .

وهكذا ظل الرجل يكرر أنها عين أصابته .. وعبثا حاولت أن أعرف منه أكثر من ذلك ، وعبثا أيضا حاولت أن أعرف من إبراهيم شيئا ، فما رأيت منه أكثر مما رأيت منه أول ما أبصرته ، ولا عرفت منه أكثر مما عرفت من خادمه .. شرود وذهول وأزمة عصبية تصيبة بين آونة وأخرى تجعله يذهب بعيدا فى أغوار سحيقة ويبدو كأنه يقاوم ويقاوم حتى يصيبه الكلال . . وخلال كل ذلك .. لا تخف وطأة يده على الحقيبة قيد أنملة .. بل هو يقبض عليها كأن بها روحه .

الفصل الثالث

جمرة فى الماء

وصمت زكى ، وطرق توفيق برأسه وأخذ ينقر بقلم فى يده نقرات منتظمة على زجاج المكتب .. وطال الصمت وبدا كأن كلا منهما ينتظر أن يبدأ صاحبه الحديث ، وأخيرا تحدث توفيق قائلا :

ـ وبعد ؟

ـ هذا كل ما فى الأمر .. وكل ما وسعنى أن أفعله بعد أن يئست من إدراك علته وفهم ما به ، هو أن آتى به إليك .. ولقد قصصت كل ما يعيه ذهنى عنه لأنى واثق أنك لن تستطيع أن تعرف منه أو من سواه أكثر مما قلت لك .

ـ لقد قلت الكثير ... إنى لأكاد أعرفه الآن معرفتك له .. ولكن أخشى أن تكون قد تركته ينتظر طويلا .. كان يجب علينا أن نرجئ شرحك إلى فرصة أخرى ... حتى لا تدعه يضيق بوحدته .

ـ لا عليك .. ليس أحب إليه من الوحدة .. إنه لا يكاد يشعر بما حوله ... بل إنه فى وحدته أكثر أمنا وطمأنينة .. ما دامت الحقيبة مستقرة تحت إبطه أو فى يده .

ـ عجيب أمر هذه الحقيبة .. أليست هناك أقل فكرة عما بها ؟

ـ أبدا .

ـ ولا الخادم ؟

ـ ولا الخادم ... وأرجو إلا تحاول أنت بمجرد مسها أو إعارتها أدنى اهتمام . لا تلق إليها بالا قط .. فهى أكثر ما به حساسية .. تجاهلها تماما كأنك لا تراها .

ـ مفهوم ... مفهوم ... دعه يدخل ... فليس من الحكمة أو الذوق أن نطيل انتظاره أكثر من هذا ، دعه يتفضل .

****

وكان إبراهيم مستندا بظهره إلى المقعد ... وقد مد ساقيه وأخذ ينعم بشىء من الاسترخاء المريح ... كان يحس بفرط حاجته إليه عقب تلك الأشواط المتلاحقة من العدو بين الرمال الثقيلة والأمواج المتلاطمة ... والهروب واللحاق والإغاثة والصراع .

لقد أحب جلسته تلك ... بخضرتها المترامية ونخيلها المتناثر ، وأشجارها المتكاثفة ، وأبنيتها الشامخة ، ومائها المنبسط العريض ... وزرقة سمائها المشوبة بنتف من السحب البيضاء المتلاحقة ... وترك عينيه الشاردتين تستقران فى هدوء على حافة الأفق بين أطراف النخيل ومداخن الدور ، وأرخى أعصابه المكدودة المتوترة ... وبسط أعضاءه المنهكة المشدودة ... عدا ذراعا تركه يشد الحقيبة كأنه عين الثعلب الساهرة .

وانطلقت من صدره زفرة ... أعلن بها رضاءه النسبى عن جلسته تلك ... وأبدى بها أطمئنانه إلى راحته .

ونعم براحته فنزة ... ليس يدرى أقصرت أم طالت ... عندما أحس بكف توضع برفق على كتفه ... فكانت بمثابة الإنذار بانتهاء حالة الاسترخاء ... فتوترت الأعصاب ، وشدت العضلات ... وزاد ذراع الحقيبة إطباقا عليها ، ورفع بصره إلى صاحب الكف المنذرة فأبصر وجه صاحبه .

أين كان ؟ ... لقد كاد ينساه . بل لقد نسى أنه هو الذى أتى إلى هنا . هنا ؟!! ما هنا ؟

أف لهذه الذاكرة المعتمة التى لا يبصر من خلالها قيد شعرة ؟

أيسأل ؟ . لا . لا داعى أبدا . ليس هناك خير من الصمت والانتظار .. لابد أن صاحبه سيقول شيئا ، يعلم منه شيئا ... بمنحه بصيصا من ضوء يكشف له هذه الظلمات المتكاثفة .

وتحدث صاحبه فعلا ... ولكن ليس كثيرا ... لقد قال :

ـ هيا ! .

هيا ... هيا ! ليس عليه سوى الاستجابة .

ونهض فى صمت يتبع صاحبه ، ولم يطل بهما السير كثيرا .

بضع خطوات فقط ثم عبر بابا أدى إلى حجرة صغيرة أسدلت على نوافذها الستائر واستبدل فيها نور النهار بمصباح كهربائى هادئ الضوء وضع فى ركن الحجرة .

وبنظرة سريعة عابرة حذرة استطاع أن يلم بمحتويات الغرفة .

لم يكن بها شيء غير عادى .. بضعة مقاعد جلدية وبضع صور زيتية صغيرة معلقة على الحائط بها أشجار وبحر وسماء وأشياء أخرى من التى ترسم دائما فى هذه الصور الزيتية ، ودولاب وضعت به بضعة كتب ضخمة ومنضدة رصت الأزهار فى إناء فوقها ، وأريكة أو فراش لا يدرى .

هذا ما قد وقع عليه بصره عند أول خطوة خطاها فى داخل الحجرة ، ولكنه لم يكد يخطو خطوة أخرى حتى لمح على يساره مكتبا نهض من وراءه رجل دقيق التقاطيع أميل إلى القصر والنحافة ، وقد وضع على عينيه منظارا ، وارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة ، ومد يده وهو يقول مرحبا :

ـ أهلا ... أهلا ... تفضل يا أستاذ .

وأخذ فى أول وهلة بمرأى الرجل . فتوقف وشد ذراعه فوق الحقيبة ، ولكن سيماء الرجل المطمئنة وابتسامته العذبة الرقيقة... بددت حذره وأضاعت مخاوفه ، وجعلته يشعر أنه ليس هناك ما يوجب الخشية ويدعو إلى الحذر .

ومد يده فشد بها على اليد الممدودة فوق المكتب ، وعاد الرجل الرقيق الحاشية يرحب به :

ـ أهلا ... وسهلا ... تفضل يا أستاذ إبراهيم .

إذا فهو يعرفه ... ويعرف أن اسمه إبراهيم ... ولكن هل هو حقا إبراهيم ؟. طبعا ... لابد أن يكون كذلك ، وإلا لما دعاه الرجل كذلك !

إبراهيم .. أم غير إبراهيم !! ليس عليه إلا أن يكون كذلك ... وليس أمامه إلا أن يجلس على هذا المقعد المريح الذى يعرضه عليه الرجل .

وهبط إلى المقعد الجلدى الكبير وقد رسم على شفتية ابتسامة يرد بها على ابتسامة الرجل الرقيق ... وأمامه جلس صاحبه .

واستمر الرجل فى حديثه .

ـ فرصة سعيدة جدا يا أستاذ إبراهيم .. لقد كنت أتوق إلى لقائك من قبل ... حتى أعبر لك عن أعجابى المتناهى بألحانك الرائعة . أنا أحب الموسيقى من صغرى ... ولى أذن موسيقية حساسة صادقة الحكم أستطيع بها أن أميز اللحن الطيب الأصيل من اللحن الزائف الردىء . ولقد أحسست وأنا أسمع لك أول ألحانك ... وأظن ذلك منذ خمس سنوات ... أنك فنان موهوب عبقرى ... وأنه سيكون لك شأن كبير فى عالم الموسيقى ... ولقد تتبعت ألحانك دائما ، وكنت فى كل مرة أود أن أنقل لك رأيى ... ولكن الظروف لم تتح لى الفرصة ، وأظنك تستطيع أن تقدر بعد كل هذا مدى السعادة التى أشعر بها وأنا ألقاك أخيرا .

كل هذا له هو ؟ لقد ارتاح للرجل من أول نظرة .. ولكنه لم يتوقع قط أن يكون له في نفسه مثل هذا القدر ... والرجل يبدو في قوله مخلصا غير منافق .

ولم يعرف بماذا يجيب .... لقد تملكه ارتباك واضطراب مشوب بالرضاء والغبطة . ولم يملك ردا على ذلك سوى أن يطاطئ رأسه ويتمتم كلاما غير مفهوم لأحد ... ولا له هو نفسه .

ولم يكد ينتهي من هذه التمتمة غير المفهومة حتى وجد صاحبه ينهض قائلا :

ـ عن إذنكم دقيقة واحدة .

ثم يتحرك مغادرا الغرفة .

وأحس بشيء من الخوف وهو يجد صاحبه قد خلفه وحده مع الرجل الغريب ، وهم بالنهوض وراءه ، ولكن ابتسامة رقيقة من الرجل ألزمته مقعده ، ولم يملك سوى أن يمنحه ابتسامة مشابهة ردا له على ابتسامته .

ووضع الرجل يده على جرس أمامه بالمكتب وهو يقول :

ـ أظن ليس هناك ما يمنع من مشاركتي فى فنجان من القهوة ؟!

ودخل رجل يرتدى « مريلة » بيضاء ، ولم يجب هو بشيء ... أو لم يحس فى نفسه الرغبة أو القدرة على المعارضة فى شيء .. إن خير ما يفعل هو الموافقة والاستسلام .

وأمر الرجل بالقهوة ، وانطلق الآخر ليحضرها . ثم عرض عليه علبة سجائر فهز رأسه رافضا .. وبعد أن أشعل سيجارة لنفسه عاود حديثه :

ـ كان يجب أن نلتقى قبل الآن ... إنى أعشق الموسيقى . أحس أنها جزء من غذاء الإنسان كالماء والهواء ... أليس كذلك ؟

هذا كلام طيب ... إنه هو أيضا يعتقد ذلك . ولكن ليس به رغبة كبيرة فى الحديث ... إن عقدة لسانه لم تفك بعد .

ولم يملك سوى أن أشار برأسه موافقة منه على السؤال .

واستمر الرجل فى حديثه دون أن يثقل عليه بطلب الإجابة :

ـ كنت أمس الأول فى الأوبرا .. أشاهد الفرقة الإيطالية التى تعمل بها.. سمعت بضع قطع رائعة .. ألم تسمعها ؟

هذه لم يذكر أنه سمعها ، ولا سمع غيرها ، وبهزة من رأسه يمنة ويسرة أجاب عن السؤال .

وعاود الرجل الحديث :

ـ يجب أن تسمعها ، ستعجبك جدا ... وشىء آخر أنصحك أن تشاهده ... « فيلم » عن حياة شوبان يعرض الآن فى سينما ... سينما ... لست أذكر الآن .

وهو أيضا لا يذكر ، ولكن الفارق بينهما أن الرجل لا يذكر السينما فقط .. أما هو فلا يذكر شيئا أبدا .

وتجاوز الرجل عن السينما التى لا تذكر ، كما يتجاوز هو عن كل شىء لا يذكره ... وعاود الحديث :

ـ كنت بالأمس أسمع الإذاعة فسمعت مصادفة إحدى السمفونيات لبيتهوفن وعلمت أنهم يذيعون سمفونية لأعلام الموسيقى يوم الأربعاء من كل أسبوع فصممت ألا تفوتنى بعد ذلك . ولم تكد تنتهى السمفونية حتى تبعها دور من موسيقانا الشرقية القديمة لزكى مراد هو « يا للى جرحت القلب داويه » ... وأؤكد لك أنه أطربنى جدا ... إنى أحب كل أنواع الموسيقى ... ما دام اللحن جيدا ... وإن مقياس جودة اللحن هو الأثر الذى يتركه فى النفس ... وهو نفس مقياس جودة أى عمل فنى .. ولذلك فإنى لا أجد هناك معنى لتقديم العمل الفنى لنفس لا تملك وعيا فنيا ... ولذلك يجب تنمية الوعى الفنى فى النفوس حتى يجد العمل الفنى التربة الخصبة التى ينتج فيها ثمرته .. ويبدو لى أن خير ما فعلت أنت هو تنمية هذا الوعى ... إنى لا أعتبرك مجرد موسيقى ، بل

أعتبرك صاحب الرسالة ... لقد غرست في نفوس العامة القدرة على استساغة نوع من الموسيقى العالمية كانت تنفر منه لأنها لا تدرك قيمته ... لأن وعيها الفنى كان محدودا ... وإدراكها كان لا يتعدى الموسيقى المتكررة المعادة ذات الليالى والآهات .. وهو شيء قد يكون له قيمته الفنية كلون من ألوان الموسيقى ووجه من وجوهها ولكنه ليس كل شيء ... ومن الخطأ أن يقصر إدراكها الفنى إلا عن فهم واستساغة هذا اللون بالذات ... ويبدو لى أنك قد أدركت هذا النقص وبدأت تعمل على علاجه .. فعندما أتتبع موسيقاك أستطيع أن أجد بها نوعا من تربية الوعى الفنى لعامتنا ، وأجد انتقالا تدريجيا بموسيقانا من المحيط الشرقى الضيق إلى الأفق العالمى المتسع .

عجيب هذا الكلام !

وأحس إبراهيم بأنه ينصبت إلى الرجل فى لهفة .. ويتبع حديثه تتبع المشوق المدرك الواعى ... الصافى الذهن ، السريع الفهم ، الحاضر الذاكرة .

هذا الكلام قد بدد الكثير من السحب التى كانت تحيط به وأذهب الكثير من الخوف والحذر مما حوله .

وبدأت أعصابه المشدودة ... تهدأ وتسترخى وابتسم للرجل وهو يحس بوثاق من الصداقة والثقة يقرب بين أحدهما والآخر .

وابتسم الرجل وهو يتمم حديثه فى لهجة تشعر السامع بصدق صاحبها :

ـ كان آخر ما سمعت لك ، هو لحنك « ساعة غروب » ولقد ترك بنفسى أثرا عجيبا ...عجيبا جدا ... لا أظن لحنا ترك بها نفس الأثر .. كان له شيء يجعلنى أميل إلى ذرف الدمع ... لست أدرى لم ولا علام ! ولكنى كنت أحس وأنا أسمعه كأن شيئا عزيزا يتسرب من يدى ولا أملك حفظه أو منع تسربه ... كنت أحس كأن شيئا مضيئا فى حياتنا

تهب عليه وعلينا ريح توشك أن تخمد ذبالته ونحن لا نستطيع لها صدا .. كنت أحس .. بحياة تتنزع وروحا تخمد ... كنت أكاد أبصر أمامى الشمس الغاربة .

وهنا تحدث إبراهيم ... لأول مرة .. بلا جهد ... ولا مشقة ولا تكلف ... وانفرجت أساريره وانبسطت عقدة لسانه ... وأحس كأنما قد خلف وراءه أكواما من القيود والأثقال والسحب والآكام والرمال والأمواج ، وأنه بات وحده حرا طليقا .. قال ببساطة وحرارة :

ــ أنا أيضا كنت أحس ساعة وضعه بنفس إحساسك ، وليس أحب إلى نفسى من أن أعرف أنه استطاع أن ينقل إليك مشاعرى نقلا صادقا خالصا ... لقد صدر اللحن من قلبى ، فليس عجيبا أن يستقر فى قلبك ، وإذا كنت قد أبصرت من خلال أنغامه شمسا غاربة .. فأنا أيضا قد وضعته وأمامى الشمس تهبط وراء الأفق ..كان الوقت ساعة غروب ... والشمس قد صبغت البحر بلون الدماء ... وأخذ قرصها الأحمر يتوارى وراء الأفق كأنه جمرة تنطفىء فى الماء مخلفة وراءها رمادا من السحب .

أجل .. أجل . إنه يذكر المنظر جيدا .. يذكره بكل تفاصيله ودقائقه بغير غموض ولا إبهام ... وبغير تلك السحب المعتمة التى تعود أن يراها تتكاثف فى ذاكرته وتلفها فى ظلمة غاشية تحجب كل ما بها .

وسادت فترة صمت استعاد خلالها تلك الفترة إلى ذاكرته ، وقد أطرق برأسه وأطلق من صدره زفرة هادئة مريحة .

وأخذ الدكتور يلقى عليه نظرة فاحصة وبوده لو يستشف ما فى ذهنه ، وانتظر أن يعاود الحديث ليلقى بكلماته بعض الضوء على المتاهة التى يضرب فيها .

وطال الصمت ، واضطر توفيق أن يقول شيئا يخرجه به من تخيلاته فسأله فى رقة :

ـ لا بد أن المنظر أرهف مشاعرك ؟

ورفع إبراهيم رأسه وأجاب في يسر :

ـ جدا ... لقد كان منظرا عجيبا .

ـ أتذكر أين ؟

ـ في الشاطئ .. على صخرة نائية في سيدى بشر ... كنت أجلس وحيدا في المرة الأولى .

ـ والمرة الثانية ؟

ـ الثانية !!

ولم يدم صمته أكثر من ثوان ، ثم انطلق في الحديث كأنما يناجي نفسه :

ـ كانت معي ، كنا نجلس متجاورين على صخرة متشابهة ، والمنظر الرائع قد امتد أمامنا ، والنسيم قد رق ، والموج قد انبسط ، والجمرة القانية تنزلق في الماء ، وهي قد استندت برأسها إلى كتفي ، وهمست في أذني :« وددت لو أسمعتني شيئا » ، وكنت أحمل في جيبي نايا صغيرا ، وجذبته ببطء من جيبي ، ثم أخذت أنشدها « ساعة غروب » ، وعندما انتهيت ، التفت إليها فإذا بالدموع تنساب من مآقيها ، وإذا بها تخفي وجهها في صدري ، وكأنما العبرات تنساب في همساتها : « أخشى أن أفقدك ،كنت أحس وأنا أسمعك أنك تذهب بعيدا ، بعيدا وأني أناديك فلا تجيبني إلا صدى صرخاتي تردد بين الصخور » ، وضحكت وقلت لها : « لا تخشي شيئا ، أنه تأثير اللحن الذى وضعته في ساعة يأس ووحدة ، ولو كنت معي وقتذاك لكان شيئا آخر ، ولسميته ساعة شروق ، لشمس لا مغرب لها ، شمس باقية إلى الأبد ، كما سأبقى إلى جوارك » وأفعمها حديثي بالأمل ، فغاضت عبرتها وفاضت بسماتها ، ولقد كنت في حديثي ساعتذاك مخلصا لها

مؤمنا بحبها ، و لم أكن أظن أنى سأتخلى عنها قط ، كنت واثقا أن شمس حبنا ، لا مغرب لها ، ولكن يبدو لى أن كل شمس مآلها إلى الغروب .

ومرة أخرى عاود صمته ، وخشى توفيق أن يجمح بعيدا و لم يجد بدا من أن يجذب عنانه بكلمتين ليعيده إلى الطريق فقال :

ــ وكل غروب مآله إلى شروق جديد .

ــ إلا هذا ، فهو غروب بلا شروق .

ــ أى شىء يدعوك إلى هذا اليأس ؟ ما من ظلمة يأس إلا وراءها بارقة أمل .

ــ لقد أطفأت بيدى كل البوارق ، لقد انتهى كل شىء ، لا فائدة هناك .

أجل ، لا فائدة ، إنه يذكر الآن أنه قطع كل حبال الرجاء ، يذكر ساعة أن ذهب إليها وأنبأها أن كل شىء بينهما قد انتهى .

وعاد يردد :

ــ أجل ... لقد قطعت بيدى كل علاقة بيننا .

وأحس توفيق أنه قد وضع يده على شىء ، وأنه قد أمسك بطرف الخيط ، وتركه برهة ليتمالك أنفاسه ، ثم عاد يستحثه :

ــ كيف قطعتها ؟! ماذا حدث بينكما ؟! لقد خيل إلى من حديثك أنكما كنتما خطيبين سعيدين ؟!

ــ أجل كنا كذلك ، ولكن ...

وفجأة فتح الباب وأطل الخادم برأسه حاملا بين يديه فنجانى القهوة .

وفوجئ إبراهيم بدفعة الباب وراءه فتوترت أعصابه وشدت عضلاته وأطبق بذراعه على الحقيبة ،وتلاحقت أنفاسه وهو ينظر بحذر إلى القادم خلفه . .

ماذا يريد ؟ لماذا استدرجوه إلى هنا ؟ ومن هذا الجالس أمامه ذو العوينات ، ما له يحملق به هكذا ؟! وتدفقت السحب فى ذهنه، وبدأت المطاردة ، وبدأ العدو فى الرمال ، وضل الذهن وضاعت الذاكرة ، وأخذ العرق يتصبب من جبينه .

وأدرك توفيق أن طرف الخيط قد ضاع مرة أخرى ، واعتصر جبينه بيده ثم نظر إلى الخادم فى يأس وقال :

ـ إنها غلطتى أنا ، كان يجب أن أذكر مسألة القهوة هذه .. على أية حال .. اذهب الآن وادع الدكتور زكى .

وبعد لحظة عاد زكى فأشار إليه توفيق بالجلوس ، فأخذ مجلسه على المقعد الجلدى الآخر .

ثم حول بصره إلى إبراهيم وسأل :

ـ ماذا به ؟

وأجاب توفيق بهدوء وقد تمالك نفسه :

ـ لا شىء ... أصابته النوبة التى حدثتنى عنها .

ـ ولكن ... هل عرفت منه شيئا ؟

ـ بعض الشىء ... لقد جلوت عن ذهنه بعض صدئه . وانطلق يتحدث بطلاقة واطمئنان ، حتى دخل ذلك الأحمق يحمل القهوة .

ـ خسارة ... ولكن لم لا تحاول مرة أخرى ؟

ـ لا أظن هناك فائدة ... يجب عليه أن يستريح الآن . على أية حال لقد عرفت شيئا هاما ، أعتقد أنه يضع لنا أساسا لحالته تلك ، ويمنحنا سببا طبيعيا لما أصابه .

ـ ما هو ؟

ونظر توفيق إلى إبراهيم فإذا به مازال بعيدا ، وقد بدا عليه الإرهاق والتوتر ، ثم حول بصره إلى زكى قائلا :

ـ لقد فك خطبته ، لقد أنهى هو كل شيء على حد قوله . إن المسألة صدمة عاطفية أعقبها انهيار فى الأعصاب .

ـ ولكن ما السبب ؟

ـ السبب أنه لا شك مختبئ فى ذهنه الشارد وذاكرته المعتمة ، إنه أمامك ، ابحث عنه إذا شئت .

ـ ولكن ، ألا يمكنك معرفته ؟

ـ بل يجب علينا معرفته ، وبغير معرفته لن نستطيع علاجه ، لابد من جلسة أخرى وثالثة ورابعة ،حتى نجلو خبيئة نفسه ... المسألة تحتاج إلى وقت .. هذه ليست عملية جراحية يا أستاذ زكى .

ـ أجل أجل ! ولكن مع ذلك أخشى ألا تستطيع .. أخشى أن تزداد حالته سوءا .

ـ اطمئن ، لا أظن هناك ما يدعو لمخاوفك، ثم إنه ليس أمامنا سوى ذلك ، إن حالته تحتم عدم إرهاقه .

وأطرق زكى برهة ثم رفع رأسه فجأة قائلا :

ـ ألا تظن أن خطيبته تستطيع معاونتنا فى شىء ؟

ـ يتوقف ذلك على رغبتها فى المعاونة ، وعلى نوع مشاعرها نحوه الآن ، وعلى طبيعة ما حدث بينهما ، وعلى أية حال لست أرى ضررا من سماعها على حدة إذا استطعت إحضارها .

ـ سأحاول ، سأبذل كل جهدى ، وأعتقد أنها لن تخيب رجاءنا ، فمهما يكن قد أساء إليها فلا أظنها ترفض معاونتنا فى شفائه ، إنها مسألة إنسانية ، إنها...

ولم يتم حديثه فقد قطعه زفرة من إبراهيم أحس فيها كأنه ينفض عبئا يجثم على صدره ، والتفت الاثنان إليه فإذا به قد عاد من رحلته الشاقة المضنية ، ومد زكى يده فربت بها ذراعه وقال مخاطبا توفيق :

ـ أظننا نستطيع الانصراف الآن ، لقد أضعنا الكثير من وقتك .

ـ أبدا ، لقد أتحت لى فرصة كنت أحلم بها ، وما أعظم سرورى لو استطعت أن أقضى مع الأستاذ وقتا أطول .

ونهض زكي وهو يقول :

ـ إن شاء الله نكرر الزيارة ... إن إبراهيم لا شك سعيد بمعرفتك .

ولم يكن يبدو على إبراهيم شيء من السعادة ... كان منهمكا مكدودا عقب المطاردة والصراع الذى انتهى منهما . ونظر إلى الاثنين فى حيرة .. ولم يملك سوى النهوض والشد على اليد التى امتدت لمصافحته والتمتمة بالكلمات غير المفهومة التى تعود أن ينقذ بها نفسه كلما أصابه حرج ، وكلما أعياه الفهم .

وقال زكى وهو يحيى الرجل الآخر :

ـ سأتصل بك تليفونيا لأنبئك بالنتيجة ... السلام عليكم .

ودلف الاثنان من الباب ... وبعد لحظة كانت إحدى عربات الأجرة تعود بهما إلى مسكن إبراهيم فى الحدائق .

كان إبراهيم مازال مطبقا على الحقيبة وصور الطريق تتتابع على بصره من وراء نافذة العربة .

وكان زكى قد استغرق بدوره فى التفكير ... لقد بدا له إحضار الخطيبة مسألة هينة فى مبدأ الامر ... كأنما لم يكن عليه إلا أن يشير إليها بالحضور فتندفع إليه .. ولكنه عندما استغرق فى التفكير وقلب الأمر على وجوهه وجد أن المسألة متعذرة إن لم تكن مستحيلة .

إنه لا يعرفها ولا تشرف بمعرفة جدها .. ومن العسير عليه أن يذهب لدعوة فتاة لم يسبق له معرفتها للحضور إلى طبيب لكى تعترف له بما لا يمكن أن يسمى بأقل من مأساة حب هى أحد طرفيها .

أنها قطعا غير ملزمة بذلك .. ثم من يدرى أنها ليست فى مثل حاله من الضيق واليأس ... أو من يدرى أنها ليست غاضبة لا تطيق ذكر اسمه .. إن الأسوأ لا بد أن يكون فى الانتظار ... فالقطيعة واقعة ...

وهى لا بد أن تكون ناتجة عن خطأ من أحد الطرفين : إما هو وإما هى . فإذا كانت هى فمعنى ذلك أنها لا تريده مع سبق الإصرار ... وإذا كان هو فقد أصابها بصدمة جعلته يفقد الكثير من موقعه فى نفسها .

وهكذا ظلت الافتراضات تلف فى رأسه وتدور ... حتى جعلته يندم على هذا العرض ويتهم نفسه بالسخف لمجرد التفكير فيه ... ويقدر سعة صدر الدكتور توفيق لأنه تقبله منه دون أن يسفه آراءه .

على أية حال .. المسألة « ملحوقة » إنه لم يتورط فى شىء بعد ... ليس عليه سوى الانتظار حتى الغد ، ثم يدق التليفون لتوفيق لينبئه أنه لم يستطع إحضارها ... هذا كل ما فى الأمر .

ولكن لم لا يحاول ؟ .. ماذا يخشى ؟... هبها صدته .. هبها ثارت وغضبت .. أى ضرر فى ذلك ؟! إن النتيجة لن تسوء فى حالة الرفض أكثر مما هو كائن ... وإذا قبلت وإذا ذهبت ... وقالت شيئا ... فربما يكون ذا فائدة .. مهما ضؤلت فهى خير من لا شىء .

ووقفت العربة أمام باب البيت وهبط الاثنان ، وتقدم إبراهيم بسهولة واطمئنان .. أن المكان محبب إلى نفسه ليس عليه منه خوف ولا حرج .

وكان مدبولى فى الانتظار فقد تركهما فى المحطة واتجه لإعداد البيت وكانت على سيمائه الطيبة علائم التساؤل واللهفة وتقدم يقود سيده إلى حجرته .. ثم تركه وأقبل على زكى متسائلا :

ــ خير يا سيدى ؟

ــ خير يا مدبولى ... لقد استطاع الدكتور أن يحدثه .

ــ الحمد لله ... وماذا قال له ؟

ــ قال أنه فك الخطبة ، وأنهى كل شىء .

ــ لا حول ولا قوة إلا بالله . إذا فهذا هو السبب .. كان يجب أن أحمنه ... ولكن لم يخطر ببالى مطلقا أنه يمكن أن يفك الخطبة ...

الله يسامحك يا ست راجية... الله يسامحك ... ولكن فك الخطبة يحدث كل هذا ؟

ـ لا بد أن تكون قد حدثت أشياء قبل فك الخطبة ...مشاكل أدت إليه .

ـ عجيبة ؟!!

ـ أى شىء عجيب فى ذلك ؟!

ـ المسألة كلها عجيبة ... أنا أعرف أنه يحب الست راجية وأعرف أنها تحبه .. وأنها ليست من صاحبات المشاكل ... إنها طيبة جدا ... وتحبه جدا .

ـ متأكد ؟

ـ متأكد فقط .. أستطيع أن أقسم على هذه النعمة ، (ورفع رغيفا إلى جبينه) .

ولكن زكى قاطعة :

ـ لا داعى للقسم ... على أية حال هذا شىء فى مصلحتنا .. هذا يسهل المسألة كثيرا .

ـ أى مسألة ؟

ولم يجب زكى .. بل أخذ يحدق فى مدبولى وقد شرد ذهنه . أجل !! لماذا لا يستعين بمدبولى ؟! أنه يبدو من حديثه أنه على معرفة بها ، وهو لا شك قد رآها وحدثها كثيرا ... وهو رجل طيب محبوب ... وستقبل ... « راجية » رجاءه قبولا حسنا .

ولكن هل يستطيع إفهامها ؟ ... إنه على شىء من الغباوة .. ولكن لو ألح زكى فى إفهامه فلا شك أنه سيفهم وسيحاول إفهامها .

ثم .. ليس هناك سواه .. إنه الوسيلة الوحيدة .. ولا بد من تجربتها .

ـ اسمع .. يا ..

ـ خادمك .

ــ يا مدبولى .. هناك مسألة هامة .. يتوقف عليها شفاء سيدك إلى حد كبير .. وأعتقد أنك خير من يستطيع أداءها .

ــ أنا ؟!

ــ أجل أنت .

ــ أنا يا سيدى لا أفهم كثيرا فى الطب .. إن والدتى كانت « داية » .. وأبى كان « حلاق صحة » .. ولكن أؤكد لك أنهما لم يورثانى ــ عليهما رحمة الله ــ أى شىء من معلوماتهما الطبية .

ــ لسنا نريد منك خدمة طبية .. كل ما نريده منك هو أن تقنع « راجية » بالحضور إلى الطبيب للتحدث معه .

ــ أنا ؟.. أحضر راجية ؟!... لا .. لا .. بعد ما حدث لا أجرؤ على الدخول .

ــ ما هذا الصياح ؟!.. أمجنون أنت ؟!.. أهذا هو الإخلاص لسيدك ؟! أتخاف من فتاة ؟

ــ أنا لا أخاف منها .. إذا كان عليها هى فإنى على استعداد لكى أطير إليها حالا .. إنها طيبة جدا ، كالسكرة .

ــ إذا ممن تخاف ؟

ــ جدها ــ يا سيدى ــ أعوذ بالله .

ــ ماذا سيفعل بك ؟

ــ لو ذهبت قبل الغداء .. قد يأكلنى .

ــ إلى هذا الحد ؟

ــ وأكثر .

ــ إذا اذهب إليها بعد الغداء .

ــ اسمع يا سيدى ... ليس هذا وقت مزاح .

ــ أنا لا أمزح .. لا بد لك أن تذهب .. إن المسألة حقيقة ذات فائدة كبيرة فى علاج سيدك .

- إذا أذهب والأمر لله ... ولكنى سأبلغ الأمر أولا إلى « سيدة » .

- سيدة ؟... من تكون سيدة ؟

- خادمة راجية .

- لا .. لا .. يا مدبولى أريد أن تبلغها شخصيا .. أريد منك أن تحاول التأثير عليها بنفسك .

- إنى أستطيع التأثير على « سيدة » أكثر مما أؤثر عليها .. أن بيننا علاقات طيبة .. وسيدة بدورها تستطيع التأثير على سيدتها أكثر مما يؤثر عليها أى شخص آخر .. ثم هى تحب سيدى إبراهيم وهى ليست مجرد خادمة .. إنها فى حكم المربية .

- إذا كنت واثقا من هذا .. فافعله .. المهم هو أن تقنع راجية بالحضور إلى الطبيب .. وعندما تصل إلى القاهرة دعها تحدثنى فى التليفون حتى أصطحبها إلى هناك .

- إن شاء الله .. ربنا يسهل .

وهم مدبولى بالانصراف ، ولكنه التفت فجأة وسأل متداركا :

- ولكن .. من سيمكث مع سيدى ؟

- سأمكث معه أنا .. وسأرسل فى أحضار خادمى محمود حتى تحضر .. لا تحمل له هما ... كل ما عليك هو أن تحقق مهمتك وتسرع العودة .

- حاضر .. حالا .. حالا .. سأحاول أن ألحق بأول قطار .

الفصل الرابع

ما فى القلب باق

واندفع الرجل الطيب الأمين إلى مطبخه يهرول بجسده الممتلئ وبطنه البارز وأمسك بمعطف أبيض علق فوق مشجب فى المطبخ فدس فيه جسده ثم قذف بالطربوش على رأسه ، وأخذ يتلفت حوله فى حيرة كأن هناك شيئا هاما يحاول تذكره .. وأخيرا اندفع إلى الباب ورفع يده إلى أعلى وجذب عصاه المعلقة خلفه وانطلق إلى الخارج .

وفى أول قطار إلى الإسكندرية ألقى الرجل نفسه فوق المقعد وتنفس الصعداء ، ولم يكد جسده يحس الراحة والاستقرار حتى انطلق ذهنه يفكر فيما هو مقدم عليه .

من كان يصدق أن سيده العاقل الرزين يحدث له هذا ؟ حقيقة إنه كان أحيانا يأتى بتصرفات لا تعجبه كثيرا .. وحقيقة أنه كان كثير الشرود والذهول .. دءوبا على الوحدة والتنتنة والدندنة .. ولكن هذا لم يكن قط ليودى به إلى ذلك المصير .

أكان يخطر له ببال أن إبراهيم .. الذى رباه كابنه .. بعد عشرة الأعوام الطوال .. لا يعرفه .. سبحان الله !

وما سر هذه الحقيبة التي يحتضنها ليل نهار ؟! لا بد أن بها شيئا هاما .. لو استطاع أن يعرف ما بها !! ولكنه لا يمكنه منها .. إنه يحتضنها ليل نهار .. حتى في نومه لا يتركها لحظة .

ومسألة فك خطبته هذه .. عجيبة جدا .. إنها لا شك كانت مفاجأة .. فهو يعرف أن العلاقات كانت على أطيبها ويعتقد أن الزواج كان يوشك أن يتم قريبا .

ماذا حدث يا ترى ؟ هل فعلت راجية شيئا ؟ لا يظن مطلقا .. إنها فتاة طيبة كاملة .. ولكن من يدرى .. « ياما تحت الساهى دواهى » ، وسبحان علام الغيوب .

ترى هل ستقبل المجيء إلى القاهرة ؟ .كيف ستلقاه بعدما حدث ؟! وهل علمت ما حدث لإبراهيم ؟!

أجل . لا شك أن « سيدة » أنبأتها .. فقد استطاع هو أن يخبر « سيدة » بالنبأ في كلمات خاطفة قبل العودة إلى مصر ، ولكن لم تخبره « سيدة » عن نبأ فك الخطبة .

ربما لم تكن لديها فرصة ، أو ربما لم تخبرها « راجية » . ولكن هل تخفى « راجية » عنها نبأ كهذا ؟

هذه كلها أحاجى وألغاز .. أعيا ذهنه التفكير فيها والخبط في معمياتها .

يجب أن يريح ذهنه ، بعد لحظات سيلتقى بسيدة ، وسيعرف منها الكثير .

وأغمض الرجل عينيه ، ولم يدر أنام أم لم ينم ، ولكنه فتح عينيه على حركة في القطار وأبصر ملامح الإسكندرية تقترب في بطء بمزارع الموز والبرج العالى في يمينه والأبنية تزداد وضوحا في خط الأفق .

وفى طريقه إلى السيوف ، كان يحس ، فوق كل مشاعر القلق والضيق والخوف التى تتنازع نفسه ، شعورا بالراحة قد يصل إلى حد النشوة .

عجبا !! لم كل هذا ؟ أمن أجل سيدة ؟

و لم لا ؟ إنها لطيفة طيبة ، بنت حلال ، وبها كل مايعجبه ، حقيقة أن بها شيئا من سلاطة اللسان ، وقلة الأدب ، ولكنها سلاطة بخفة دم ، وقلة أدب بظرف ولطف ، أم ترى المسألة كلها لا تزيد على « عين الرضا » .

على أية حال ، هو يحبها ، ويظن أنها تحبه ، أو على الأقل تحب شتمه ومضايقته ، وهو نوع من الحب على أية حال .

ولكن ما هذا السخف الذى يشغل ذهنه به ؟! أهذا وقته ؟! فى مثل هذه المآزق والأزمات يفكر عجوز مثله فى هذا العبث ؟!

إنه سيلقاها جاداً عابسا .

ولكن أهى سترد له جده وعبوسه ؟! أم يستطيع هو أن يحتفظ أمامها بجده وعبوسه ، وهى المهزار الضاحكة حتى فى أشد أوقات الضيق والحرج ؟!

على أية حال ، سيؤدى هو واجبه ، فيجد ويعبس ، وتفعل هى ما تشاء ، لا بد أن يلبس ثوب الوقار حتى تنتزعه هى عنه .

ووصل إلى البيت . وبدأت أولى المشاكل .

كيف يتصل بـ « سيدة » ؟!

أن لدية الطريقة العادية التى يتصل بها دائما وهى قرع نافذة مطبخها بالحصى من نافذة مطبخه .

ولكن مثل هذه الطريقة كانت تستعمل فى أيام السراء عندما كان المزاح مستحبا واللهو مرغوبا .

أما الآن ، فالمسألة جد ، والوسيلة لا بد أن نكون جدا ، إذا يذهب إلى الباب ويدق الجرس ، ثم يقول إنه يريد أن يقابل سيدة .

وإذا أطل الجد ؟

يا ساتر يا رب . فال الله ولا فالك يا مدبولى !

ماذا يقول له ؟. يقول إنه أتى لمقابلة سيدة ؟ لمه ؟ للمعازلة ؟ أم لكى تقنع سيدتها بالحضور إلى القاهرة ؟

من أجل ماذا ؟ هل يعرف الجد فك الخطبة ؟ وهل يعرف ما أصاب إبراهيم ؟

كل هذه مشكلات تواجهه إذا ما ذهب بالطريق الطبيعى ودق الجرس .

أما بالحصى ، وقرع النافذة ، فالطريق آمن .

وأمسك مدبولى بحصاه وقذف بها النافذة وهو يردد :

« لا تدخلوا البيوت من أبوابها ، إن نوافذها آمن كثيرا ».

و لم تمض لحظة حتى فتحت النافذة وأطلت سيدة ، و لم تكد تراه حتى ضربت صدرها بيدها وباليد الأخرى أصلحت « أوية » المنديل الذى عصبت به رأسها .

ــ مدبولى « ينيلك » . متى حضرت ؟ ألم تسافر صباح اليوم ؟

و لم يكن مدبولى يعتبر لفظة « ينيلك » داخلة ضمن ألفاظ السباب فقد كانت تخرج من فم « سيدة » ببساطة التحية ، كأنها « سعيدة » أو « سلام عليكم » ولذلك فقد أجاب بتؤدة وأدب :

ــ سعيدة مباركة ؟ لقد أتيت حالا، منذ دقيقة واحدة .

ــ و لم أتيت ؟! وكيف حال سيدى إبراهيم ؟

ــ أتيت من أجله ، إن حالته كما هى ، لقد عرف الدكتور منه أنه فك خطبته، هل تصدقين ذلك ؟

وأطرقت « سيدة » برأسها ، ورأى مدبولى على سيمائها علامات حزن شديد ، وأطلقت من صدرها تنهيده حارة وأجابت :

ـ علمت منها ذلك الصباح .. عندما أنبأتها بسفركم المفاجئ وما حل بسيدك ، وكانت على حال من الحزن واليأس مروعة . ولقد حاولت عبثا أن أعرف ما بها ، فقد أغلقت عليها حجرتها ورفضت .. حتى أن تجيبنى أنا ، وعندما أنبأتها بما حدث اليوم ، كادت تجن ، وقالت لا بد أن هناك سرا .

ـ معها حق ، أنا نفسى أوشك أن أجن ، ما السر ؟ ما السبب ؟ وكيف يحدث كل هذا فى هذه الفترة القصيرة ، يومين أو ثلاثة ؟ إنها « عين أصابته » كما قلت ألف مرة ؟ أو من يدرى ؟ ربما يكون سحرا ، أنا دهش ، أنا مذهول .

ـ ولكن ما الذى أتى بك الآن ؟

ـ إنى أتيت لأقابلك من أجله ، إنك تستطيعين أن تؤدى له خدمة جليلة .

ـ أنا ؟! كيف ؟

ـ اسمعى أولا . اهبطى إلى الحديقة ، واقتربى من السور ، فالحديث العلنى من النوافذ غير مستحب فى مثل هذه الأمور ، وأخشى أن يسمعنى سيدك الكبير أو سيدتك .

وهبط الاثنان واقتربا من ناحية منخفضة من السور الفاصل بين الحديقتين وهمس مدبولى :

ـ أين سيدتك ؟

ـ فى الناحية الأخرى من الحديقة .

ـ اسمعى يا سيدة ، هل تستطيعين إقناعها بالذهاب إلى القاهرة .

ـ لمه ؟

ـ الدكتور يريد أن يتحدث إليها عله يعرف شيئا عن سبب الحالة .

ووجمت « سيدة » برهة ، وقبل أن تجيب أجاب صوت راجية ، وقد ظهرت في الحديقة من وراء إحدى الخمائل وبدت عليها دهشة شديدة :

ـ اللّه ! مدبولى !! ألم تسافروا ؟

ـ سافرنا فى الصباح وحضرت أنا الآن .

ـ لمه .

ـ واللّه ، يا سيدتى ، كنت أريد شيئا .

ثم صمت مترددا .

واقتربت « راجية » من السور ، وانتظرت أن يتم مدبولى حديثه ، فلما يئست قالت له في شيء من نفاد الصبر والضيق :

ـ ماذا تريد ! انطق .

ـ أريد .. لقد قلت لسيدة . اسأليها .

وفى شيء من التوسل اقتربت منها سيدة وقالت :

ـ كان يريد منك الذهاب إلى القاهرة لأن الدكتور الذى يعالج سيدى إبراهيم يريد أن يقابلك .

ـ يقابلنى أنا ؟

وهز مدبولى رأسه بالإيجاب ، وعادت راجية تتساءل :

ـ ولكن لماذا ؟ ماذا أستطيع أن أفعل أنا ؟

ـ إنه يريد أن يتحدث معك ، وقد قال لصديقه الدكتور زكى إنك تستطيعين أن تفعلى شيئا كثيرا من أجله .

ـ أنا ؟

وصمتت ، وبدت عليها الحيرة والحزن واليأس ، وقالت سيدة فى لهجة متوسلة :

ـ لماذا لا تذهبين يا سيدتى ؟

ـ بعد كل ما حدث ؟

- أجل ، ألا يحتمل أن يكون ما حدث نتيجة للأزمة التى يمر بها ؟ يجب أن تعاونيه يا سيدتى .

واستمر إطراق راجية ثم همست أخيرا :

- وهبى أنى قبلت الذهاب.. كيف أقنع جدى بالسفر ؟

- جربى أن تقنعيه بأية وسيلة .

- لا أظن المسألة سهلة إلى هذا الحد .

- قولى له ...

و لم تتم « سيدة » قولها فقد انطلقت صيحة من داخل الدار تنادى راجية ، وكانت صيحة الجد .

وأصاب الثلاثة الارتباك ، وهتفت سيدة :

- اصعدى إليه يا سيدتى ، وحاولى ، عسى أن يوفقك اللّه .

واختفى مدبولى .. واندفعت الاثنتان إلى الداخل .

وبعد لحظة كانت راجية تقف أمام جدها مطرقة ، ورفع الجد عينيه عن رسالة أتم قراءتها ، ثم خلع منظاره وقال فى لهجة مقتضبة :

- سنذهب باكر إلى القاهرة .

هكذا ، مرة واحدة ، القاهرة ، القاهرة .

و لم تصدق راجية أذنيها ، وهمت أن تقفز إليه لتعانقه ، ولكنها تصنعت الثبات وقلة الاكثرات وتساءلت فى صوت خافت .

- لماذا ؟

- أختى « زينب » مريضة وقد أرسلت « رقية » ابنتها هذه الرسالة اليوم .

ثم مد يده إليها بالرسالة ، وتناولتها راجية ومرت بعينيها على سطورها مرا سريعا ، لم تستطع أن تميز سوى كلمات قلائل ، ثم خفضت يدها بالرسالة ، و لم تجب ، وقال الجد :

ـ سنأخذ « ديزل » الظهر .

ودون أن تدرى وجدت نفسها تتساءل :

ـ ولماذا لا نأخذ قطار الصباح ؟

ـ لدى موعد فى الإسكندرية لابد أن أنتهى منه .

ـ أمرك .

ـ على أية حال ، الظهر من الصباح قريب ، جهزى الحقائب واعملى حسابك أننا سنمر على العزبة فى عودتنا .

ـ حاضر .

وانتهى الحديث ، وعادت راجية إلى حجرتها لتجد سيدة فى انتظارها وهى تسألها متلهفة :

ـ ماذا قلت له ؟

ـ لم أقل شيئا .

ـ كيف ؟

ـ لقد قال هو كل شىء .

ـ ألم تحاولى إقناعه ؟

ـ أقنعه بماذا ؟

ـ بالسفر .

ـ طبعا لم أحاول إقناعه .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه هو الذى أقنعنى بالسفر ، لقد أنبأنى من تلقاء نفسه أننا سنذهب فى الغد إلى القاهرة لزيارة أخته زينب لأنها مريضة .

وتنهدت سيدة ورفعت يديها إلى السماء وهتفت : « يا مدبر الكون » ، وبعد لحظة كان الحصى يطرق نافذة مدبولى ، وكانت سيدة تهتف به :

ــ انتهينا ، سنسافر ظهر الغد .

ــ هكذا بسرعة ؟ . من الذى أقنعه ؟

ــ أقنعه ربنا ، أصاب أخته بداء عجل بسفره ، وصدق من قال : مصائب قوم ..

ــ بشرك الله بالخير ... هذا أحلى مرض سمعت عنه .

ــ ومتى ستسافر أنت ؟

ــ الليلة .

ــ ولم لا تبقى إلى الغد ؟

ــ خير البر عاجله ، ومن الأفضل أن أعود الليلة حتى أنبئ سيدى زكى بالأمر لكى يعمل ترتيبه مع الدكتور .

ــ وكيف تقابله سيدتى ؟

ــ سأعطيك رقم تليفونه فى البيت والعيادة ، ودعيها تتصل به بمجرد وصولها .

وأملاها أرقام التليفون ثم ودعها واختفى .

وعادت سيدة إلى راجية فوجدتها ساهمة شاردة ، وقد أسندت رأسها على كفها ، وربتت كتفها قائلة فى خشية :

ــ مالك يا سيدتى راجية ؟! أعدل جدك عن السفر ؟

ــ لا .

ــ إذا فعلام الحزن ، ما دمنا سنسافر إلى مصر فى الغد ؟

ــ وأى فائدة فى السفر إلى مصر ؟

ــ ستلتقين بالدكتور وتعاونيه فى علاج إبراهيم .

ــ وهبيه شفى .. ماذا أرتجى منه وقد قطع كل شىء بيننا ؟

ــ لا تيئسى هكذا يا سيدتى ، عندما يفيق إلى نفسه لابد أن يعود كل شىء إلى ما كان عليه .

ــ لا أعتقد .

ـ على أية حال ، لا أظنك تكرهين شفاءه .

ـ ولهذا سأذهب وسأفعل كل ما أستطيع .. إذا كان هو قد تخلى عنى ، فلن أتخلى عنه .

ـ وإذا لم تتخلى عنه فلن يتخلى عنك الله . أن هناك ربا يا سيدتى ، علمه فوق علمنا ، وتدبيره فوق تدبيرنا ، وإرادته فوق إرادتنا .. كل ما علينا أن نفعل الخير ونمضى فى طريقنا .

ـ أجل .. صدقت يا سيدة .. نفعل الخير .. ونمضى فى الطريق ، لكى يدمى الشوك أقدامنا .

ثم أطلقت تنهيدة يأس ومست بكفيها بشائر دمع توشك أن تهطل .

***

وفى اليوم التالى دق التليفون فى عيادة الدكتور زكى قبيل الغروب ، فرفع السماعة .. وهو يتمنى أن تكون هى المتحدثة ... ولم تخيب أمله وحملت الأسلاك إلى أذنيه صوتها الرقيق تسأله :

ـ أأستطيع أن أتحدث إلى الدكتور زكى ؟

ـ أنا الدكتور زكى .

ـ مساء الخير يا دكتور .. أنا راجية .

ـ أهلا وسهلا .. راجية هانم .. مساء الخير ، حمدا لله على السلامة ، أنا متأسف جدا على ما قد أكون سببته لك من انزعاج ، ولكن لم يدفعنى إلى ما فعلت إلا ثقتى بأنك سترحبين بمعاونتنا وأن أمر إبراهيم يهمك كما يهمنا .

ـ بالطبع يا دكتور ، أنى سأفعل من أجله كل ما أستطيع .

ـ وهذا ما كنت أتوقع ... متى تستطيعين الذهاب إلى الدكتور توفيق ؟

- وقتما تشاء .
- أيمكن اليوم ؟! لقد أنباته عندما علمت أنك ستحضرين ، إننا قد نزوره اليوم أو غدا .
- أظن من الخير أن نؤجلها إلى الغد .
- كما تشائين ، لا تضايقى نفسك .. كان يجب أن أعرف أنك مازلت متعبة من السفر .
- ليست مسألة تعب ... ولكنى لا أجد من اللائق أن أترك عمتى المريضة فى أول يوم .
معك حق ... لنؤجلها إلى الغد .
- صباحا ؟.
- كما تشائين .
- فى أى ساعة ؟
- العاشرة ؟
- أجل .
- حسن جدا .. أتفضلين أن نلتقى فى مكان ... ثم نذهب معا أم نلتقى فى العيادة مباشرة ؟
- أين العيادة ؟
- شارع ماسبيرو ... الشارع الموصل بين كوبرى « أبو العلا » وشارع الملكة .
- أعرفه جيدا .. من أى ناحية فى الشارع ؟
- من الناحية الأقرب إلى شارع الملكة هى أول عمارة بيضاء عالية رقم ٣٧ بجوار إدارة شركة الترام .. أتعرفينها ؟
- أجل .. إنى أعرفها تماما ... وأستطيع أن آتى إليها مباشرة ، فالمسافة بينها وبين بيت عمتى ليست بالبعيدة . إن البيت فى الزمالك . ولن يستغرق الوصول إليها أكثر من خمس دقائق فى السيارة .

ـ إذا اتفقنا ... سأكون هناك فى الساعة العاشرة .

ـ وأنا سأحضر فى نفس الساعة .

ـ الشقة رقم ٢٧ الدور الخامس عيادة الدكتور توفيق عبد اللّه ، وعسى ألا يعوقك عائق .

ـ سأحضر أن شاء اللّه .

ـ مرة أخرى أكرر الاعتذار عن إزعاجك .. إنى أعتقد أنى السبب الأول فى كل ما حدث .. إنى أنا الذى ألقيت به إلى هناك . كان يجب أن أكون جارا أقل ضررا .

ـ هذا قضاء اللّه ولا راد لقضائه .

ـ صدقت .. أشكرك جدا على تكرمك بالحديث .

ـ العفو ... لا شكر على واجب .

ووجد زكى أن الحديث قد طال ، وانتظر أن تكون هى البادئة . بختامه وبإلقاء تحية الوداع ... ووجد أنه قد قال كل كلمات الشكر والأسف ولم يعد فى جعبته شىء .

ولكنها هى ، كان فى جعبتها شىء .. لم تلق به بعد .. كان يبدو فى لهجتها التردد كأنما تريد أن تسأله شيئا .

وبعد فترة صمت قالت :

ـ كنت أود أسأل عن شىء يا دكتور .

ـ تفضلى ... سلى ما تشائين .

ـ هل .. هل ...

واستطاع هو أن يخمن .. ولكنه لم يجسر على التصريح بالإجابة قبل أن تتم سؤالها ، وأخيرا أتمته :

ـ أيكون موجودا ؟

ـ لا .. ولكن إذا كنت ترغبين .

ـ لا .. لا ... لست أرغب شيئا ... أنى أسأل فقط .

ـ لقد نصح الدكتور بأن تأتي علـى حـدة فهـو لا يسـتطيع أن يخمـن وقع لقائك عليه .. ولذلك فضل الحذر .

ـ معه حق ... هذا أفضل .. أفضل كثيرا .

لقد كانت تتوق إلى لقائه .. لكنها مع ذلك تحذره .. إنها تخشى منـه المجهول الذى توشك أن تلقاه فيه .

إنهـا تجـزع مـن أن تبصـره علـى حالتـه الأخـيرة .. كيـف أصبـح .. وكيف يبدو .

ووجدت أن السماعة ما زالت فى يدها .. وأن الطرف الآخر مـازال ينتظر منها أن تستدعى ذهنها الشارد .. لكى تصرفه إلى حاله .

وأصابها الأرتباك وتمتمت معتذرة :

ـ طيب يا دكتور .. سنلتقى فى الغد إن شاء الله .

ـ إن شاء الله .

ـ تمسى على خير .

ـ وأنت من أهله .

ووضع كلاهما السماعة .

وكان فى ذهن كل منهما عن الآخر صورة قديمة باهتة من اللمحـات العابرة البعيدة التى كان يبصر بها كل منهما صاحبه فـى فـترات الصيـف الماضية .

أما صورتها فكانت أقرب إلى الطفولـة .. كـان يذكرهـا بمجـرد صبيـة رقيقة ، دقيقة .

أما صورته .. فكانت نحيفة طويلة جادة .. لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، يميزها شعر غزير حالك ، وحركات سريعة وثابة .

***

والتقيا فى الصباح ... وعندما ألقت عليه النظرة الأولى لم تجد به كثير اختلاف عن الصورة القديمة التى رسمتها فى ذهنها لجارهم الدكتور كما كانت تسميه .

أما هو .. فقد كان الفارق الذى وجده ، أكبر من أن يكتم فى نفسه آثاره ، فارتسمت الدهشة على وجهه .

لم تعد طفلة ولا صبية وإن كانت الرقة والدقة لا تفارقانها بل حددت نوع جمالها ، فأبدتها فتاة بديعة التكوين ، رائعة السيماء ولكن فى رقة ودقة .. وليس فورة طاغية تحس من خطواتها وهى مقبلة عليك أحاسيسك بنسمة مرطبة عطرة تبل روحك وتندى فؤادك ... أكثر مما تحس بلفحة أنوثة حارة تثير أعصابك وتلهب نفسك .. لقد كان جمالا ينزل على النفس بردا وسلاما .

وتصافح الاثنان ولم يكن لديهما الكثر مما يقولانه ، وكان الدكتور توفيق فى الانتظار ، فأشار إلى باب حجرته قائلا :

ــ أظننا من الأفضل ألا نضيع وقتا ، فأنا أعرف أنك لا تملكين وقتك تماما ، تفضلى .

ــ تفضل أنت .

وتقدم زكى وطرق الباب ثم دفعه وأشار إليها بالدخول .

دخلت راجية الحجرة ودارت عيناها دورة سريعة فى محتوياتها ، ثم استقرتا على الرجل الواقف خلف المكتب مفتر الثغر ، باش الوجه ، باسطا يده بالسلام .

وشدت على يده وهى تشعر أن هذا الرجل مطمئن ، مريح .

وشد هو على يدها وقد أحس بما سبق أن شبهناه ، بنسمة رطبة عطرة ، تبل الفؤاد وتندى الروح .

وجلس الثلاثة ، واستطاع توفيق ، أن يبدد بسرعة سحب الحرج والتكلف التى توشك أن تخيم عليهم ، وأن يفرض بطلاوة حديثه نوعا من الألفة الطبيعية غير المفتعلة .

ولم تعرف راجية ، أكانت تلك قدرة يمتاز بها الدكتور توفيق وحده ، أم أنها ميزة من مزايا الأطباء النفسانيين ، وضرورة من ضرورات عملهم .

على أية حال ، لقد ملأها الرجل ثقة واطمئنانا ، وأزال من نفسها كل شعور بالقلق والحذر .

كان متحدثا فى غير ثرثرة .. كان يعرف كيف يفك عقدة الصمت .

ويجرى الحديث سلسا طليا فى سهولة ويسر دون أن يشعر أنه يقصد ذلك ، بل بما تحس أن كل ما يقوله ضرورة من ضرورات الموقف .

وعندما انتهى الحديث عن التحيات ، والجو والإسكندرية ، والسيوف ، وغيرها من توافه الأمور ، ومقدماته ، بدأ الرجل يطرق الموضوع وكأنه لا يطرقه ، بل هو يصله بما سبقه كأنه ما زال يتمم حديثه عن الجو .

واستطرد الرجل يقول:

ـ على أية حال ، أنا أحب الإسكندرية فى الشتاء ، إنها لطيفة وهادئه ، وليست بها رطوبة الصيف ولا ضجة المصطافين .

وأجابت راجية :

ـ معك حق ، إنها ـ باستثناء أيام الزوابع والأمطار ـ ولا سيما فى شهرى أكتوبر ونوفمبر تكون رائعة ، والبحر أملس كالزيت ، ولكن هدوءها ، ولا سيما فى منقطة السيوف يكون مملا مزعجا فى بعض الأحيان .

ـ وكيف تقتلين الملل ؟

ـ بأشياء كثيرة ، الرسم والموسيقى .

ـ أتحبين الموسيقى ؟

وبدأت تحس أنها توشك أن تنزلق فى الفخ ، ولكن سؤال الرجل كان برىء المظهر فلم تملك إلا إجابته :

ـ أجل ، أحبها .

ـ أنا أيضا أحب الموسيقى ، أى نوع تفضلين ؟! الكلاسيك .

ـ أنا أحب الموسيقى الجيدة ، أيا كان نوعها ، الموسيقى التى تصل إلى قرارة نفسى ، بغض النظر عن نوعها .

ـ ذلك هو رأيى بالضبط .. وذلك هو ما قلت لإبراهيم .

أنى أحترمه وأحبه لأن كل موسيقاه ممتازة ، لم أسمع له لحنا واحدا ، لم يطربنى ، ما رأيك أنت ؟

ولم تجب راجية ، ولم يبد عليه أنه يحاول أن يستدرجها إلى شىء ، واستطرد ليقول دون أن ينتظر إجابتها :

ـ لقد حدثته عن آخر لحن سمعته له وهو «ساعة غروب» فحدثنى كذلك كيف وضعه ، وكيف عزفه لك فى ساعة غروب .. ووصف لى أثره عليك، وكيف قال لك لو كنت معى لكان لحنا آخر ولسميته « ساعة شروق» .

وهتفت راجبة فى تأثر شديد :

ـ أحقا قال ذلك ؟

وأدركت بعد سؤالها أن إرادتها قد خانتها ، وأنها كان يجب أن تكون أكثر ثباتا من ذلك ، ونقلت بصرها بين الرجلين ، والتقى بصرها بأحدهما ، أما الآخر ذو العوينات فقد كان مطرقا برأسه .

وكأنما أحس زكى أن وجوده قد يزيد فى حرج الفتاة ، وأنه قد يعرقل عمل صاحبه ، وأن خيرا له لو ترك الغرفة لأمر ما .

ولم يكن الانسحاب بالأمر الصعب ، ولا سيما في لحظة الصمت الحرج التي أعقبت سؤالها المتلهف فنهض في هدوء قائلا :

ــ أتسمحان لي ، بضع دقائق .

ثم غادر الغرفة قبل أن يسمع ردهما .

ومرة أخرى أوشكت سحب الحرج والتكلف أن تخيم عليهما ، ولكن توفيق وجد أن من الخير أن يبدأ عمله فاتجه رأسا إلى الموضوع :

ــ اسمعي يا راجية ، سأحدثك بمنتهى الصراحة ، وأرجو أن تعتبريني في حديثي مجرد صديق ، إني لا أباشر عملي كطبيب ولكن كإنسان ... فانزعي من ذهنك أني طبيب . ولست مكلفة بأن تقولي لي شيئا لا يعجبك أو تجدين حرجا في قوله ، لأنك حرة في كل ما تقولين ، وأنا بالطبع لا حق لي في استجوابك ، ولكنها مجرد مساعدة تتطوعين بها لإنقاذ شخص نرغب جميعا في إنقاذه ... ولكن قبل أن نبدأ الحديث أحب أن أوجه لك سؤالا خاصا أرجو منك أن تجيبي عليه بمنتهى الصراحة و « البساطة » لأني أعتقد أن عليه تتوقف قيمة المعاونة التي يمكن أن ننتظرها منك ، وعليه كذلك يتوقف مدى الجهد الذي يمكن أن أطلبه منك وآمل أن تؤديه لي ، ومدى الصراحة التي يمكن أن نتحدث بها بلا حرج ولا مضايقة ، أتفهمينني ؟ .

وأحست راجية كأن الرجل قد سلط عليها ضوءا كشافا أو أنه وضعها على قطعة من الزجاج وأخذ يفحصها بالمجهر . وأحست بأنفاسها تتلاحق وأخذت أصابعها تضغط على جانب المقعد ، ثم رفعت بصرها فواجهت عينيه اللتين ترقبانها من وراء المنظار ، وأحست منهما الثقة والطمأنينة وداخلها إيمان بأن صاحبهما لا يملك أن يهب سوى العون والمساعدة ، ورويدا رويدا بدأ التوتر في أعصابها يتراخى والحرج يتبدد .

وعاد الرجل يسأل في رقة :

ـ ما رأيك ؟

ودون أن ترفع إليه بصرها أجابت :

ـ سل ما تشاء .

ـ فهمت من حديث إبراهيم أنك تحبينه ، أو على وجه أدق ، كنت تحبينه ، فهل ما زلت تحملين له هذا الحب ؟!

وأجابت بهزة رأسها دون أن تنفرج شفتاها .

وعاد هو يواصل أسئلته .

ـ رغم ما حدث ؟

وانفرجت شفتاها عن إجابة قصيرة بما يشبه الهمس :

ـ أجل ، رغم ما حدث .

ـ ألم تؤثر فعلته فى نفسك .

ـ أثرت بالطبع ، ولكن ما فى القلب باق كما هو .

ـ أأستطيع أن أومن برغبتك القوية فى معاونته ؟

ـ سأفعل من أجله كل ما أستطيع .

ـ رغم أن شفاءه قد لايكون ذا نفع لديك .. أعنى ، أن ...

ـ أفهم جيدا ما تعنى ، وأنا أريد معاونته من أجل نفسه ، لا من أجل نفسى .

ـ حسن جدا .. هذا هو ما كنت أود أن أعرفه ، وبهذه الطريقة ، نستطيع أن نعمل على أساس متين من الرغبة المشتركة والثقة المتبادلة .. لكى نحقق هدفا واحدا . أليس كذلك ؟

ـ أجل .. إنى على أتم استعداد لبذل كل جهد تطلبه فى سبيله .

ـ أنا لا أريد جهدا ، كل ما أريد هو أن تستريحى فى مقعدك . وتتحدثى .. حدثينى عن كل شىء .. تكلمى بإسهاب . قولى ما شئت

من التفاصيل والدقائق ، والتفاهات والسخافات ، دون أن تخشى المضايقة أو الإثقال .. فإنى مستمع جيد ، وأنا أحد فى التفاصيل التى قد تبدو تافهة أشياء قيمة قد توصلنا إلى نتائج لا نتوقعها ، حدثينى عن كل خصام حدث بينكما ، وعن كل ما كان يضايقه ، وعما تظنينه أدى إلى الانفصال .

وهزت راجية رأسها فى حيرة ، ثم رفعت كفيها وأجابت :

ـ إن التفكير فى هذا قد يؤدى بى إلى الجنون ، إنى لا أذكر أنى فعلت قط ما يضايقه ، لا أذكر شيئا أبدا أبدا .

ـ إذا ، دعينا من هذا ، حدثينى من البداية ... قصى على القصة من أولها ، كيف التقيتما ؟! وكيف تطور الأمر بينكما ؟

وأحست راجية أن الرجل دفع فى نفسها رغبة فى الحديث . إنها هى نفسها فى حاجة إلى علاج . إنها فى حالة جفاف ومرارة قد تضيعها الذكرى المحيرة . إن بها حنينا إلى ماض جميل . إن بها شوقا إلى لحظات مضيئة .. ومضت فى حياتها كلمح البرق .. أعقبتها ظلمة كئيبة موحشة .

ما أحب أن تغمض عينيها ، وتحيا بذهنها فى ذكرياتها الحلوة ، البائدة .

أطلقت من صدرها زفرة حملتها مرارة الحاضر .. ثم ألقت برأسها على مؤخر المقعد ، وأرخت جسدها وأغمضت عينيها ، وأغفت كل حواسها ، إلا من ذهن ينطلق فى ربوع الماضى ، ولسان يهمس بما يراه .

الفصل الخامس

بلا رجاء

قبل أن أقص عليك كيفَّ التقينا وكيف توثقت عرى المحبة بيننا ، أود أن أعطيك لمحة سريعة عمن أكون وكيف كنت أحيا قبل أن ألتقى به ... كنا نعيش فى بيتنا فى السيوف أنا وجدى فى شبه عزلة عن العالم ، فقد فقدت أبوى وأنا طفلة صغيرة .

ووجد فىّ جدى عزاء عن ابنته الراحلة إذ كنت شديدة الشبه بأمى . فضمنى إلى كنفه وتولى رعايتى وتربيتى .. حتى بت كل شيء لديه فى دنياه الخالية .

ولقد نشأت بطبيعة خلقى مرهفة الحس ، مباله إلى الموسيقى والرسم ، ولكن جدى كان يكره تلك الفنون وكان يراها عبثا لا طائل تحته ولا فائدة منه . وإنها أشبه بالمخدر ، الذى يصرف الإنسان عن حياة الجد والعمل ... ولكى يضمن مستقبلى بدأ هو ينسج خيوطه ويبنيه حجرا حجرا .. فاختار لى زوجى المقبل وهو « ابن خالتى » عبد الرحمن حفيده الآخر وشريكى فى إرث ثروته العريضة وأراضيه الممتدة وأملاكه الواسعة ، ولقد علمه التعليم الذى يكفل له إدارة كل ذلك الثراء العريض وعودة الحياة الجادة الجافة وساعدته طبيعته على قبول تلك الحياة .. فلقد كان جادا ، جافا ، ماديا ، لا يعرف سوى الأرقام والحسابات والأرض والمال والطعام ، وهكذا ضمن جدى المحافظة على مخلفاته ونحن بينها .

وفى وسط هذا الجو المادى الجاف نشأت أشبه بزهرة رقيقة بين الصخور الصلدة .. يذيبنى صوت رقيق .. وتنشينى نغمة حلوة ،

وتؤرقني لفظة قاسية . ولم أملك إلا أن أخلق لنفسي وسط تلك الصحراء الجافة واحة صغيرة أتفيأ بظلالها وأنهل نميرها ، وأن أشيد لروحي وسط ذلك العالم المتجهم الصارم ، عالما صغيرا حلوا كائنا في غرفتي المطلة على الحديقة المتكاثفة الأشجار الرحبة الأرجاء .

وحاشاي أن أزعم أن هناك من كان يتعمد القسوة علي ، بل الأمر على النقيض ، لقد كان الكل يحبني ولكن بطريقتهم الجافة ، وكان الكل يحاول إسعادي ولكن بوسائلهم التي لم تكن تحمل إليّ أي نوع من السعادة . بل إني أعتقد أن ذلك الجو الصارم الجاف الذي أحاطني به جدي لم يكن في حد ذاته إلا دليلا على حبه إياي ومحاولته أن يحيطني بسياج يصد عني شرور الحياة ومفاسدها حتى يضمن لي ما يتوهمه من مستقبل سعيد .

مخلوقة واحدة هي التي كنت أجدها تستطيع فهمي ، وفهم تفكيري .. ولا تتهمني بالجنون إذا شرد ذهني عند وقوفي لأرقب الغروب ، أو دمعت عيناي وأنا أستمع إلى هديل بلبل أو نوح حمامة ، تلك هي « دادتي سيدة » التي قامت على تربيتي منذ طفولتي ، والتي كانت أما أشبه منها مربية .. وكانت تتسلل من مخدعها لتجلس إليّ وأنا أسترق السمع في سكون الليل إلى الراديو وهو يحمل إليّ النغمات الهادئة اللطيفة ، وكانت وحدها التي تجلس لتحدثني عن أبي وعن أمي .

ولم أكن أعرف الحب بعد ، أو كنت أعرفه مجرد شعور أتوق إليه وأختزنه لفارس أحلام لم يبد في الأفق بعد .

كنت أحب مجهولا أتوهمه ، وأتوهم فيه رقة الأزهار المتناثرة حولي وعذوبة الموسيقى المنبعثة في أذني ، وجمال الشروق أو الغروب الممتد أمام ناظري .

ولم أحاول قط أن أربط بين زوجي المنتظر الذي أعده لي جدي وبين فارس أحلامي الذي أعددته لنفسي ، إذ لم يكن هناك بينهما أقل شبه ولا

أذنى صلة .

ورويدا ، رويدا بدأت أوهامى عن فارس أحلامى تتركز فى مخلوق لم أره ، ولكنى كنت أتخيله من بين ألحانه العجيبة التى يحملها إلىّ سكون الليل.

كنت دائما أكثر ميلا إلى الموسيقى الغربية حتى سمعت موسيقاه فإذا هى تشدنى فى رقة وحنان ، كأنها صدر يضمنى أو يد تربت على كتفى .

وهكذا بدأ العشق .. عشق فى الهواء .. لمخلوق لم ألقه ولا أتوقع أن ألقاه . مخلوق لا أعرف شيئا من سماته وإن كنت قد رسمتها فى ذهنى من ألحانه التى سمعتها .

وذات ليلة .. ليلة من الليالى الفاتنة .. ذات القمر المطل من ثنايا السحب ، والنسيم الرطب الذى يحمل بين نفحاته شذى الأزهار وكأنها أنفاس عذبة عطرة ، جلست فى الشرفة فإذا الألحان السحرية تتسرب إلىّ أذنى خلال النسيم .

ولم أكن قد أدرت مفتاح الراديو . ولكنى اعتقدت أن « سيدة » قد أدارته وتسللت من الحجرة فحمدت لها فعلتها .

وصمت اللحن وطال صمته فظننت بالجهاز عطلا ، ونهضت لإصلاحه فوجدته مغلقا وخيل إلى أنها قد أغلقته ، فأدرته ثانية ولكنى لم أسمع سوى نشرات الأخبار .

وأغلقت الجهاز وعدت إلى موضعى بالشرفة ، ومرة ثانية حملت إلىّ الريح الألحان العجيبة ، وأصابتنى رجفة .. ونهضت لأرى الجهاز فإذا هو مغلق وإذا اللحن ما زال يسرى . وخرجت إلى الشرفة فإذا هو يأتى إلى متخللا الأشجار من ناحية البيت المجاور .

وكنت أعرف أن البيت مهجور طوال الشتاء ، ولم يحل به أحد بعد ، ولكنى تذكرت أن عربة وقفت أمامه بالأمس واستطعت أن ألمح بعض الأضواء تتسرب من النوافذ .

وعجبت أن يكون لساكنيه تلك الموسيقى العجيبة وظننتها آتية من إحدى الموجات الاخرى للإذاعة وحاولت أن أضبط الجهاز على الموجة المخصوصة ولكن عبثا .

وأخذت أنصت عندما سمعت فجأة صوتا مزعجا يقطع على متعة الاستماع ويصيح قائلا :

ـ العشاء جاهز يا أستاذ ، تفضل للأكل وكفى « تنتنة » .

وتوقفت « التنتنة » وسمعت صوتا آخر يجيب فى لهفة ضاحكة :

ـ حاضر ياعم مدبولى .. « نترك التنتنة » .

وتمنيت أن أضرب « عم مدبولى » هذا .. وأن أصيح بالآخر استمر فى « التنتنة » ولكن الحياء عقد لسانى ، وقبعت فى مجلسى أحملق فى الظلمات .

ومرت الليلة بعد الليلة وأنا أسمع الصوت العجيب دون أن أعرف صاحبه ، وحاولت عبثا أن أميز شكله خلال النهار . وأخيرا لم أجد بدا إلا الاستعانة بـ « سيدة » فأرسلتها تتنسم الأخبار علها تعرف شيئا .

والتقت سيدة بمدبولى ولم يصعب عليها بلباقتها أن تعرف ما تريده عن جارنا الجديد عازف الموسيقى .

وأتت إلىّ تحمل الأنباء ... وكانت عجبا .. من تظنه ؟

لقد كان صاحب اللحن نفسه هو فارس أحلامى .. وحبيب الروح الذى كنت أختزن له مشاعرى وأكنز حبى .

ولا أظن من السهل أن تتصور وقع المفاجأة علىّ عندما أبصر الأمنية التى ظننتها حلما مستحيلا .. والمخلوق الذى ظننته وهما لا يتحقق ، قد بات منى قاب قوسين أو أدنى .

لقد سمعته ليلتذاك وأنا من نشوتى فى شبه غيبوبة ، وأصدقك القول

إنى لم أذق النوم من فرحتى إلا لماما .. وعندما أقبل الصباح كنت قد عقدت النية على أن أراه بأى ثمن .

وعلمت أنه يقضى معظم وقته معتكفا فى حجرته يضع ألحانه ، ويؤلف موسيقاه ، وأنه يجلس أمام البيانو الصغير المواجه للنافذة التى تطل على الحديقة ، وأننى لو اعتليت السور الفاصل بين البيتين المواجه للنافذة ، لاستطعت أن أبصره جيدا وهو منهمك فى عزفه دون أن يرانى ودون أن ألفت إلىّ نظر أحد .

وهكذا لم أكد أسمع العزف يبدأ حتى أدركت أن الفرصة قد حانت ، وهبطت متسللة إلى الحديقة وبدأت أتسلق السور كاللصوص حتى وقفت على حافته وأخذت أزيح فروع الشجر المتكاثفة القائمة بين الحديقتين حتى استطعت أن أجد لى منفذا يطل على النافذة ، ثم أمد عنقى بين الفروع ، وكان اللحن مستمرا على أشده و لم أشك فى أنه جالس أمام البيانو ، وقد انهمك فى العزف ، وشعرت بنشوة شديدة عندما أيقنت أنى أوشك أن أراه .. ووقع بصرى على النافذة ، ثم تخللها إلى الداخل واستقرت عيناى على « البيانو » ، ولكنه كان خاليا . وفى نفس اللحظة التى شعرت فيها بخيبة الأمل والدهشة سمعت صوتا مفاجئا من أسفل السور يهتف بى :

ــ ضبطتك ، أيتها السارقة .

ونظرت إلى أسفل ، ولدهشتى الشديدة ،وجدته هو ، أجل هو ، هو ، كما رسمته فى أوهامى وأحلامى .

وكانت مفاجأة شديدة الوقع علىّ ، ولا سيما أن العزف كان مستمرا ، وهممت بالتراجع والفرار عندما زلت قدمى وارتطمت بحجر واه فى السور فانزلقت من عال وهويت من السور إلى داخل الحديقة .

والتوت قدمى ، وانتابنى من الالتواء ألم شديد ، وصرخت صرخة مكتومة ، و لم أتمالك أن بكيت .

وأقبل هو عليَّ منزعجا وأمسك بقدمى يدلكها فى رفق وأنا أتألم وأتأوه ، وهو يعتذر فى لهجة مستعطفة نادمة .

وفى نفس الوقت كان العزف مازال مستمرا .

و لم أتمالك رغم ألمى أن أتساءل فى دهشة :

ــ من الذى يعزف إذاً ؟

ــ لا بد أنه مدبولى .

ــ مدبولى ؟ إذا لست أنت ؟

ــ لا ، لست أنا .

ــ إنى أتكلم جادة .

ــ وأنا أيضا أتكلم جادا .

ــ ولكن كيف لا تكون أنت الذى تعزف ؟

ــ لأنه لا يمكننى أن أكون واقفا أمامك ، وفى الوقت نفسه أعزف فى الداخل . وعلى أية حال ليس هذا وقت تحقيق ، لا بد أن أدخلك الآن حتى أربط قدمك .. أنا متأسف جدا لأنى تسببت لك فى ما حدث ، ولكن عذرى أنى أستيقظ كل صباح لأعد الورد فى الحديقة فأجده ناقصا ، فلما لقيتك واقفة فوق السور قلت لا بد أن تكونى سارقة الورد .

وبسرعة ، وقبل أن أفكر فى الرد عليه حملنى بين يديه وأسرع إلى الداخل .

و لم أكد أستقر فى الحجرة حتى وقع بصرى .. على السبب فى كل ما حدث . وقع بصرى على مسجل صوتى يذيع اللحن الذى سمعته .

ونظرت إليه وقلت فى عجب :

ــ أهذا آخر لحن لك ؟

ــ لى أنا ؟ . أتعرفين من أنا ؟

ــ طبعا أعرف .

ــ أواثقة أنت ؟

ــ أنى أعرفك ، وأعرف كل لحن وضعته . أنا حقيقة سارقة . لكننى لست سارقة ورد ، أنا سارقة ألحان ، إنى كل ليلة أسترق السمع إليك .

وكان يبدو عليه مزيج من الدهشة المصحوب بالألم لما سبب لى . وأخيرا انتهى من ربط قدمى .

وأخذت أفكر كيف أعود إلى المنزل . أمن المعقول أن يحملنى إليه كما فعل عندما أدخلنى إلى داره ؟ ماذا يفعل جدى لو وقع بصره على هذا المنظر ؟! بل ماذا يفعل لو عرف أنى هنا أجلس هذه الجلسة ؟

وتبددت نشوة اللقاء وغلبنى الارتباك والخوف وقلت :

ــ إنى لا بد أن أعود إلى البيت .

ــ انتظرى على الأقل حتى تستريح قدمك .

ــ لا أستطيع .

ــ ولم .

ــ لا بد أن يكون جدى قد استيقظ الآن وأن تكون « سيدة » قد جهزت الإفطار وهو لا بد سائل عنى .

ــ إذا انتظرى حتى أحملك إلى هنالك .

ــ تحملنى ؟ .. مستحيل .

ــ وما وجه الاستحالة ؟

ــ ماذا يقول جدى ؟

ــ لن يقول شيئا إنك كابنتى .

وآلمنى منه قوله إننى كابنته ، وكرهت أن يرى أنى صغيرة وصحت به :

ــ أنا كبيرة ، إن عمرى ست عشرة سنة .

ــ ستة عشر عاما ، مرة واحدة ، أنت كأمى إذا ؟

ــ أتمزح ، فى وسط هذه المشكلة التى أوقعتنى فيها، ماذا ترانى فاعلة؟

ـ قلت لك أحملك .. أو على الأقل أسندك .. فلم يرق لك هذا .

ـ أمعقول أن أعود إلى البيت وأنت تحملنى أوتسندنى ؟

ـ سأوصلك حتى الباب وهناك تسندك الخادمة .

ـ باب ؟!!... أتريدنى أدخل من الباب وأمشى فى الطريق ؟

ـ إذا من أين ستعودين ؟

ـ كما أتيت .

ـ أتعودين من السور مرة أخرى ؟

ـ أجل . حتى لا يرانى أحد .

ـ ولكن كيف أحملك وأقفز بك فوق السور ؟! انتظرى ، لقد وجدت فكرة هائلة ؟

ثم صاح ينادى مدبولى ، ولكنى أمسكت به وقلت له إنى لا أريد أن يعرف أحد ما حدث خشية أن تصل القصة إلى مسامع جدى .

وأقبل مدبولى فأمره بالوقوف فى الخارج .

وهمس إلى :

ـ لا بد أن يساعدنا أحد إذا كنت مصرة على أن تعودى من السور .

ـ أنى لا أريد أن يعرف أحد .

ـ اصبرى إذاً .

ثم هتف بالرجل الواقف فى الخارج :

ـ مدبولى .. أغمض عينيك .

وأجاب مدبولى .

ـ أغمض عينى ؟! أنا ؟

ـ نعم أنت .

ـ لمه ؟!

ـ قلت لك أغمض عينيك .

ـ أنا أغُمض عينــي ؟ لمـاذا أتنـوى أن تلعب معـى « استغماية » .. وحياة والدك يا أستاذ ليس لدى وقت للعب معك ، أنت رجـل « فـائق ورائق » لا عمل لك سوى « التنتنة » ، ولكن أنا عندى أعمال كتيرة .

ـ أغمض عينيك ولا تكن لحوحا . أغمض عينيك .

ـ أهو حكم قراقوش .. أمرنا للّه .. أغمضت عينى .. ماذا تريد بعـد ذلك ؟

ـ استمر مغمضا .

ـ « خلاص » ؟

ـ قلت لك انتظر .. لا تفتح عينيك حتى آمرك .

ـ حاضر ، لن أفتح عينيّ حتى أرى آخرتها معك .

ثم أخذ يهمس إلىّ :

ـ الآن سأسير به إلى السور وهو مغمض العينين . ثم أوقفـه علـى السـور وأناولك إياه ، وأقفز أنا فى حديقة بيتك وأتناولك منه . وعندما أعود تنادين أنت عليهم ، وكأن قدمك التوت وأنت فى الحديقة .ما رأيك ؟

ـ مسألة فيهـا مغـامرة ، ولكـن ربنـا يسـتر ، ليـس أمامنـا مـن حيلـة سواها .

وخرج هو إلى مدبولى فوجده واقفا فى الخارج وهو مغمـض نصـف إغماضة فصاح به :

ـ ما عسى أن أصنع معك ؟ أنت لا تغمضهما جيـدا ، لا أريـدك أن ترى شيئا أبدا ... أتسمع ؟ أم ترى مـن الخـير أن أربطهمـا لـك .. أنـا أعرفك رجلا غشاشا .

ثم ربط عينيه بمنديل ، وقاده إلى السور ورفعه على مقعد إلى حافته ، ثم تركه وعاد إلى فحملنى بين يديه ووصل إلى السور فرفعنى إلى مدبولى وهو على السور معصوب العينين فاغر الفم من فرط الدهشة .

وهمس إبراهيم وهو يرفعنى بين يديه :

ــ مدبولى . خذ .

ــ آخذ ؟. آخذ ماذا ؟

ــ مد يديك وتناول ما سأعطيه لك . واحتفظ بـه برهـة حتـى آخـذه منك ثانية .

ومد مدبولى كفه ، ولكن إبراهيم صاح به فى حنق :

ــ مد يديك الاثنتين ، وانحن قليلا .

وفعل مدبولى ، كما طلب منه ، وعندما استقررت بين ذراعيه هتـف فى دهشة :

ــ يا نهار اسود ، ما هذا ؟! قتيل ؟

ــ صه ، أيها الحمار ، أمسك به جيدا وإلا سقط منك .

ــ ولكن .. أنا ..

وقفز إبراهيم بسرعة إلى الناحية الأخرى من السور وصاح بمدبولى .

ــ هات ، مد يديك ، اخفضهما قليلا ، أجل هكذا .

واستقررت مرة ثانية بين يدى إبراهيم الذى انحنى ووضعنى برفق على الأرض وتلفت حولى فى حذر وخشية وقلت له :

ــ عد أنت بسرعة لئلا يراك أحد .

وفى غمضة عين كان قد قفز فوق السور واستقر فى الناحية الأخرى من الحديقة .

وكانت الحوادث تجرى بسرعة وبطريقة مضحكـة أنستنى آلام قدمـى ، بل لا أكذبك إذا قلت إن المغامرة بعثت فى نفسى نشوة لذيذة وأنا أبصر فارس الأحلام ، العاقل الرزين ، يحملنى ويتواثب فوق الأسوار .

وكنت أستقر فى رقدتى فوق الحشـائش كمـا تركنـى إبراهيـم وأنـا أرقب مدبولى معصوب العينين يقلب كفه وشفتيه فى دهشة وهـو يتمتـم « أصحاب العقول فى راحة » عندما أبصرت بـ « سيدة » تبدو قادمـة

من وراء البيت . و لم تكد تبصرنى راقدة حتى صاحت منزعجة :

ــ سيدتى راحية ، مالك ؟! كفى اللّه الشر ؟

ــ التوت قدمى وأنا سائرة .

ولكن قبل أن تستقر الإجابة فى أذنيها وقع بصرها على مدبولى فوق السور فضربت صدرها بكفها صائحة فى دهشة :

ــ مدبولى « ينيلك » ما الذى تفعله فوق السور ؟

وأجاب مدبولى فى سهولة :

ــ ألعب « استغماية » .

ــ تلعب استغماية وأنت فى هذه السن وفوق أسوار الناس ؟ إلهى « تنسخط » .

ومد مدبولى يده لينزع العصابة عن عينيه . ويبدو أنه لم يكن يدرك حتى هذه الساعة أنه واقف على السور فقد نظر حوله فى فزع ثم هوى داخل الحديقة ، قريبا منى . ولطمت يده ساقى فصحت متألمة .

وعلى صوت صياحى وصياحه ، صاح صوت ثالث ، هو آخر ما كنا نود أن يصيح وهو صوت جدى ، إذ بدا فى الشرفة وأطل على المنظر العجيب ، منظرى ومدبولى طريحى الأرض .

صاح جدى غاضبا :

ــ ما شاء اللّه . ماذا يفعل هنا هذا الرجل ؟

وهمست سيدة فى حرج وخشية :

ــ انهض يا مدبولى ، وكفى مصائب .

ونهض مدبولى متعثرا والجد يصيح به :

ــ انطق . ماذا أتى بك إلى هنا ؟

ــ أنا ، أنا ،كنت فوق السور .

ــ فوق السور ! وماذا تفعل فوق السور ؟

ــ .... أ .. أشم الهواء .

وتداركت سيدة الأمر فقالت للجد :

ـ كان يقص فروع الشجر فوق السور ، فزلت قدمه وسقط عندنا . خذ بالك مرة أخرى يا حاج . الظاهر أن نظره ضعيف .

وصاح مدبولى مرتبكا :

ـ أجل ، أجل ، ضعيف جدا ، السلام عليكم .

وهم بالعودة قافزا على السور فنهره الجد بقوله :

ـ اخرج من الباب ، أيها الأحمق ، إن ما تفعل لا يفعله سوى اللصوص .

ـ حاضر ، لا مؤاخذة .

وهرول الرجل متجها إلى الباب .

وانحنت سيدة فوقى تفحص قدمى وتحاول معاونتى على النهوض .

وبعد لحظات كنت أستقر على الفراش وجدى يربت رجلى ثم يأمرنى أن أستريح ولا أحركها .

ولم يكد جدى يغادر الحجرة وسيدة تخلو بى حتى نظرت إلى نظرة اتهام وهمست :

ـ هذا الكلام لا يدخل عقلى أبدا .

ـ ما هو ؟

ـ التواء قدمك . كل يوم تسيرين فى الحديقة فى أمان اللّه دون أن تلتوى قدمك .

ـ قضاء ، وقدرا .

ـ كلام فارغ ، لا بد أن هناك شيئا ، هل تريدين أن أصدق أن هذا الأحمق قد وقف على السور معصوب العينين لكى يلعب « استغماية » كما قال لى ، أو لكى يشم الهواء كما قال لسيدى ، المسألة لا بد أن يكون فيها سر .

ـ اسمعى يا سيدة ، أتريدين الحقيقة ؟

ــ طبعا ، إذا لم أعرف أنا الحقيقة فمن يعرفها ؟ من الذى يعرف خباياك وأسرارك فى هذا البيت سواى ؟!

ــ الحقيقة يا سيدة أنى قفزت فوق السور لمشاهدته وهو يعزف على « البيانو » فسقطت .

ــ هكذا !! إذا فهذا السر فى حيرتك منذ بضعة أيام وانتقالك من النافذة إلى الشرفة ، ومن الشرفة إلى النافذة . أوقد هدأ بالك الآن بعد أن رأيته ؟ أو قد استرحت ؟

ــ طبعا . لقد كنت أتمنى رؤيته منذ أكثر من عام .

ــ وماذا رأيت ؟! أرأيت به شيئا أكثر مما بسواه من الناس ؟

ــ أكثر كثيرا . كنت دائما أتخيله فى صورة رائعة ولكن ما رأيته فيه كان أروع . لا تستطيعين أن تتصورى مقدار رقته ولطفه ، هل تصدقين أنه حملنى إلى حجرته ودلك لى قدمى ، ثم حملنى مرة أخرى إلى السور ؟

ــ ما شاء الله . إياك أن تذكرى هذا الكلام مرة أخرى . فلو عرف جدك لسود عيشنا ، إنه لن يرى به شيئا من اللطف الذى ترينه ، سيراه رجلا عاديا وقحا ، يغازل بنات الجيران .

ــ لا ، لا يا سيدة ، لا تقولى هذا . إنه ليس كغيره من الناس .

ــ أنا لا أرى به شيئا أكثر من الناس ، إنه يمشى على قدميه ويهز يديه .

ــ لا يا سيدة ، إنك لاترينه جيدا ، إن به شيئا أفضل . شيئا أسمى وأجمل ، إن به ....

ولم أستطع أن أعبر عما أريد أن أقول ، إن به أشياء كثيرة ، إن به الروح وبه الحياة . ولم أملك سوى أن أطلق تنهيدة حملتها الكثير من الحرارة التى تصهر جوانحى .

ووجدت سيدة تبتسم ، ثم تقترب منى وتتحسس شعرى فى حنان

وتسألنى فى رقة :

ـ ماذا به أيضا ؟!

ـ به .. به .. اسمعى يا سيدة ، ألم تجربى الحب !!

ـ الحب ؟!!

وتنهدت سيدة وأردفت قائلة :

ـ أجل جربته . وأسأل الله لك منه السلامة .

ـ لمه ؟

ـ لأن أوله حلو وآخره علقم .

ـ أهذا كل ما تعرفين عنه ؟!

ـ وماذا تعرفين أنت ؟

ـ ماذا أعرف ؟! أعرف أن الإنسان يظل سائرا فى حياته كعابر صحراء مجدبة قاحلة ، لا يبصر من حوله رجاء ولا أملا ، لا شىء غير سراب يلمع من بعد ، ويغريه بالمسير وسط الفراغ والوحشة والعدم ، ليحمله المزيد من مشقة والمزيد من إعياء ، ويستنفد منه جهده وقواه ، ومرة واحدة يشعر فجأة كأن الصحراء قد مستها يد ساحر ، أو كأن أنفاس عيسى ـ كما قال الخيام ـ قد سرت فيها :

فنفخن الروح فى أرض موات
وجعلن النبت يزكو من رفات
وبعثن الطير يشدو هادلا
فى أريك الأيك مثنى ورباع

ويرى الحياة قد دبت فى كل ما حوله . فأضحى بريق السراب ماء ، والحصى لألاء ، والظلمة سناء ، واليباب نضرة وبهاء ، وأضحى ثقل الناس لطفا ، وسخافتهم ظرفا ، وغباؤهم ذكاء ، وقبحهم جمالا . ولم يعد فى الحياة إلا كل حلو مستعذب .

إذا كان الإنسان ـ وهو غالبا ما يكون ـ كما قلت لك أولا ، ثم

أصابه فجأة ذلك الذى حدثتك عنـه ثانيـة . فـاعلمى — بـلا جـدال أنـه أحب ، هل فهمت إذن ما هو الحب ؟

وافتر ثغر « سيدة » عن ابتسامة عريضة وأجابت فى لهجتها الحانية :

— واللّـه مـا فهمـت شـيئا ، أتقولـين كلامـا مثـل الـذى تقرئينـه فـى الكتب ، ثم تسألينى إذا كنت قد فهمت ! أنا لا أفهم شيئا من هذا الذى قلته عن الصحراء والماء والحصى .. أنا أعرف الحب ، يعنى الحب ، يعنى بالعربى « حضن وبوس » .

— لا يا سيدة ، حرام عليك ، الحب أسمى من أن يركز فى مثـل هـذه المظاهر المادية، إن تلك بعض مظاهره، وقد يكون الحب ،ولا تكون هى.

— افهمى الحب كما تفهمينه .. المهم أنك قـد وقعـت ، والإصابـة لم تصب قدمك ، ولكن أصابت قلبك « ربنا يجعل العواقـب سـليمة » لأن الإصابة سريعة وحامية .

— الظاهر أنك لا تعرفين شيئا ، إن الإصابة قديمة ، أنـا لم أحبه اليـوم أو الأمس ، لقد أحببته منذ سمعته ،كانت أنغامه تطير بى إلى عالم آخر . كنت أعيش معه أكثر مما أعيش معكم .

— هكذا ! و لم أكن أنا أعلم شيئا عن ذلك « السرحان » .

— هل تدرين ماذا أحسست عندما أنبأتنى أنه هو نفسه الذى يقطـن بجوارنا ؟

— بماذا ؟

— أحسست إحساس الذى يتوق إلى الحج ولا يسـتطيع إليـه سـبيلا ، عندما يجد الكعبة قد جـاءت لـه . أحسسـت أنـى حصلـت مـن الحيـاة علـى أقصى ما أريد ، وقلت لنفسى إن من الجحود أن أسأل اللّه شيئا بعد ذلك .

وزادت ابتسـامة « سـيدة » وضربـت كفـا علـى كـف وقـالت فـى دهشة:

— اسمعى يا سيدتى راجية ، الظاهر أن الصدمـة لم تصب قدمـك ولا

قلبك ، بل أصابت رأسك .. أمتأكدة أنت أنك في تمام وعيك ؟ هذا الحديث لا يقوله إلا الشعراء ، أو المجانين .

ـ أو المحبين ، وأنا أحب يا سيدة ، أحب .

ـ سلامتك من الحب ، أدعو أن يكون لمن يكرهونك .

ـ لماذا ؟!

ـ لأنى أخشى عليك من الحب ، أعنى من هذا الحب بالذات .

ـ تخشين على ؟ أمجنونة أنت ؟! تخشين على من الحياة ومن الأمل ؟

ـ لا ، يا سيدتى ، أنا أخشى عليك من ضياع الأمل . أخشى عليك من فقد الحياة .. هذا شىء لا فائدة فيه .. أنت تعلمين أنك مخطوبة .

ـ لست مخطوبة .

ـ شبه مخطوبة .

ـ ولا هذا أيضا .

لا تكونى عنيدة ، ولا مكابرة ، أنت تعرفين جدك تماما ، وتعرفين أنه قد وطد عزمه على أن يزوجك ابن خالتك ، وأنه ليس هناك قوة تستطيع زحزحته عن رأيه . ثم أريد أن أسألك : هل أنت واثقة أن الطرف الآخر خال ؟! ألا يحتمل أن يكون متزوجا !! أو خاطبا !! أو على الأقل ، مشغولا ؟ فلماذا تعلقين نفسك بأمل لا طائل تحته ولا فائدة ترجى منه .

ولست أدرى لِمَ لم أفكر فى هذا من قبل ، وأحسست كأنما أوشك أن أهوى من حالق أو كأن الضياء الباهر الذى غمرت به نفسى قد انطفأ فجأة .. ولكن ما لبثت أن نفضت عن نفسى بسرعة غبار اليأس ، وعلائم اليأس ، وأنا لم أحدد بعد ما أريد منه ؟ إنى سعيدة بتحقيق أمل سابق ، بل لقد تحقق لى أكثر مما كنت آمل . لقد أصبحت أراه ،

وأسمعه ، وأحس أنه يحيا بجوارى ، وإن النسمة التى تمر بى قد سبق أن مرت به .

ووجدتنى أقول لها بنفس ملؤها الثقة والإيمان .

- كل هذا لا قيمة له عندى ، إنها عقبات لا دخل لى بها ، إنها لا تقع فى طريقى . ولا تمنع عنى رجاء ولا تخيب أملا ، إن كل ما آمل فيه هو أن أراه من بعد ، وأن أسمعه وهو يعزف ، إنى لا أطمع حتى فى أن يحس بى ، أو يسأل عنى .

وهزت « سيدة » رأسها ، كأنها لم تقتنع بقولى ، غير أنها لم تر فائدة فى استمرار المناقشة ، و لم تملك سوى أن تضمنى إليها ، متمتمة ببعض الدعوات التى كانت لاتفتأ تحيطنى بها .

ومضت بضعة أيام وأنا قانعة راضية .. كل ما أطمع فيه هو سماع ألحانه واختلاس النظر إليه . أو إشارة سلام وإيماءة تحية كلما التقت الأبصار .

كنت سعيدة ، و لم ينقص مقدار سعادتى أنى شبه مخطوبة وأنى مقيدة إلى إنسان آخر ، لأن مطامعى لم تكن تصل إلى أكثر من مجرد الرغبة فى سماعه أو رؤيته ، و لم أك أتخيل قط احتمال حدوث نوع من الصلات بينى وبينه ، وبالتالى لم أجد ذلك الارتباط قد حال بينى وبين شىء أطمع فيه .

كنت أحيا - كما سبق القول - حياتين : الحياة الآلية الصماء التى أقضيها مع جدى وابن خالتى والتى لا يسعنى سوى أن أقبل كل ما فيها برضاء شكلى ، والحياة الأخرى المرهفة الذائبة التى أقضيها فى الشرفة عندما يخيم الظلام ويبدأ النسيم يحمل إلى ألحانه .

وهكذا ظللت قانعة بالصلة الروحية الموسيقية حتى بدرت منه أول بادرة حركت مطامعى وجعلت القلب يتوق إلى أكثر مما كان يقنع به .

لقد أرسل خادمه ليسأل عنى وعن قدمى من « سيدة » وأتت إلىّ « سيدة » متسللة تبلغنى السؤال ، فأحسست منه فرحة شديدة وطلبت منها أن ترد له السلام وأن تسأله أن يعزف الليلة اللحن الذى كان يعزفه أول ليلة أتى إلى الإسكندرية .

ولم يكن اللحن ذاته هو ما أريد ، ولكنى كنت أود أن أسأله مطلبا وأردت أن أشعره أنه يفعل من أجلى شيئا .

وفى تلك الليلة كنت أجلس على مقعد فى الشرفة ، وقد أرخيت راسى على حافته ، ورحت من شرودى فى شبه إغفاءة ، وكانت تجلس على الأرض بجوارى « سيدة » ، وقد اتكأت بذراعها على حافة المقعد ، واللحن يسرى فى سكون الليل ، واستمرت الألحان تصل إلى أذنى ، وكأنى بها هابطة من السماء ، وأخيرا انتهى العزف ، وساد السكون . وأطلقت بعده تنهيدة حارة أعقبها سؤال من سيدة :

ــ ما بالك تتنهدين ؟

ــ أنا سعيدة يا سيدة ، سعيدة جدا ، لقد كنت بالأمس سعيدة وأنا أشارك « الملايين » فى سماعه ، كنت سعيدة بألحانه التى تصل إلى كما تصل إلى كل إنسان سواى ، كأنها أشعة الشمس أو هبة نسيم ، تصورى مقدار سعادتى الآن وأنا أحس أنه يعزف لى ، وأنى استمع إليه وحدى ، تصورى مبلغ سعادتك عندما تحسين أن الشمس لم تشرق إلا لتضئ لك ، وأن النسيم لم يهب إلا ليملأ رئتيك وحدك .

ــ يا سيدتى زاد الله سعادتك ، أنت طيبة وتستحقين كل خير ، إنى لا أستكثر على الشمس أن تشرق لك وحدك ، ولا على النسيم أن يهب من أجلك ... ولو كان الأمر بيدى لمحوت من صفحتك شوائب الكدر وجعلت حياتك هناء خالصا .. ولكن الدنيا لا تفعل ذلك ... الدنيا تستكثر علينا النسمة التى يشاركنا فيها الملايين ... فلا تشرق علينا الشمس إلا وقد حرمناها .. ونحن أتم ما نكون صحة .. الدنيا تكره أن

تديم على ابن آدم نعمة .. فتدس له فى طياتها النقمة تلو النقمة حتى تغلب النقم النعم .. وأنت يا سيدتى تعيشين فى هذه الدنيا ... وتخضعين لقضائها .. ومن أجل هذا أخشى عليك منها .

ــ ماذا تخشين على ؟

ــ أخشى عليك الخيبة والخذلان .

ــ قلت لك أنى لا أرجو شيئا .. حتى يخيب لى رجاء ... ولا آمل فى شىء حتى يضيع لى آمل ... إن سعادتى مستمدة من هنا .. من باطنى ... من قلبى ... ومن ذهنى ومن سمعى ... ومن تفكيرى ... ومن أحلامى .

ــ إنى أخاف عليك من أحلامك.. إن الأحلام حلوة والحقائق مريرة .. وشر ما فى الأحلام أنها تجسد لنا مرارة الحقائق إذا ما فتحنا العين عليها .

ــ دعينى أغمض عينى برهة .. دعينى أحلم .. حتى أرى ما أحب .. غدا سأفتح عينى وأرى ما سترغمنى الحياة على أن أراه .. فدعينى أتزود من أحلامى بما يعيننى على مرارة اليقظة .. أنا لا أستطيع أن أرفض نعمة الله التى وهبها لى .. لا أستطيع أن أقتل الإحساس الذى أنعم به علىّ والذى جعلنى أحس بالمتعة فى كل ما أرى .. لا أستطيع أن أوقف ذلك الشعور الذى يجعلنى أمسك منديلا كهذا .. الذى ربط لى به قدمى .. فأضمه وأشمه .. وأشعر منه بنشوة ممتعة ... منديل لا يختلف نسيجه عن نسيج الآلاف من المناديل الملقاة فى جيوبنا .. لا نحس لها أثرا .. ومع ذلك فقد جعلته مشاعرى نسيج وحده .. جعلت خيوطه تتنفس وتهمس بأعذب الهمسات وتناجى أرق المناجاة .

ولم أكن مبالغة فى قولى ، فقد كان هذا هو بالضبط ما أشعر به ... ولذلك لم أحاول أن أحد من مشاعرى ... وأوقف من هيامى .. بل اندفعت فى استسلام ممتع فى أحلامى الجميلة .

ومنذ تلك الليلة ... بدأت الأحلام .. تتخذ طريقهـا إلى التجسـد .. ونشأت بيننا صلـة سـؤال وجـواب بعـون خادمينـا : مدبـولى وسـيدة .. وأخذت كل ليلة أسأله اللحن الذى أود أن أسمعه .

وزاد التعلق وزاد الوله .. ولم أعد أقنـع بصحبـة الألحـان فـى سـكون الليل .. وبدأت أتطلع إلى صحبة أخرى خلال النهار . ولم يـك يصعب علىّ ذلك .. وأمسكت « باللوحة والفرشاة » وبدأت أرسم صورته .. وبت بذلك لا أفارقه ، ليل نهار .. بالليل ألحانـه .. وبالنهـار رسمـه ... أمتع وإياه فى خلوة فـى حجرتـى .. أجـرى « الفرشـاة علـى اللوحـة » لأبرز السمات وأوضح التعابير .

ودخلـت « سـيدة » وأنـا أرسـم ، فنظـرت إلى الصـورة فـى دهشـة وضربت صدرها ـ كعادتها عندما تريد أن تعبر عن الدهشة ـ وصـاحت فى صوت لا يخلو من الجذع :

ـ بسم اللّه الرحمن الرحيم .. من أين أتى هذا ؟

وقلت وأنا أتراجع ناظرة إلى الصورة فى إعجاب :

ـ ما رأيك يا سيدة ؟ أليس بها شبه كبير ؟!

ـ واللّه ، الخالق الناطق .

ـ سترين الشبه أكبر عندما تتـم الصـورة .. سـتجدين أنـه هـو بعينـه يجلس معنا .

ـ ولكنك ألا تخشين أن يراه أحد ؟!

ـ لا تخشى شيئا . إن لدى احتياطات الأمن ، انظرى .

ثم قلبت الصورة ، وكان بها رسما كاريكاتوريا لمدبولى .

وضربت « سيدة » صدرها الضربة المألوفه ثم استغرقت فى الضحـك وقالت وهى تتفرس فى الصورة :

ـ « ينيلك » يا مدبولى .. حتى أنت ترسـم فـى الصـورة « ومـالك مادا بوزك كالغراب النوحى .. والنبى دمه خفيف يا سيدتى » ... اليـوم

أتى إلىّ يتسلل من وراء السور وأخبرنى أن سبده إبراهيم يسأل عنك ويقول إنك قد أوحشته وأن به شوقا إلى رؤيتك .. ويسأل متى تنوين الوقوف على السور حتى يستطيع أن يتلقفك هذه المرة .. فلا تصاب قدمك .

وأحسست من حديثها بنشوة وسألتها .

ـ أحقا قال هذا يا سيدة ؟

ـ وحياتك عندى قال هذا . وما الذى يدعونى إلى الكذب ؟!!.

ـ أنا أعرف أنك تريدين ادخال السرور على قلبى.. ويحتمل أنك اخترعت الحديث من أجل هذا.

ـ أنا أحب إسعادك حقيقة ، ولكن ليس بالكذب . أقسم لك أن هذا ما قاله .. ولقد ظننت فى مبدأ الأمر أنه يحاول بذلك خلق الحديث معى .. وأنه يريد «جر الشكل» ... وأنا أعرفه خبيثا « بصباصا » رغم ما يبدو عليه من طيبة .. فقلت له : قل باختصار ماذا تريد ... ولا تدخل سيدك بيننا ؟! فأجاب أنا لم أدخله بيننا .. إنه هو الذى أقحم نفسه .. الظاهر يا سيدة .. أن سيدتك شغلت باله .. فهو لا يفتأ يكرر السؤال عنها .. ولا أكاد أسمع منه طول النهار إلا « يا مدبولى .. اسأل على الجيران » .. « يا مدبولى كيف حال الجيران ؟ » حتى لقد ضقت به والجيران ذرعا .

كان الحديث لذيذا ممتعا على الرغم أنه منقول بواسطتين ... وإن حرارته خلال النقل قد ضاعت وتفاصيله قد بهتت ، ولكن مع ذلك أخذت أستفسر منها وأستعيد ، وأستطيع أن أجزم أنى أكرهتها بالسؤال على تكراره ما يزيد عن عشر مرات وأخيرا سألتها فى استحياء :

ـ أتظنين حقا أنه يريد رؤيتى ؟

ـ أظن حقا ؟.. ولِمَ لا ؟! .. أهناك فى الدنيا من لا يريد رؤيتك ؟ ماذا تظنين بنفسك ؟ إنك خير البنات ، إن ذرات الثرى التى تسيرين عليها ..

ولم يكن هذا المديح هو ما أطلب .. ولا كان هـذا هـو الاتجـاه الـذى أردت أن أوجه إليه الحديث ... بل كنت أهـدف إلى أكثر مـن هـذا .. ولذا لم أجد بدا من مقاطعتها حتى لا تضيع على الفرصة ، فقاطعتها قائلة :

ــ ولكن كيف يتمكن من رؤيتى إذا كان يريد ذلك !

وتوقفت سيدة عن الحديث ونظرت إلى بعين خبيثة مـاكرة فاحصـة ، وقالت بلهجة ممدودة :

ــ أجل .. دخلنا فـى الجـد .. كيـف يـراك ؟! هـذه هـى المشـكلة .. ولكن هل هناك ضرورة لأن يراك ؟.

ــ إذا كان هو لم يرفض لى طلبا من طلباتى التى أثقل عليـه بهـا كـل ليلة . أفيحق لى أن أرفض أول طلب له ؟

وأجابت فى لهجة لا تخلو من السخرية :

ــ لا .. كيف ترفضين ؟! أستغفر اللّه .

ــ لا تضحكى يا سيدة ... أنى أتكلم جادة .

ــ ولكن رؤيتـه يـا سـيدتى ليسـت بالمسألة السـهلة .. بـل هـى أمـر محفوف بالمخاطر .. وأنت تعرفين جدك جيدا .

ــ لن يعرف جدى شيئا .

ــ إذا دعينا نفكر يا سيدتى .. كيف يراك !! كيف يراك !! على أيـة حال لن نعدم وسيلة للقاء .. ولكن المهم ألا تكـون كـالمرة السـابقة مـن فوق الأسوار .. لقد مرت الأولى بســلام .. ولكـن ليسـت كـل مـرة .. تسلم الجرة .. دعينى أفكر يا سيدتى راجية كيف يراك !.

وقلت لها مقاطعة وقد طاف بذهنى خاطر جعلنى أطير فرحا :

ــ اسمعى يا سيدة .. لقد خطرت لى فكرة هائلة .

ــ غير القفز وشغل « البهلوانات » !؟

ــ أجل .. أجل .. يوجد معرض لهواة الفنـون الجميلـة فـى الأتليـه .. وقد قلت لجدى إنى أود مشاهدته ، فوعـد بالتوجـه إليـه اليـوم قـائلا إن

لديه موعدا فى التريانون وأنه سيوصلنى إلى هنالك ثم يذهب هو إلى موعده ويرسل لى العربة كى أمر عليه بها بعد مشاهدة المعرض ، فما رأيك لو أبلغته أنه إذا رغب فى رؤية المعرض فسأكون هناك من الرابعة إلى الخامسة وأننا نستطيع مشاهدته معا .. ما رأيك فى هذه الفكرة ؟

ـ هائلة .. وأعتقد أنها مأمونة جدا .. ولكن ... هبى جدك غير رأيه .. ورغب فى مشاهدة المعرض ؟

ـ لا أظن ... يسمى الفنون كلها مسخرة .. لا تؤكل صاحبها عيشا .

ـ إذا .. سأذهب لأبلغه ... ولكن خذى بالك .كونى حذرة جدا .. ولا تتحدثى معه أمام الناس .

ـ لا تخشى شيئا .

وانطلقت سيدة تبلغ مدبولى النبأ .. وجلست أعد الدقائق والثوانى وأنتقل حائرة من حجرة إلى حجرة .. وبى فرحة شديدة ملؤها القلق .

وأذكر أنى لم أتناول من غذائى شيئا .. فإنى أفقد شهيتى لأى انفعال .. سواء أكان حزنا أم فرحا أم غضبا .. وغادرت المائدة سريعا .. وبدأت أرتدى ملابسى وكانت الساعة لم تزل الثانية والنصف .

وفى الثالثة كنت أوقظ جدى من غفوته فوق مقعده الكبير . ونظر إلى الساعة ثم إلى وقد ارتديت كامل ملابسى :

ـ ما هذا ؟! الساعة ما زالت الثالثة .. علام كل هذه العجلة ؟

وقلت متلعثمة :

ـ إن مشاهدة المعرض ستستغرق وقتا كبيرا ... وأريد أن أنتهى منه قبل حلول الظلام .

ـ وأين نحن من الظلام ؟

ـ إنى أخشى أن أترك شيئا دون مشاهدته .

ـ اطمئنى ستشاهدين كل شيء . أذهبى الآن وارقدى قليلا .

وذهبت عنه ، ولكنى لم أرقد بالطبع ، بل جلست أرقب عقرب الساعة الذى أقسم ألا يتحرك .

وفى الثالثة والنصف أيقظته مرة ثانية .. وفى هذه المرة نهض وهو ينظر فى غيظ قائلا :

ـ لا فائدة من النوم .. إنها غلطتى من أول الأمر لأنى وافقتك على مشاهدة هذه السخافات .

و لم يستغرق منه ارتداء ملابسه أكثر من خمس دقائق وعندما هممنا بالخروج وسيدة ورائى تهمس فى أذنى بنصائحها فوجئت بآخر ما كنت أرغب فى بجيئه فى هذه اللحظة .. وهو ابن خالتى عبدالرحمن .

ووجدت جدى قد تهللت أساريره وأقبل عليه مرحبا وكنت أعلم أنه يحبه .. فالاثنان كما قلت متشابهان فى التفكير والأخلاق .

وقال جدى مهللا :

ـ أهلا .. أهلا .. أتيت فى وقتك .. لقد كنا ذاهبين إلى البلدة .. لأن راجية ترغب فى مشاهدة الأتيلييه وكنت أنوى أن أوصلها وأذهب إلى التريانون ، فهيا معنا لكى تصحبها إلى هناك بدلا من ذهابها وحيدة .

وسمعت سيدة تهمس قائلة : « جالك الموت يا تارك الصلاة » .. والواقع أن وصول عبد الرحمن فى ذلك الوقت كان شرا من الموت لقد كان أشبه بسكين حاد قطع خيوط أمل شدتنى إلى السماء ... فهبطت فجأة وارتطمت بالأرض .

وأجاب عبد الرحمن وهو يضع منظاره على عينيه :

ـ كنت أريد أن أعرض عليك بعض مسائل وأطلعك على بعض الحسابات . ألا تجلس قليلا ؟

وصحت وأنا فى ضيق :

ـ لم يعد هناك وقت .

وأجاب جدى عندما أحس بضيقى :

ـ دع هذا حتى عودتنا .. هيا بنا .

وخرجنا نحن الثلاثة فركبنا السيارة .

ولم أكن أكره عبد الرحمن ، بل على النقيض .. كنت أحس له بما تحسه الأخت لأخيها . فقد أمضينا معا معظم طفولتنا وصبانا ، ولكنى كنت أكره مذهبه فى الحياة وطريقة إحساسه بها .. وإغراقه فى عمله واعتبار كل شىء عداه توافه لا قيمة لها .. وقد يكون هو غير مخطىء .. وقد يكون الواجب على الإنسان أن يكون كذلك . وقد أكون أنا الشاذة بتفكيرى ، المراهقة بإحساسى الفياض .. فلست أزعم عندما أقول إنى أكره طريقته فى الحياة أنه هو الخاطئ وأنا الصائبة .. ولكن كل ما هناك أنى كنت أحس أننا مخلوقان متباينان .. وأن ميولنا شتى .. وأهواءنا متفرقة ولذلك كنت أتجنبه ... وأتجنب مناقشته أو الحديث معه .

ولكن فى هذه اللحظة كنت أحس بضيق شديد منه .. فعلى الرغم أنه لا ذنب له فى حضوره فى هذا الموعد .. فهو بلا شك لا يعلم أنى ذاهبة لأرى إبراهيم ـ والحمد لله أنه لا يعلم ـــ ومع ذلك لم أبرأ من كرهه والسخط عليه .

ويبدو لى أن الضيق الذى استبد بى ساعتذاك قد ارتسمت معالمه على وجهى حتى أن جدى لم يملك أن سألنى فى دهشة :

ـ ما بك يا راجية ؟

وأفقت لنفسى .. وأدركت أنى يجب أن أكون على حذر شديد .. وألا أترك العنان لمشاعرى حتى تبدو جلية على وجهى .. ولم أملك إلا الاعتذار بأقرب عذر طرا على ذهنى فقلت له :

ـ ألم بى صداع مفاجئ .

ـ أتحبين أن نعود بك ؟

ـ لا .. لا .. إنه سرعان ما يزول .

أجل إن رؤيته ، ولو من بعد .. خير من ألا أراه .. وإنى أكره أن يقول إنى أخلفت موعدى ولم آبه له .

ثم ... من يدرى ؟!

وكانت « من يدرى » هذه .. هى أملى الدائم ورجائى الأخير .. فى عالم الغيب المعتم بظلمات اليأس .

أجل إن كل ما لم يكشف عنه الغيب .. مهما بلغ يأسنا منه .. قد ننتظر منه شيئا .

وهكذا جلست فى العربة .. آمل فى ذلك الشىء .

وأخرجنى من شرودى صوت عبد الرحمن يقول لجدى :

ـ كنت أريد أن أشرح لك مسألة السماد .. لأن بنك التسليف رفض أن يسلمنا ، وكذلك كنت أرغب فى أخذ رأيك فى أسهم شركة الحرير ... ومعى الآن تقرير مصلحة الضرائب .

ولمحته يخرج ورقة يعرضها على جدى .. ولم أكن أفهم شيئا من حديث السماد ولا الضرائب ، وكان هذا هو حديثهما الدائم .

وشرد بى الذهن مرة أخرى فى أشياء أقرب إلى نفسى من السماد وشركة الحرير وغيره مما يتحدثان فبه .. ولم أفق إلا وقد وقفت العربة أمام الاتيلييه .. وفتحت باب العربة وقفزت إلى الرصيف ، وعبد الرحمن ما زال منهمكا فى شرح بعض الأوراق لجدى ، وقلت أستحثه .

ـ هيا يا عبد الرحمن .

ـ دقيقة واحدة .

ثم استمر فى حديثه إلى الجد :

ـ يبقى بعد هذا خمسة آلاف وخمسة وتسعين جنيها مضافا إليها خمسة عشر فى المائة عمولة الشركة .. فيكون جملة الحساب ..

وصحت به فى ضيق :

ـ أنا واقفة يا عبد الرحمن .

ـ آ .. أهذا هو الاتيلييه .. ماذا به ؟

ـ واللّٰه لست أدرى ماذا به .. به صور بالطبع .

ـ صور ...

ثم التفت إلى جدى الذى كان منهمكا فى فحص الأوراق ووجه إليه الحديث :

ـ أظن تؤجل المسألة حتى نعود لأن راجية متعجلة .

ولكن يبدو أن جدى كان منهمكا فى الأوراق التى ألقى بها عبد الرحمن إليه فقد وجدته يقول دون أن يلتفت حوله :

ـ لكنى لم أفهم بعد حساب ألف الجنيه ... أى دخل لها فى جملة الأيراد ما دمت قد خصمت النسبة المطلوبة !

وبدأ صبرى ينفذ .. فصحت بجدى :

ـ بعدين يا جدى تقدر أن تفهم .. ليس هكذا فى الطريق .

ويبدو أن جدى قد استغرق فى الأوراق بكليته إذ لم تبلغ صيحتى أذنيه ووجدته ما زال مستمرا فى توجيه الحديث إلى عبد الرحمن قائلا :

ـ وثانى شىء .. مسألة الضرائب هذه .

وكان عبد الرحمن قد أدرك مبلغ ضيقى ومبلغ استغراق جدى فى مناقشته فأراد أن يضع حلا للمشكلة ... وكان أسعد حل يمكن أن يوضع ما سمعته يقوله :

ـ أظن الأفضل أن تدخلى أنت يا راجية .. ودعينى أنا أرافق جدى لتكملة الحساب .. أنا فى الواقع .. ليس لى فى المعارض .. ولا فى الرسوم .. تفضلى أنت يا راجية .

وكأن قوله كان حكما بالإفراج عنى وإطلاق حريتى .. وأحسست أنى أكاد من الفرحة أقفز إلى الداخل وهممت بأن أستدير إلى الباب عندما سمعت جدى يقول فى يسر :

ـ .. لا .. دع الحساب إلى وقت آخر .. انزل معها أفضل .

وهكذا .. فى نفس الوقت ... ألغى حكم الإفراج وتبدد الأمل .. و لم أملك إلا أن أدير ظهرى إلى العربة وأتقدم إلى الداخل .. وخطواته تطرق الأرض ورائى .. وظله يتبع ظلى .

الفصل السادس

مقيم فى الذاكرة

نفذت من الباب الحديدى « للأتيلييه » وعبرت الحديقة الصغيرة ثم صعدت سلمه الرخامى المنحنى القائم أمام البناء الأصفر العتيق ولمحت الساعة فى يدى فوجدتها الساعة الرابعة وعشر دقائق ، وكان السلم خاليا إلا منى ومن عبد الرحمن الذى كان يصعد ورائى فى تثاقل المكلف عملا يضيق به .

ودلفنا من الباب الخشبى المفضى إلى (صالة) العرض الرحبة ولم يكن المكان قد ازدحم ، فأخذت أقلب النظر يمنة ويسرة ، ويبدو أن وقفتى قد طالت إذ سمعت صاحبى يقول بصوت متبرم :

ـ مالك حائرة ؟ . أتبحثين عن شىء ؟

وحاولت جهدى أن أخفى ما بى من اضطراب وارتباك وقلت متصنعة الهدوء :

ـ لا ... إنى أسائل نفسى من أين أبدأ .

ـ أهذه مشكلة ؟ أبدئى من أى مكان وتنتهين حتما إليه .. أبدئى من هنا .. من هنا . أليست كلها صورا ؟

وأجبته فى ضيق :

ـ لا يا أستاذ .. ليست كلها صورا .. إنها مذاهب ودراسات لابد أن أبدأ بالناحية المهمة .

وهنا بدت لى ـ بما لا يقبل جدالا ولا شكا ـ الناحية المهمة ... بل المهمة جدا ، إذ أبصرت إبراهيم يقف فى أحد الأركان وهو يتطلع بقامته الممشوقة إلى إحدى الصور .

وأصابنى الاضطراب .. لست أدرى لم ... فرؤيته شانت أمرا متوقعا .. بل مرجوا ومأمولا .. فعلام الاضطراب إذا ؟

وحاولت جهدى أن أتمالك .. ولا سيما وأنا أرى تبرم عبد الرحمن قد زاد وهو يقول فى ضيق :

ـ ألم ترى بعد الناحية المهمة ؟

وبقدر ما استطعت من السهولة أجبته :

ـ أجل وجدتها .. لنبدأ من هذا الركن .

وأشرت إلى الركن الذى وقف عنده إبراهيم ثم اتجهت إليه ، وتساءل عبد الرحمن وهو يهرول ورائى :

ـ ولم هذا الركن بالذات ؟.. هل أستطيع أن أفهم أهميته ؟

وكنا قد اقتربنا من الركن ولمحت به بعض الصور « السبريالية » فأجبته فى لهجة الواثقة :

ـ إن به بعض دراسات هامة للمذهب « السيريالى » ...

ـ « سيريالى » .

وتطلع إلى الصور المعلقة ثم قلب شفتيه احتقارا ورفع نفيه عجبا قال :

ـ هذه « اللخبطة » اسمها « سيريالى » !! أنا أستطيع أن أفعل مثلها بسهولة .

ـ اخفض صوتك .. من فضلك .. إذا كنت تجهل الفن .. فكف عنه لسانك .. ولا تفضحنا ، وإذا كنت تستطيع أن ترسم مثل هذه الصور فمن الذى منعك من رسمها ؟

وكنت قد اقتربت من إبراهيم .. حتى وقفت بجواره .. ولست أدرى إذا كان لم يرنى ... أم أنه رآنى وبصحبتى عبد الرحمن فحاول ألا يلتفت إلىّ .

وأخذت أتطلع إلى إحدى الصور وذهني شارد .. وتفكيري مضطرب .. وأعصابي متوترة ، ولم يحل كل هذا بيني وبين شعور بالمتعة تسرب إلى نفسي من مجرد إحساسي بأنني واقفة بجواره ، رغم أني لا أراه واحتمال انتقاله من موضعه .

ولا شك أن الوقفة قد طالت فقد وجدت عبد الرحمن يخرج زفرة ملل ثم يهمس إلي في صوت حاول جهده أن يخفضه حتى لا يسمعه سواي :

ـ وبعد !! إلى متى هكذا ؟.. ألا تنوين التحرك من أمام هذه الصورة ؟!

وأفقت من شرودي ... لأهمس إليه في برود :

ـ دعني أشاهد كما أشاء .

ـ ولكن إذا وقفنا أمام كل صورة هذه الوقفة فلن يكفينا عام لمشاهدة المعرض كله .

ـ أنا لا أستطيع المشاهدة إلا هكذا .

ـ ثم إن الصورة لا تستحق كل هذا التطلع .

ـ أنا لم أرغمك على التطلع إليها .. أمامك المعرض متسع ... تطلع إلى ما يعجبك .. وإذا لم يعجبك المعرض كله فيمكنك مغادرته .. لم يرغمك أحد على الحضور .

ويبدو أن رنة الغضب في همسي كانت واضحة .. وكان عبد الرحمن بطبعه مسالما غير ميال إلى العناد أو المشاكسة .

ولذلك لم يلبث أن قال في هدوء :

ـ أنت وما تشائين .. شاهدي ما يعجبك .. وباقي في المعرض إذا أردت . سأشاهد أنا بقية الصور .

ثم أخذ في الابتعاد عني ملقيا نظرات سريعة عابرة على الصور المعلقة .

وأحسست من ابتعاده بعض الحرية ، فالتفت يمنة إلى حيث كان يقف إبراهيم فوجدته يتنقل اتجاهي ببطء وهو يرقب الصور كأنما

انتقاله طبيعى غير مقصود ، فلما اقترب منى التفت إلى نصف التفاتة وهمس قائلا :

- نهارك سعيد يا راجية .

ومرة اخرى - رغم اضطرابى الشديد - لم أستطع منع شعورى بالمتعة وأنا أسمع اسمى يخرج من شفتيه .. وأحسست بشيء من الزهو باسمى وهو ينطقه هكذا مجردا . وأجبته فى مثل همسه :

- نهارك سعيد يا أستاذ .. أنا متأسفة جدا لأنى لا أستطيع مصافحتك أو الحديث معك ، لأن ابن خالتى معى .. كنت أنوى المجئ وحدى ، ولكنه صادفنا ونحن خارجون من البيت ... فدعاه جدى إلى مصاحبتى .

- لا داعى للأسف .. نحن على أية حال استطعنا أن نلتقى .. وأن يرى كل منا الآخر .

وهنا رأيت عبد الرحمن يقترب .. بعد أن شاهد بطريقته السريعة كل المعرض ، ولم يستطع أن يخفى علامات الضيق والامتعاض ولا حاول أن يخفض صوته إلى درجة الهمس بل قال فى ضيق :

- كفى حملقة فى هذه السخافات التى تسمينها « السيرياليزم » .

وانتقلت خطوة اتجاهه .. فقد شعرت هذه المرة أن الوقفة قد طالت فعلا وأنها لم يعد لها مبرر بعد أن اعتذرت لإبراهيم .

وكانت وقفتى أمام صورة أخرى من الرسم السيريالى أكثر تعقيدا من الأولى .

ويبدو أن عبد الرحمن قد توهم أن وقفتى أمام الصورة الأخرى ستطول كالوقفة الأولى .. وأن هذا قد جعل صبره ينفد وصدره يضيق وحلمه يصل إلى نهاية فقد قال لى فى حنق :

ـ هذه ليست طريقة يا راحية .. كأني بك لا تشاهدين بل تتعمدين إثارتي .. أى شيء يمكن أن يوقفك أمام هذه الصورة كل هذه الوقفة ؟! ماذا يمكن أن نرى في هذه « اللخبطة والشخبطة » ؟! .

ولم أكن غاضبة بالقدر الذى أجبت به ... ولكن كان عليّ أن أدعى الغضب حتى أجعله لا يتمادى فى طريقته وحتى أوقفه عند حده . قلت له :

ـ ما شاء الله ... أتنوى أن تفتح لى تحقيقا فى كل صورة أقف أمامها .. شيء عجيب !!... أجعلوك قيما علي ... إنك تنظر إلى الصور نظرة خاطفة لأنك لا تفهم ما بها .. أمعقول أن تشاهد المعرض كله في هذه الدقائق التى مررت به خلالها ؟!.. إنك تنظر إليها كما تنظر إلى إعلانات الحائط فى الطرقات ونحن نمر بها راكبين السيارة ... ولكنى أنظر إليها نظرة تمعن وفحص .. إنى أشاهدها مشاهدة نقد ودراسة ... هذه هى طريقتى فى المشاهدة ... وأنا أحس منها بمتعة كبيرة .

ـ ولكنى لا أشعر أبدا بهذه المتعة .. فما ذنبى أنا ؟

ـ ما ذنبك ؟.. ومن الذى أجبرك على المجيء ؟! أنا لم أضربك على يدك ولم أربطك من عنقك .. إذا كنت لا تحتمل البقاء فاذهب إلى حيث تريد .. ودعنى أشاهد على مهل .. بدل هذا الضيق الذى تبديه فى كل لحظة والتحقيق الذى تفتحه أمام كل صورة .

والظاهر أنه كان قد ضاق بى فعلا .. إذ لم يكد يسمع منى هذا العرض حتى قال :

ـ وهذا ما سأفعله .. لأنى قطعا لا أحتمل الصبر على هذا الحال .. سأذهب إلى مأمورية ناحية الحمرك .. لأقضى عملا مفيدا بدل هذا التسكع الذى أتسكعه بجوارك وسآتى إليك بعد ساعة ... أظنك تكونين خلالها قد اكتفيت مشاهدة ؟

ساعة مرة واحدة !! لقد كان هذا أكثر مما أتصور ... ولـم أشأ أن أبدى فرحة زائدة حتى لا أثير شكوكه بل رفعت كتفـي وبصـرى معلـق بالصورة وقلت فى غير اكتراث :

ـ كما تشاء .. سأنتظرك حتى تعود :

وأولانى ظهره رافعـا عنـي القيـد ، وانطلـق ، وأحسسـت أنـا بـزوال الغمة .. وانتابنى شعور لذيذ .. وأحسست بالرغم مـن امتـلاء المعـرض بالزوار .. بشعور العاشق فى أول خلوة له .. وانتظـرت لحظـة حتـى أعطـي لسجانى فرصة الخروج .. ثم بدأت أتلفت حولى باحثة عن إبراهيم .

وتملكنى خذلان شديد إذ لم أجد له أثرا .

أيعقل هذا ؟! ألهذا الحد بلغـت سـخرية الظـروف وجنونهـا ؟! ولـم لا ؟.. ألا يعقل أن يكون قد انصرف بعد أن أنبأته بأنه ليس هناك فرصـة لكى أحدثه ؟! ثم هو لـم يـأت لمشـاهدة الصـور وإنمـا أتـى للقـائى .. فلماذا يبقى بعد ما حدث !!

ولكن ما ضره لو بقى بضع لحظات أخرى !! أهكـذا قـد ضـاق بـى سريعا ؟!

وكانت كل هذه الخواطر تـتزاحم علـى ذهنـى ... وبصـرى يطـوف بأرجاء المعرض .. باحثا منقبا .

أجل .. أجل يجب أن أبحث جيدا .. فقد يكـون مختفيـا وراء هـذا العمود .. أو مندسا وسط هذه الثلة .. أو .. ربما فى هذا الركن أو فى هذه الزاوية .

واندفعـت كحمقـاء .. أبحـث هنـا وهنـاك .. ولـم يكـن المكـان بالاتساع أو الأزدحام الذى لا أستطيع أن أتبين فيه إبراهيم من أول نظـرة .. ولكنها بقية من أمل جعلتنى أبحث عنه كأنه « إبرة» فى كوم من التبن .

وأحسست بصدرى يضيق .. واتجهت نحو الباب أنفس عـن كربـى عندما رأيته يعبر الباب إلى الداخل .

وتنهست الصعداء ... وكدت أعدو إليه لأسأله أين كان ، ولكنى تمالكت حتى اقترب منى .. ومد يده فشد على يدى .

وتركت يدى تستريح برهة فى يده ، ووددت ألا أنزعها من كفه ، ولكن أعين الناس - التى أحسست فى تلك اللحظة بأنها تركت الصور وتركزت على يدينا - أجبرتنى على أن أسحبها منه .

وقلت له فى لهجة تأنيب :

- أين كنت ؟

وأجاب ضاحكا :

- كنت أوصله .. لأتأكد من عدم رجوعه .

- لقد بحثت عنك كثيرا .. ويئست من لقائك ... إذ خشيت أن تكون قد انصرفت .

- أنا أنصرف ؟.. أنصرف .. وأنت باقية !؟

وبدأت النشوة تتدفق إلى رأسى .. وأخذت أوجه دفة الحديث بحيث أستدرجه إلى منحى أكبر قدر من المتعة ..قلت متسائلة :

- ولم لا.. قد تكون لديك أمور أهم ؟

- أهم من رؤيتك ..؟!

- أتعتبر رؤيتى أمرا هاما ؟

- ليس هاما فقط .. بل حيويا .

- برغم وجود ابن خالتى وبرغم أنه لم تكن لدينا فرصة الحديث ؟

- أجل برغم هذا .. لقد أطربنى مجرد إحساسى بوجودك معى فى مكان واحد .. ولو لم أنظر إليك أو أرك .

وكدت لا اصدق أذنى .. عندما رغبت فى استدراجه لم أكن أطمع قط فى مثل قوله .. أتراه حقا يعنى ما يقول ... أم تراها مجرد ألفاظ غزل .. يجيدها مثله !!

وعدت أستدرجه ... ورأسى يدور كالسكرى ... قلت له هامسة :

ـ أحقا تقول هذا ؟

ـ ليس هذا فقط .. فى بضعة الأيام الماضية ... كنت أشعر بالمتعة ... من إحساسى بحيرتك ... لقد أصبحت أحب هيكل بيتك ... وأعارض قول الشاعر الذى قال : « وما حب الديار شغفن قلبى » .

وكنا فى ركن ناء ... ولم يكن حولنا أحد .. ولو كان ما أحسسنا .. فقد كنا ـ أو على وجه أدق ـ كنت شبه هائمة .. فقدت كل إحساس إلى إلابه ... وبهمساته .

وكان قوله أكثر مما كنت أحتمل .. ولم أعد ـ ذائبة كما أنا ، مرهفة الحس كحد السيف ـ بالقادرة على الاستدراج ونصب الشباك ووضع الخطط ، ووجدتنى أهمس إليه ... وبصرى معلق فى صورة أمامى دون أن أشاهد منها شيئا :

ـ أنا أيضا أحس بنفس الشعور ... ولكنى كنت أسبق إليه منك .. كنت فيما مضى أشعر بنشوة إذا ما سمعت ألحانك ... كنت أحتاج لموسيقاك لكى تشعرنى بالحياة والسعادة ... أما الآن ... فإنى أحس بالسعادة دون أن أسمعك .. أحس بها بمجرد التفكير فيك .. فإذا ما علمت أني لا أكف عن التفكير فيك لحظة .. وأنى أفكر فيك يقظى وأحلم بك نائمة .. أدركت أنى فى سعادة دائمة .. لا ينضب لها معين ولا يجف لها نبع ... سعادة مستمدة من لا شىء .. من الأوهام والأحلام .

ـ إذا فلم يعد بك حاجة إلى سماعى ؟!

ـ لست أقصد هذا .. إنما أقصد أن كل شىء منك ممتع .. إذا صمت عنى فأنا سعيدة .. وإذا عزفت لى فإن سعادتى أوفر وأكمل .. أتعرف معنى أن تعزف لى وحدى ؟ أيمكن أن تدرك أثر هذا ؟

ـ وهل تعرفين معنى أن أعزف لك أنت !! وهل تعرفين أثرك على .. على عزفى وتلحينى !! لقد بت أشعر أنى أعمل من أجل شىء ..

وأنى أعزف لإنسان أتوق إلى إرضائه ، ولذلك يخيل إلى أننى فعلت شيئا أفضل .

— لا أظن هناك أفضل مما سمعت .

— بل هناك قطعة أتممتها أخيرا .. أعتقد أنها ستكون خير ما وضعت .

— ما اسمها ؟

— راجية .

— راجية !!

واعجبا !! أحقا يقول هذا ؟! أحقا وضع قطعة من أجلى ؟! وباسمى !! وخفضت رأسى عن الصورة التى كنت أحملق فيها .. وتملكتنى رغبة جارفة فى أن أستند إلى ذراعه وأضع رأسى على كتفه ، ولكن أحد الزوار اقترب منا ، فخطونا إلى الناحية الأخرى بضع خطوات قادتنا إلى خلوة أخرى .

وعدت أهتف به وقد تلاحقت أنفاسى من فرط الفرحة :

— أتقول حقا ؟!!

وحول إلى عينيه وعلت وجهه ابتسامة وأجاب فى رقة :

— طبعا أقول حقا .. ماذا يدهشك فى ذلك ؟

— هذا أكثر مما كنت أرجو ، بل أكثر مما كنت أحلم . أكثر كثيرا .. لست أظننى أستحق أن تضع من أجلى لحنا .

— لقد وضعته دون أن أفكر فيما إذا كنت تستحقين أو لا تستحقين ، فعندما يشغل ذهن الفنان شىء بذاته .. ويسيطر على تفكيره .. تجدين هذا الشىء قد برز فى عمله وألصق به طابعه دون أن يقصد .. هذا الشىء هو ما يسمونه الملهم .. وأظن أن من أبسط أصول الذوق واللياقة أن يسمى الإلهام باسم الملهم .. أو الملهمة . أعرفت بعد هذا إذا كنت تستحقين أو لا تستحقين ؟

ولم أعرف كيف أجيب فقد كنت أشبه بالثملة .. ولماذا أشبه وأنا أؤكد أن أعتق أنواع الخمر لم تكن تفعل برأس شاربها متل ما فعل حديثه ... ورفعت رأسى إلى وجهه وتذكرت الصورة التى رسمتها لـه وقلت له فى حياء :

ـ أنا أيضا .. كان لدى شيء يشغل ذهنى ويسيطر على تفكيرى ولا أكاد أتخلص من سيطرته لحظة واحدة .

ـ وماذا فعلت ؟

ـ كما فعلت أنت .. ولكن بطريقتى الخاصة .. الطريقة التى أقدر عليها .. لقد رسمت صورتك .

ـ أتقولين حقا ؟!

ـ أقول حقا !! هل تصدق أنى لم أكن أستطيع أن أفعل شيئا سوى رسمك .. وأنى عندما بدأته .. أخذت أتباطأ وأتمهل خشية أن أنتهى منه .. وأفقد بذلك نوعا من صحبتك ... واستحضارك فى ذهنى .

ـ أرسمتنى من الذاكرة ؟

ـ طبعا !

ـ وأجدت الشبه !

ـ جدا .

ـ عجبا !

ـ أى عجب فى ذلك !! أفى أن أرسمك من الذاكرة عجب ؟ إنك أثبت فى الذاكرة من أى شيء آخر .. أنت مقيم فى الذاكرة .

ـ إقامة دائمة ؟

ـ للأبد .

ـ ليت هذا يتحقق ... إنك مخلوقة عجيبة ... تختلفين تمام الاختلاف عن غيرك من البشر .. يبدو لى أنك لم تخلقى مثلهم من طين ، بل من شعاع ، وأن تكوينك ليس من دم ولحم ، ولكن من

مشاعر وأحاسيس .. إنك أشبه بالنسمة العطرة السارية .. منك بالبشر ... ومن أجل هذا أخشاك .

ـ تخشانى أنا ؟

ـ أجل .. أخشى « بساطتك » ورقتك .. وقدرتك العجيبة على التسرب فى دمى ... لقد تسللت إلى مشاعرى دون أن أشعر .. أتدرين كيف يتسلل النوم إلى جفونك .. ويتركك نائمة دون أن تعرفى متى نمت ولا كيف نمت ؟... لقد فعلت أنت بى هذا ... مرة واحدة لقيتك فيها .. خيل إلى بعدها .. أن بيننا ود قديم ، وصلة وثيقة .. ووجدت أن رؤيتك كل يوم فى شرفة منزلك قد باتت فرضا واجبا علىّ .. ألا أخشاك بعد كل هذا ؟

ـ إذا كان لى أن أخشاك .. فعليك أن تخشانى .. وما دمت لا أخشاك .. ولا أخشى فى شعورى نحوك أحدا .. فلا أظن أن هناك ما يدعو من خشيتى ... بل لا أظن برغم ما قلت أن بى ما يخشى .

ومرة أخرى بدأ الزوار يزدحمون حولنا .. فأخذنا ننتقل جانبا خطوة بعد خطوة .. ولكننا لم نجد لأنفسنا خلوة كالسابقة ، ولم تعد الفرصة سانحة للمناجاة ، وخشيت أن يحضر عبد الرحمن فنفترق فجأة دون أن نتفق على شيء فقلت له :

ـ متى سأسمع القطعة الجديدة ؟!

ـ الليلة إذا شئت .

ـ أية ساعة ؟!

ـ الثامنة .. أو التاسعة ؟!

ـ لتكن التاسعة .. إذ نكون قد انتهينا من العشاء ، وآوى جدى إلى حجرته .

وزاد الأزدحام حولنا ، وازدادت خشيتى مـن عـودة عبد الرحمـن ، وكنت أود لو نتفق على موعـد لقـاء آخـر .. ولكنـى كنـت أخجـل مـن سؤاله .

وصمت برهة متشاغلة بمشاهدة صورة سلطت عليها عينـى دون أن أفقه ما بها .

وقطع هو هذا الصمت بسؤاله :

ـ ألا أستطيع أنا أن أرى الصورة التى رسمتها ؟

ـ طبعا .. عندما أنتهى منها سأرسلها لك .

ـ ترسلينها ؟!! أنا لا أريدها وحدها .

ودق قلبى .. فقد وجدت أنه يوشك أن يعرض ما أهفو إليـه ولكنـى تساءلت متجاهلة ما يقصد :

ـ وماذا تريد معها ؟

ـ أريد أن اراك معها .. أو على الأصح أراها معك .

ونظرت إليه باسمة وأجبته :

ـ لا أظن من السهل أن ترانا معا .. فلست أدرى كيف أحملها لك .

ـ إذاً أراك أنـت .. لاضـرورة لأن تتعبـى نفسـك بحملهـا .. أظننـى أستطيع أن أستغنى عنها إلـى حيـن ... ليـس أسـهل علـى مـن أن أبصـر صورتى ... فما أكثر المرايا فى الدار ... أما أنت فرؤيتك نادرة ..

وبدأت أفكر ... كيف يمكن أن ندبر فرصة للقاء ، والإنسان دائمـا عندما يحاول التفكير فى حل لسؤال سريع .. تسد أمامـه جميـع السـبل وتهرب كل الحلول .. كيف ألقاة ؟... كيف ألقاه ؟

وأردف هو يستحثنى :

ـ لم تقولى كيف أراك ؟

ـ دعنى أفكر .. إن المسألة ليست سهلة .. لا بد من تفكير وتدبير .

ـ ألا تخرجين من البيت ؟! ألا تذهبين إلى السينما ؟!

- أجل أخرج .. ولكن لست وحدى ... لا بد أن يصحبنى جدى أو عبد الرحمن .

- ألا تذهبين وحدك أبدا إلى أى مكان ؟

- وحدى !! لا أظننى أذهب إلى أكثر من ماريكا .. ومع « سيدة » .

- ماريكا ؟ أخياطة هذه ؟

وضحكت وسألته فى دهشة :

- ألا تعرف ماريكا ؟. أتمكث فى السيوف هذه المدة ولا تعرف ماريكا ؟

- والله لم أسمع بها ... أهى قديسة كسانت تريزا مثلا ؟

وأضحكنى قوله هذا أكثر .. ولم أتمالك نفسى من القهقهة.. ورأيته يحدق فى وجهى دهشا وتساءل ضاحكا :

- اسمعى يا راجية .. قولى من تكون وأريحينى .. أم تريدين أن نضيع اليوم فى حديث عن ماريكا ؟

- أنها صاحبة « كشك » المرطبات عند المنتزه وسط تفتيش السيوف قرب محطة الأوتوبيس .. هل عرفت ماريكا ؟

- والله أعرف « الكشك » الذى تقولين عنه .. ولكنى لم أتشرف بمعرفة ماريكا بعد .

- لا ضرورة للتشرف بمعرفتها ... لأنها لا تمكث فى « الكشك » إلا نادرا ، ولكن الكشك ما زال يسمى باسمها .. نحن تعودنا أن نسميه هكذا .

- إذا فهى امرأة خالدة .

- ستكون خالدة منذ الآن .. بعد أن نلتقى عندها .

ونظر إلى بطرف عينيه وتساءل فى خبث :

- ومتى تنوين تخليدها ؟

ـ أنى أخرج للسير عادة فى الحقول مع « سيدة » قبيل الغروب ... ثم ينتهى بنا المطاف إلى ماريكا ، ثم نعود بعدها إلى البيت .

ـ إذاً نلتقى غدا لنجول معا بين الحقول ؟!.

ـ ولكن .. أخشى أن يرانا أحد من أهل المنطقة .

ـ لا تخشى شيئا .. إن المنطقة خراب ... لا أكاد أبصر بها إنسانا .. متى نلتقى ؟

ـ فى الخامسة ... سأنتظرك ومعى « سيدة » عند ماريكا ، ثم نبدأ سيرنا من هناك .

ونظرت إلى الساعة فى معصمى فإذا بالوقت قد طار .. وإذا الساعة قد مرت فى لمح البصر .. وأصابنى قلق وتلفت نحو الباب خشية أن يكون عبد الرحمن آتيا ثم قلت له فى ارتباك :

ـ أظن الوقت قد حان لكى نفترق .. إن عبد الرحمن يوشك أن يأتى .

ـ سأنتظرك فى الخامسة ؟.

ـ إن شاء اللّه .

ولم يكد يبتعد عنى بضع خطوات حتى ظهر عبد الرحمن فى الباب يتلفت باحثا عنى .. فرفعت يدى ملوحة له ... واتجهت إليه فى خطوات خفيفة سريعة .. وأقبلت عليه هاشة باشة .

لقد أحسست من فرط نشوتى أنى أحبه .. بل كنت أحب جميع الناس .. والصور والتماثيل ، والحراس .

وكان الكره الذى سبق أن شعرت به عند حضوره المفاجئ .. قد قلب امتنانا له وتفاؤلا به ... بعد أن منحنى تلك الساعة التى حصلت فيها على أقصى ما كنت أتصور أن أحصل عليه .

وسألنى عبد الرحمن ضاحكا :

ـ أما زلت تدرسين « الشخبطة واللخبطة » ؟

وضحكت وأجبته :

ـ لا . لقد انتهيت منها .. إنى على أتم استعداد للرحيل معك .

ـ وأنا على أتم استعداد للحملقة معك كما تشائين .

وسحبته من ذراعه واتجهنا إلى الباب وأنا أقول :

ـ لا داعى للسخرية ... أنا لا أسخر من حساباتك التى تقضى الساعات شاخصا بها .. ولا أسخر من أوراق السماد وتقارير الضرائب وغيرها من « اللخبطة والشخبطة » التى أنت غارق فيها .

وأجاب عبد الرحمن ضاحكا :

ـ ولكنها .. لخبطة مفيدة ومريحة .

ـ مريحة للجيب .. ولكن « لخبطتى » مربحة للنفس والذهن .

وكنا قد وصلنا إلى العربة وانطلقت بنا لتأخذ جدى من التريانون ثم نعود إلى البيت .

وفى الثامنة انتهينا من العشاء وتسللت من غرفة الجلوس تاركة جدى وعبد الرحمن فى حساباتهما مدعية أن النوم قد أثقل جفونى ثم آويت إلى حجرتى وارتديت ثياب النوم وخرجت إلى الشرفة .. وجلست على مقعدى المريح أنتظر حضور سيدة إذ كان بى لهفة على أن أقص عليها المعجزة التى حدثت .. وبعد لحظة أتت سيدة ... ولم تكن لهفتها على السماع بأقل من لهفتى على الحديث .

وبدأت أجتر ما حدث ... شاعرة من قصه بما يشابه متعة حدوثه .. وعجبت لنفسى كيف استطعت أن أحفظ أحاديثه كلمة كلمة .. كأنها قطعة محفوظات كلفت حفظها .. بل أكثر من هذا .. كانت كأنها ثروة حصلت عليها بعد طول حاجة وحرمان ، فأنا أخشى أن أبدد منها دانقا ... وأحرص كل الحرص على أن ألمها فى الذهن وأحفظها فى الذاكرة .

وكانت سيدة سعيدة بسعادتى .. تُربِّت يدى وتتحسس شعرى وأنا أقص عليها .

ولم أكد أنتهى من الحديث حتى سمعت دقات على البيانو وأدركت أنه سيبدا العزف .. فقلت لسيدة :

ـ أغلقى الباب .. وأنصتي جيدا ... حتى تسمعى إلى « راجية » .

ـ لقد مضت ساعة وأنا أستمع إلى راجية .. ألديك شيء أكثر مما قلت ؟!

وضحكت وقلت لها ساخرة :

ـ يا جاهلة ... أنسيت ... ألم أقل لك إنه فى الساعة التاسعة سيعزف لى القطعة التى وضعها باسمى ؟

وبدأ العزف .. وأغمضت عينى .. واستسلمت للحن يحملنى على أجنحته بعيدا ... بعيدا .

ولم أفق من نشوتى ... إلا وقد ساد السكون .. وخيم الصمت وأطلقت من صدرى تنهيدة الراحة .. التى تعودت أن أطلقها كلما شعرت بالهدوء والسكينة والاستقرار .

ونظرت فى الظلمة تجاه شرفته .. فإذا بى ألمح شبحه وقد استند على حافتها ... وأحسست أنه يود أن يعرف رأيى فى لحنه ، أو على الأقل يثق أنى سمعته .

وقفزت من مقعدى فجأة .. حتى أفزعت سنيدة .. ثم أضأت نور الشرفة .. وأشرت بيدى ملوحة .. فتلقيت تحية منه ردا على إشارتى .

وكانت سيدة قد قفزت بدورها ومدت يدها فأطفأت النور وقالت لى ناهرة :

ـ أمجنونة أنت ؟ ما هذا الذى تفعلينه « آل ما شافوهمش بيسرقوا .. شافوهم بيتحاسبوا » ماذا تفيدك هذه الإشارة سوى الفضيحة ؟! ألم يكفك طول اليوم وأنت معه ؟! ألم تكتفى بكل ما حصل ؟! ألا تحمدين الله على أن مر اليوم بخير .. حتى تحاولى أن تتميه بفضيحة ..

هبى أن جدك أو عبد الرحمن أو أحد الخدم .. رآك تشيرين هكذا ! .. فماذا يحدث ؟

وكانت سيدة على حق .. ولكن اندفاعى كان غير إرادى .. كانت رغبة شديدة فى أن أعبر له عن تقديرى ، ومشاعرى .

- متأسفة يا سيدة ... المسـ لقد حدث على غير إرادة منى .

- هذه هى المصيبة ... كل الأخطاء تحدث لنا من الأفعال التى نفعلها بلا وعى ... ولو كنا فى وعينا ما فعلناها . إنى أريد منك أن تتعقلى وتتئدى .. إن لم يكن من أجل مصلحتك .. فعلى الأقل من أجل متعتك ... كلما زاد تسترك زادت علاقتك به طولا واستمرارا .. فالناس لا يقدرون الأخطاء بوقوعها ولكن بظهورها ... فاحذرى يا حبيبتى ما أمكنك .. ولا تعبى كأسك مرة واحدة ... لأنه كلما بطؤ الرشف زادت فترة الاستمتاع .

وكانت سيدة تبدو فى بعض الأحيان حكيمة ... ولست أشك أن قولها هذا كان إحدى حكمها الرائعة .. ولكنى بحالتى الهائمة التى كنت عليها .. لم أكن على أى استعداد لسماع أى نوع من الحكم ... مهما بلغت من الروعة .

من يستطيع أن يقول للمهجر الصادى الذى أقبل على عين نميره .. تمهل .. وخذ قطرة قطرة ..؟

ونمت ليلتى تلك .. لماما .. كان ذهنى مليئا بالمتع التى أخشى أن أغفو عنها .. برغم أن الغفوة عنها كانت حلما بها .

وفى الفترات التى كان ينبو بى المضجع كنت أستلقى على المقعد فى الشرفة .. ونظرى يتنقل بين النجوم المتألقة فى أديم السماء .. وضوء خلته يتألق فى أديم الأرض ، ينبعث خافتا من وراء إحدى النوافذ .

وقبيل الفجر نمت نومة عميقة ملؤها حلم طويل لذيذ .. رأيت نفسي وإياه في زورق يجرى فى عرض البحر وقد وقف الناس يلوحون لنا على الشاطئ ... وعندما تحسست رأسى وجدت عليه « طرحة بيضاء » ثم وجدت ذيول ثوبى البيضاء تفرش أرض الزورق .. فأدركت أنى ألبس ثوب العرس .

هكذا أنالتنى الأحلام أقصى الأمانى .. وعندما استيقظت فى الصباح .. خيل إلى إما أن أكون مخلوقة أخرى وإما أن تكون الدنيا قد أضحت دنيا أخرى .. فقد كان الحبور يملأ نفسى .. والثقة والأطمئنان والأمل العريض والأمانى الحلوة تفيض بها .

الفصل السابع

ثقة وإيمان

قضيت اليوم من أوهامى وأحلامى فى طرب دائم ونشوة مستمرة .. حتى حل الموعد فانتعلت صندلا خفيفا ، « وبلوزة حمراء » ، « وجيب أسود » وقلت لجدى إنى خارجة للتمشى مع « سيدة » فهز رأسه وهو منهمك فى القراءة قائلا :

_ لا تغيبى حتى الظلام .

- حاضر .

وهبطنا السلم وعبرنا الحديقة وألقيت نظرة على الدار الأخرى ثم سرت متجهة إلى الكوخ « ماريكا » .

ورأيت « سيدة » تتلفت حولها فى حذر ثم تتمتم ببضع كلمات .. وخيل لى أنها تقول كلاما لم أسمعه .. فسألتها عما تقول فأجابت بلهجة خائفة :

_ أطلب الستر من الله .

وكنت أراها متشائمة أكثر مما يجب ولم أكن أرى لحذرها موجبا . وكانت المسافة لا تزيد على بضع مئات من الأمتار يقطعها المرء سيرا على الأقدام فى بضع دقائق .. وكان الكوخ على مدى البصر من البيت لولا بيت آخر يقوم بينهما .

وسرت فى الطريق المترب حينا وخضت بين الحشائش فى الأراضى الفارغة حينا آخر ... وكان المكان قد خلا على مدى البصر إلا من بضعة كلاب تتبادل النباح وعربة تنساب فى الطريق الرئيسى الآتى من فيكتوريا المتجه إلى القاهرة .

ووصلت إلى الكوخ الخشبى الأخضر الذى أحاطت به المتسلقات ووضع فى داخله بضعة صناديق فيها زجاجات الكازوزة والكوكاكولا وبعض قطع الشيكولاته والحلوى ، واللادن ، ورصت حوله مناضد خشبية ومقاعد من القش .

ولم أر أحداً أمام الكوخ فى أول الأمر .. اللهم إلا عربة جلس فيها رجل وامرأة .. ولكنى لم أكد أدور حول الكوخ حتى أبصرته .

وتوالت ضربات القلب .. برغم سبق الاستعداد للقاء . وأصابنى الارتباك .. وخشيت إن أنا أقبلت عليه أحييه أن يرانا أحد ، ولا سيما أن الساقى يعرفنى جيدا .

وكان بجوار الكوخ متنزها عاما لا يزيد على مسطح من الحشيش والأشجار أحيط بسور من الدرنتة ووضعت به بضعة مقاعد ، وكان غالبا ما يلجأ إليه عمال الأوتوبيس ، أو الركاب الذين ينتظرونه ، وكان من الجنون أن ألجأ إليه .

لم يبق أمامى إذاً غير الاندفاع تجاه الطريق المؤدى إلى المزارع ، وإلى المتنزه الآخر المهجور القائم فى أطرافها .

وهكذا سرت فى الطريق وقد منعنى الارتباك من تحيته أو إعارته مجرد الالتفات .

وبعد مسيرة برهة أحسست بالارتباك الفجائى الذى لا مبرر له قد بدأ فى الزوال ، وتلفت خلفى فوجدته يلاحقنا بخطا متئدة .

وتمهلت .. وأخذ هو يقترب منا رويدا .. رويدا .. وعندما وصل إلينا كنا قد ابتعدنا عن الكوخ ولم أعد أبصر حولنا .. سوى المزارع والأشجار .

ورأيته يضحك وهو يشد على يدى :

ــ ما هذا العدو .. أتظنيننا فى سباق ؟

وأردفت سيدة مؤيدة قوله :

ـ لقد قطعت أنفاسي وأنا أحاول اللحاق بها .

وكنت أكاد أسمع دقات قلبي .. كانت بي فرحة جارفة وأنا أسير بجواره وقد تركت يدى مستسلمة فى يده .. وقد انبسطت أمامنا الخضرة وأخذت أطراف أعواد القصب المتكاثفة تتماوج فى هبات النسيم .. وانبعثت من أعالى الشجر خشخشة ووشوشة وتغريد وزقزقة ، وسرت الريح بين الأغصان والأوراق فملأتها حياة وحركة .

ولم نقل شيئا .. كان اللسان فى صمت .. والجوانح فى صخب .. حتى وصلنا إلى المتنزه الخالى ، الكائن على أطراف المزارع ، وكانت حشائشه قد استطالت فى إهمال مستحب ، وأشجار البوتشارديا الباسقة قد تدلت أوراقها العريضة كالمراوح من قمتها العالية وعلى أطرافها من الزغب ما يشبه الشعر الأبيض .. وأحواض من الوينكا البيضاء والبمبة قد تناثرت فى أنحاء الحديقة .

واجتزنا مدخل المتنزه ، وتمهل إبراهيم قليلا وتساءل :

ـ ما رأيك لو استقررنا هنا على أحد المقاعد .. أم تصرين على المشى فى الحقول ؟

ـ أبدا .. أنا لا أصر على شيء .. لنجلس إذا شئت .

وكنت أفضل الجلوس .. فإنى فى السير لا استطيع مواجهته ، وقد كنت أرغب فى أن أعب النظر منه .. إذ كنت أشعر أن هذه الفرص للقاء لن يجود القدر بمثلها كثيرا .

وجلسنا ، وكانت الشمس توشك أن تغيب ، وتذكرت أن جدى أمرنى أن أعود قبل سقوط الظلام ، وأحسست أن فرحتى قد بدأت تشوبها شوائب القلق .. وأن سيل النشوة أخذت تعترضه جنادل خوف مبهم مبعثه الإحساس بعدم التملك الدائم ، وبعدم السيطرة المستمرة على ذلك الشيء الثمين النادر الذى أطبق عليه بين يدى .. وأن مدى استحواذى عليه رهن بكل مشيئة .. إلا مشيئتى .

أجل .. كل شىء يتحكم فى استحواذى عليه .. جدى.. وعبد الرحمن .. وسيدة .. وكل عابر سبيل .. يستطيع أن يمنعنى من أن أضمه إلىّ أو أنعم بالهدوء إلى جواره .

حتى هذه الشمس الغاربه .. تتحكم فى دون أن تدرى .. إنها تهوى بسرعة نحو الأفق ... كأنها على موعد وراءه .. أو كأنها تحسدنى على جلستى .. فهى تأبى أن تطيلها علىّ .

ويبدو أن شرودى قد طال . إذ أبصرت أصبع إبراهيم تمتد متسللة فتعبث بخصلة شعر دفعها النسيم إلى جبينى فأخذت تضطرب فوقه .

ونظرت إليه باسمة فأجابنى :

ــ صح النوم .. فيم كنت شاردة ؟

ــ فى الدنيا .

ــ ما لها الدنيا ؟

ــ عجيبة !

ــ أى عجب بها ؟!

ــ كل أحوالها .. عندما تهب .. تهب بحمق .. كأنها سفيه يستحق الحجر .. حتى يبيت الإنسان من فرط إغداقها وهو غير مصدق أنه يعيش فى الواقع ... وأن ما به ليس حلما من أحلام الدجى .

ــ ماذا ترينها أغدقته عليك ؟

ــ كل شىء .. لقد قلت ذات مرة لسيدة وأنا أسمعك تعزف من أحلى أحد الحانك ... إنى كنت فيما مضى أحس بالسعادة وأنا أشارك الناس فيك كما أشاركهم فى الشمس والهواء ... وسألتها ماذا يكون إحساسها لو علمت أن الشمس قد طلعت لتضئ لها وحدها ؟

ــ ألم تسأليها عن شعورها عندما تجد أن الشمس قد أضحت ملكها ؟! بل ألم تسألى الشمس عن مدى سعادتها .. وهى تضئ من أجلك ؟

وكانت سيدة قد جلست على مقعد ناء وأخذت تتسلى بمضغ قطعة « لادن » ووجدت نفسى أبتسم وأنا أنظر إليها . وما لبثت أن قلت له :

ـ لا أظننى أستطيع أن أسألها الآن .. ولا أظننى أجسر على أن أسأل الشمس .

ومد إبراهيم كفه فبسط باطنها على ظاهر يدى وأخذ يتحسسه بحنان ويضغط أصابعي برفق .. كأنما يقول شيئا ... لولا الحياء .. لجسرت على أن أترجمه .. بلفظة « أحبك » .

وأحسست أنى أوشك من مسة يده وضغطها أن أذوب ، وأتى إلى صوته هامسا فى أذنى :

ـ الشمس التى تتحدثين عنها تستمد نورها منك .. من مشاعرك .. ومن إحساسك المرهف .. إن ما تبصرينه بها من ضياء .. هو ضوء قلبك معكوس عليها .. كنت أحس بالوحدة والفراغ ... ولم يخطر لى ببال .. أن هذا الفراغ العريض يمكن أن تملأه مخلوقة فى مثل ضآلتك .. ومع ذلك فقد ملأته ... حتى بت أشعر أنك أصبحت لازمة لى ... بل جزءا منى .

وازددت به التصاقا ... حتى أحسست فعلا أنى جزء منه .. وعادت أصابعه تعبث بخصلة الشعر المتهدلة على جبينى وهو ينظر إلى عينى .. مما جعلنى أتلهف على الارتماء فى صدره ... والالتصاق به ... إلى الأبد .

وهمست به :

ـ أنا أيضا أحس بما تحس ... ولكننى لا أجرؤ على التصريح به لأحد حتى لنفسى .. لأنى أتوهم أنك أكبر من أن أمتلكك .. إنى أحس بأنك معجزة ... وامتلاك المعجزة ليس من نصيب البشر .

ـ أنا أكره أن تقولى عنى ذلك .

ـ ولكنك كذلك .

ـ لو كنت كذلك بالنسبة للناس جميعا فإنى أكره أن أكون كذلك بالنسبة إليك .. أكره أن تحبى فيّ المعجزة التى تتوهمينها ... أكره أن تحبى فى الضخامة التى تقولين عنها . أريد أن تحبى فى ما أحبه فيك .. المخلوق الفرد « البسيط » ، أريد أن تحبى فيّ البشر الذى يكمن في داخلى .. بمساخرى وسخافتى .. أريد منك أن تحبى فيّ الرجل القابع بلا ضوء ولا ضجيج ولا شهرة .. ولا ألحان .. فهذه كلها .. يحبها الناس جميعا .. أما الباقى فلا يحس به أحد .. وما أشد شوقى إلى أن تحسى به أنت .

واحسست من قوله بعبرة تطوف بعينى وتراودها على النزول .. فأمسكت يده بين يدى .. وتناسيت ما لحواء من كبرياء .. ورفعت كفه فمسستها بشفتى ، وهمست وأنا دافنة وجهى فى كفه وقد أخذ يتحسسه بحنان ورفق .

ـ إنى أحبك كما أنت .. أحب المخلوق الذى أمامى كما هو .. لقد أحببت فى أول الأمر ألحانك وعبقريتك ، فلما لقيتك وجدتك خيرا من كل ألحانك .. بل من كل موسيقى العالم .. أنت وحدك وسواك لا شىء .. لو سألتنى الآن ألا أسمع موسيقى أبدا للبيت طلبك .

وتخلل بأصابعه شعرى وضم رأسى إلى صدره وأجاب :

ـ لن أسألك هذا .. إن حب كل منا لصاحبه .. لن يمنعنا من حب الموسيقى معا .. نحن أولا .. والموسيقى ثانيا .. ما رأيك ؟

ورفعت إليه وجها باسما وأجبته قائلة :

ـ أنت أولا .. ولا شىء بعد ذلك .

وسمعت سيدة تنادينى .. فأفقت لنفسى .. وللشمس الهاربة .. وللظلام المطبق .. وتذكرت جدى ، وكرهت أن أهبط سريعا من هيامى الطليق إلى حياتى المقيدة .

وكانت سيدة قد اقتربت منى قائلة :

_ أظن الوقت قد أزف للعودة .. أخشى أن يقلق جدك عليك.

ونهضت واقفة إذ لم أكن في حاجة إلى تحذير سيدة .. وغادرنا المتنزه وسرنا متلاصقين وقد أطبقت يده على يدى وقد شغل ذهنينا تفكير واحد.. هو اللقاء التالى .. ولم يطل به التفكير حتى تساءل :

ـ متى سأراك ؟

ـ هذا ما كنت أفكر فيه .

ـ وإلام اهتديت ؟

ـ لم أهتد إلى شيء .. فلست واثقة من نية جدى في الغد .. كان يقول إننا مدعوون إلى الشاى عند أحد أصدقائه وأظن من الخير ألا نرتبط بموعد من الآن حتى لا أخلفه .

ـ إذاً نلتقى بعد غد ؟

ـ سأرسل سيدة لكى تبلغ مدبولى الموعد الذى يمكن أن تستقر عليه .

وكنا قد تركنا الخلاء وقاربنا إحدى الدور فقلت له :

ـ خير لنا أن نفترق الآن .

وضغط على يدى الضغطة الممتعة .. التى كنت أشعر منها بما تشعره كل ولهى ... عندما تلتقط أذهاننا همسة « أحبك » .

وافترقنا .. وسرت أنا فى طريق مستقيم مؤدى إلى المنزل رأسا .. واتبع هو بعض الطرق الدائرة حتى نتباعد ولا نقبل على دارينا معا .

وعندما وصلت إلى الدار حمدت الله لأن جدى كان قد غادرها .. فلم أعرض لمشقة التأنيب على هذا التأخير .

وأصبح الصباح علىّ .. بعد ليلة سعبدة ملؤها الأحلام الممتعة .. ووقفت أستقبل الشروق وأنا أشعر أن الدنيا قد وهبت لى كل ما لديها من سعادة .. وأنها منحتنى نصيبى ونصيب الآخرين .

ولكن يبدو أنها كانت تحتفظ لى بالمزيد ... وأنها رغبت أن تؤكد صحة قولى إنها عندما تهب تهب بحمق السفيه الذى يستحق

الحجر .. إذ لم أكد أجلس إلى الإفطار حتى أقبل جدى مرتديا ملابسه وأنبأنى أنه سيأخذ قطار الصباح إلى القاهرة ... لأن عبد الرحمن دعاه إلى الحضور لتسجيل بعض الأوراق فى محكمة الشهر العقارى .. وأنه سيمكث بضعة أيام حتى يحضر القضية الخاصة بأرض الأوقاف .. وأشياء أخرى لم أحاول وعيها لأن ذهنى قفز إلى إبراهيم تاركا جدى يشرح أسباب سفره .. ويفصل مشاكله ويشرح ضيقه بأسهم كذا وكذا وسندات كيت وكيت ... ووجدتنى ألقى إليه بقيوده الثقيلة ليحملها معه إلى القاهرة فى بضعة الأيام التى سيتركنى فيها .. وأخذت أهيم مع إبراهيم .. حرة طليقة .. نضرب بين الحقول .. ونعدو على الشاطئ ، ونسبح فى الماء ، ونحلق فى الهواء .

وفجأة جذبنى جدى من سماء أوهامى وبحور أمانى بقوله :

ـ لقد فكرت فى أن آخذك معى .

ـ معك ؟!

قلتها بلا أرادة كالملسوعة .. ونظرت إليه مبهولة فاغرة الفاه .. ولكن بقية حديثه دفع إلى الطمانينة مرة أخرى فقد أردف قائلا :

ـ ... ولكنى وجدتنى فى عجلة .. ولن تطول غيبتى ... وأظنك تستطيعين البقاء وحدك بضعة أيام ؟ إنك لم تعودى صغيرة .. لقد أصبحت « ست بيت » .. وسآمر السائق أن يبيت فى الدار خلال فترة غيابى .. والنقود موضوعة فى الدرج .. خذى كل ما يكفيك .

ولم أحاول أن أنبس ببنت شفة .. فقد خشيت إن أنا نطقت أن أكشف فرحتى .. وأنا أقول له : « اذهب اذهب .. ولا تخش شيئا .. إن سفرك الطارئ هو أقصى ما كنت أتوق إليه ... إنى لن أشعر بخوف ولا وحشة ... لأن إبراهيم سيؤنس وحشتى » .

واستمر هو فى نصائحه وتحذيراته ... حتى انتهيت من الإفطار وسألنى أن أجهز له الحقيبة الصغيرة .

وبعد نصف ساعة كان قد غادر البيت .. وكان لسان حالى يهتف بقول الشاعر : « خلا لك الجو فبيضى واصفرى » .

وكان أول ما فعلت .. هو أن وقفت فى الشرفة أملأ صدرى من النسيم العابر على الدار الأخرى .. كأن جدى قد منعنى من استنشاقه .. وكان أول ما فعلته سيدة هو أن لحقت بى .. وقالت محذرة :

ـ اسمعى .. إياك والجنون ... شيئا فشيئا ... تذكرى أنه يوجد خدم ، وتوجد جيران .

ونظرت إليها متصنعة الدهشة وتساءلت :

ـ وماذا فعلت حتى تقولى هذا ؟

ـ لم تفعلى بعد .. ولكننى أعلم أنك ستفعلين .. لو سافر جدك منذ شهر لما قلت لك هذا ، فقد كنت ما زلت فى عقلك ورزانتك .. أما الآن .. فيجب على أن أرقبك جيدا .. بعد أن أطاش جارنا صوابك .. وأضاع عقلك .

ـ ما هذا الذى تقولينه يا سيدة ؟

ـ أقول الحق .. أقسم أنك لم تصبحى راجبة أبدا ... أبدا .

ـ أنا معك أنى لم أصبح كما كنت .. ولكنى أصبحت خيرا مما كنت .. أصبحت أشعر بالحياة وبالسعادة .. أصبحت أحس بقيمة كل ثانية تمر بى .. لأنها تحمل لى شيئا . أما قبل ، فقد كانت فارغة .. وسواء لدى أمرّت أم لم تمر . فما كان لها فى نفسى قيمة .

ـ لا فائدة منك .. كلما حاولت نصحك .. حدثتنى بما لا أفهم .. وقلت لى كلاما من كلام الكتب ... حيرتنى ، حيرك اللّٰه .. واللّٰه لولا إحساسى بأنك سعيدة ، لما تركتك تندفعين فى هذا الطيش .. ولكنى أحبك .. وأكره أن أحرمك شيئا من السعادة .. إنى كلما حاولت منعك خوفا عليك ... قلت لنفسى .. دعيها تتمتع بيومها .. من يدرى

ما يأتى به الغد .. لعنة اللّه على ... لو حدث لك شىء .. أو أصابك أى ألم مما تفعلين فلن أغفر لنفسى قط .

وكنت أحب سيدة ، وكنت أعلم أنها لا تحب فى حياتها كلها شيئا أكثر مما تحبنى ، وكنت أعرف أن حبها لى هو السبب فى هذا القلق الذى تحسه من أجلى ، وقد تكون على حق فى قلقها .. ولكن أنى لى أن أرى هذا الحق وأنا أشعر أنى انطلقت من سجنى ، لأنعم ببضعة أيام من الحرية .

وسرت أتنقل من حجرة إلى حجرة وبى نشوة ... ولم أكن قط أكره جدى .. بل كنت أحبه جدا .. وكنت واثقة من حقيقة شعوره نحوى .. ولكن كنت أكره وسيلته فى الحياة وطريقته فى التفكير ولذلك وجدتنى أشعر بسعادة فياضة وأنا أجول فى البيت وحدى .... وأشعر أنى مسيطرة على البيت أستطيع أن أحيا طيلة يومى بالطريقة التى تحلو لى .

وكان أول ما على أن أفعل هو ؟ أن أجلس لأدبر اللقاء .. وبدت لى الدنيا أضيق مما أبتغى ...إنى أريد فردوسا .. لأقضى به معه هذه الأيام .

وأخيرا وبعد طول تفكير ومشاورة مع سيدة استقر الرأى على أن نلتقى على الشاطئ .. فقد كانت الوحدة مضمونة ، والفراغ تاما .. وكان الجو فى ذلك اليوم أميل إلى الحرارة .

وتسللت سيدة لتبلغ النبأ إلى مدبولى ... وقبيل الساعة الرابعة ركبنا العربة إلى سيدى بشر بعد أن زعمت سيدة للسائق والبواب أننا قاصدين إلى « الكابينة » لكى نحضر المظلة والمقاعد لإصلاحها استعدادا للصيف ، فقد أصرت سيدة على أن تحكم تدبير خطواتنا بحيث تستطيع أن تواجه بها الجد عند عودته إذا ما سأل إلى أين ذهبنا .

وفتحنا « الكابين » وكانت الرمال قد غطت معظم الشاطئ وتراكمت فوق أرض « الكبائن » وبدأ المكان صفصفا خاليا ... ويد الإهمال قد خطت آثارها في كل نواحيه ، والصدأ قد علا القفل الذى أغلق به الباب .

وجلست فوق المقعد الخشبى وأخذت سيدة تزيح الرمال من وراء الباب حتى تستطيع فتحه .. فقد صممت على أن تقوم بالعمل الذى جئنا من أجله .

وبدأت فى جلستى أشعر بلفح الريح .. وكانت قد أخذت تشتد وبدأ الجو يميل إلى البرودة ، وقذفت سيدة إلى بالصديرى الصوف الذى حملته معها لأنى رفضت أن أرتديه مكتفية « بالبلوزة » البيضاء الصيفى و « البنطلون » الكحلى ، وقالت لى فى لهجة الآمر :

ــ البسيه ولا تكونى عنيدة .. قلت لك عندما خرجنا إن الجو سيبرد .

ولم أرد أن أسلم بسهولة فقلت لها وأنا أضع « البلوفر » جانبا :

ــ لست أشعر بالبرد .

ــ يا حبيبتى ارتديه من أجلى ، إنك لا تحتملين البرد .. وشكلك فيه أجمل من ذلك القميص الذى يبديك كالولد .. البسيه وإلا رحلت بك حالا .

وكانت لسعة البرد قد اشتدت فتناولت البلوفر ودسست فيه ذراعى وشددته على صدرى .

وقالت سيدة :

ــ أغلقى الأزرار .. الزرار العلوى .

ــ لا لن أزرره .. لقد ضاق على .

ولم أكد أنتهى حتى سمعت وقع أقدام تطرق الأرض مقتربة من « الكابين » .. وبعد لحظة وجدته يقف أمامى وهو يحدق فى عينى فى شوق واضح ومددت يدى إليه متهللة وقلت له :

ــ تفضل .

ــ ألا نتمشى أفضل ؟

ونظر إلى سيدة التى انهمكت فى رص المقاعد وألقى عليها التحية :

ــ نهارك سعيد يا سيدة .

ــ نهارك سعيد يا سيدى .

ــ كيف الحال ؟

ــ الحمد لله .

ــ مدبولى يهديك السلام .

وضحكت سيدة قائلة :

ــ الله لا يسلمه .. ولا يكسبه .. ولا يربحه .. لست أدرى كيف تطيق عشرة هذا المخبول ؟

ــ إنه رجل طيب ؟

وجذبنى من يدى وسرنا على الشاطئ وصوت سيدة يقول منذرا :

ــ لا تغيبا .. نريد أن نعود إلى البيت قبل سقوط الظلام .

ونظرت إلى الشمس العنيدة .. العادية إذا مالت إلى الأفق .. فإذا بينها وبين الأفق مسافة طيبة .. فقلت لها :

ــ إن شاء الله .

وكعادتنا فى كل لقاء .. خيم علينا الصمت وتملكنا الشرود .. حتى وصلنا إلى صخرة نائية فى نهاية الشاطئ فأشار إلى مكان منبسط فى أقصاها أشبه بمقعد قائلا :

ــ أنجلس هناك ؟

ــ أجل .

وأمسك بيدى يعيننى على السير فوق نتوءات الصخرة حتى وصلنا إلى المنبسط .. فاتخذنا مجلسنا متجاورين .

ونظرت إلى الأفق البعيد والسحب المتلاحقة والأمواج المتتابعة .. والرشاش يتطاير من ارتطامها بالصخرة ... وملأت صدرى بريح البحر الباردة ... وأطلقته فى زفرة حملتها الكثير من حرارته .

وأحسست برجفة من برودة الريح فازددت التصاقا به .. ومد ذراعه فأحاطنى بها وضمنى إليه حتى أسندت رأسى إلى صدره .. وبت أحس بتردد أنفاسه ودقات قلبه .

ومد أصابعه يتخلل بها شعرى ويعبث بخصلته وهمس فى أذنى :

ـ لماذا ترتجفين ؟

ـ من البرد .

ـ فقط ؟

ـ والخوف .

ـ مم ؟

ـ من كل شيء .. من المستقبل .. والأيام .. والدنيا .. ومنك ومن نفسى .

ـ كل هذا تخشينه ؟

ـ أجل .. أخاف من المستقبل لأنة يتراءى أمامى غامضا مجهولا .. كهذا البحر البعيد المترامى أمامنا فى غير حدود .. دون أن نبصر ما وراءه .. ولا نعرف ما فى أغواره .. إنه قد يحمل الحياة كما يحمل الموت .. وأخشى الأيام .. لأنها أسرع فى السراء من القطاة وأبطأ فى الضراء من السلحفاة .. إذا ما حملت بالسعادة تسربت من أيدينا تسرب الماء من بين الأصابع .. وإذا حملت بالشقاء أطبقت على أنفاسنا كالحمل الثقيل .. وأخشى من الدنيا لأنها عندما تهب بحمق تأخذ بجنون .. وعندما تمنح بسفاهة .. تمنع بلؤم وخسة .

وصمتّ مطلقة تنهيدة أخرى .

وعاد يهمس :

ـ ومنى أنا ؟ ماذا تخشين ؟
ـ تبدلك .. وتحولك .
ـ ومن نفسك ؟
ـ أخشى مطامعها فيك .. كنت في أول الأمر أقنع بالحانك ... فبت الآن أطمع فى كل شيء فيك .. كنت أقنع بمشاركة الناس فيك .. والآن .. أفزع من أن يشاركني فيك أحد .

وضمني إليه أكثر ، ورفع ذقني بيده ، وقال وهو ينظر إلى عيني :
ـ لا تخشى شيئا ... لا تخشى الأيام .. ولا المستقبل ولا الدنيا .. ولا تخشيني ولا تخشى نفسك .. لأني لك .. وسأبقى لك فى كل حين .. وما دمت معك ... فسنقهر الزمن والدنيا ... وكل شيء .
ـ ولكنك لن تكون معى دائما !
ـ بل سأكون .
ـ إن اللقاء بيننا كما ترى عسير .. وسيزداد بعد ذلك عسرا .
ـ بل سيزداد يسرا .

ونظرت إليه وتساءلت فى دهشة :
ـ كيف ؟
ـ لأنه سيكون من حقى أن أراك ... وسيكون من حقنا أن نتقابل أمام الناس .. بدل هذا اللقاء المختلس .

وأحسست بضربات قلبي تشتد ... وأدركت بوحي مشاعرى إذا لم يخذلني الإحساس ـ أنه يوشك أن يلقى إلى بشيء خطير .. عجيب .

وقلت أستحثه فى صوت لا يكاد يخرج من شفتي :
ـ لست أفهم ما تعنى .
ـ أعنى أنى .. سأتقدم لخطبتك .
ـ تخطبني ؟!!!

وأحسست أنى ألهث .. لقد كان هذا أكثر مما أحتمل .

أحقا يمكن أن نصبح خطيبين ؟ وتملكتنى نشوة أفقت منها على صوته:
ـ مالك تدهشين هكذا ! أهى مسألة عجيبة ؟
ـ لا .. لا .. ولكنها مفاجأة .
ـ لم أكن أظنها أبدا مفأجاة. كنت أظنك تتوقعينها . إنى سأتقدم لجدك .. ساعة عودته .
جدى ؟!! لقد نسيته تماما .. لقد خيل إلىّ وأنا فى تمام فرحتى أنه سيخطبنى من نفسى ، وأننا سنتزوج ونرحل معا فى لحظة دون أن يعرف أحد .
جدى ؟! أهذا معقول ؟.أمعقول أن يقبل جدى خطبته ؟ أمعقول أن يزوجنى الى من يعتبر فى عرفه ـ حتى الآن ـ مجرد آلاتى ؟!
أيمكن أن يقبل جدى زواجى من آخر إنسان يفكر فى قبوله !!
ولم يكن إبراهيم يتوقع منى ذلك الوجوم والإطراق . فأخذ يتحسس شعرى ويقول فى رفق :
ـ راجية ؟ ماذا بك ؟ أساءك حديثى ؟
ـ ساءنى ؟ ما أظننى كنت فى حياتى أسعد منى الآن .. إنى سعيدة جدا بما قلت .. ولكن ..
وترددت برهة .. وعاد هو يستحثنى بقوله :
ـ ولكن ماذا ؟
ـ هناك عقبات .
ـ أية عقبات ؟
ـ إنى أقصد .. أن المسألة ليست بالسهولة التى تظنها .
ـ ولماذا ؟.. حدثينى بصراحة ؟
ـ أظن جدى لن يوافق .. إنه يريد أن يزوجنى من عبد الرحمن .
ـ أتعنين أنك مخطوبة ؟
ـ لا .. لست مخطوبة تماما .

ــ انتهينا إذا .. ما دمت أنت راضية .

ــ أنا بالطبع راضية .. ولكن الرأى ليس لى وحدى .. إنى أستطيع أيضا أن أقاوم وأن أصر .. ولكن لست أدرى إلى أى وقت وإلى أى مدى .. وكيف يمكن أن تقابل مقاومتى لهم ومعارضتى لإرادتهم .

ــ اسمعى يا راجية ... ما دام كل منا مؤمنا بصاحبه وواثقا منه . فكل شيء يمكن تذليله ... دعى الأمر لى .. إنى أعتقد أنى أستطيع إقناع جدك .

وكنت واثقة أنه آخر من يستطيع إقناع جدى ... وأكاد أعرف سلفا كيف يقابل طلبه إذا ما عرف حقيقة مهنته .. وبرغم أنى كنت أكره أن أولمه ، وجدت من واجبى أن أحذره حتى لا يصدمه رأى جدى .

وقلت له وأنا كارهة حديثه :

ــ أنت لا تعرف جدى كما أعرفه .. إنه مخلوق مادى جاف .. لا يعرف غير الحسابات والأرقام والأراضى والسندات .. ولا يعترف أبدا بأى نوع من أنواع الفنون ، بل هو كثيرا مايضيق بالموسيقى .. ويأمرنى بالكف عن هذه « الدوشة » . ولست أظنه قد سمع موسيقى منذ أيام الحمولى والمنيلاوى ... وهو يعتبر الموسيقيين جميعا « مجرد آلاتية » .. وهو يعتقد أن من واجبه أن يحافظ علىّ ويضمن لى مستقبلى .

وصمت .. وعجبت بعد أن قلت هذا . كيف جرؤت على قوله .. أيمكن أن أقابل خطبة إبراهيم لى بهذا الرد ؟! أبعد أن تزول كل العقبات التى توقعتها سيدة ... وأجده خاليا بلا زوجة ولا خطيبة ولا حبيبة إلا أنا .. أن أصده بمثل هذا القول ؟

ومع ذلك فقد كنت أشعر أنى أديت واجبى ... وأنى مهدت الطريق فى نفسه لقبول الصدمة .

ولكن هبه تراجع !!

وأحسست بخوف شديد ... وكأنى طعنت نفسى .. لماذا لا أجعله يحاول .. ما دام مؤمنا بنفسه ، واثقا من قدره ؟! لماذا أبعث اليأس فـى نفسه وأحطم إيمانه وإرادته ؟

وأصابنى الندم .. ولكنه لم يطل .. فقد جاء رده على قولى قويا مليئا بالثقة .. مزيلا لكل خوف .. مضيعا لكل ندم .

وقال وهو يمسك يدى ويرفعها إلى شفتيه فى شبه تعبد :

ـ إنى لن أحاول أن أقنع جدك بفائدة الموسيقى وتأثيرهـا ... ليكـن لـه رأيـه فـى شئون الحيـاة .. ولكنـى سـأقنعه بـأنى أحبـك .. وبـأن مستقبلك الذى يريد ضمانه .. أنا أكثر منه حرصا على ضمانه .. وأكثر منه حرصا على إسعادك وهنائك ... سأقنعه أن حبى لك أقوى من حبـه لك .. لأن حبه لك مبعثـه عشـرة السـنين الطويلـة .. أمـا أنـا فـأحببتك أضعاف حبه من لقاءين فى بضعة أيام ... سأقنعه أنى أريدك أنـت . إن ما بى ليست نشوة طارئة ، بل إحساس عميق بأننا شطران .. أو صنـوان .. وما دامت المسألة كلها ، قائمة على إسعادك .. فأظننى الغانم لأنـى أقدر الناس على ذلك .. وأنت نفسك الحكم فى هذا ... أنا واثـق أنـى أستطيع حمله على الخضوع .. وإذا لم يخضع .. فسأختطفك وأهـرب بك بعيدا .. كل ما أريده منك هو إيمانك بى وثقتك فى حبى .

ولم أدر ما أقول له .. لقد ملأنى إيمانا عجيبا وثقة لا حد لها .

كنت فى جلستى بجواره .. ورأسى علـى كتفـه .. وأنفاسـه تلهـب يدى .. أشعر أنى أستطيع من أجله أن أقهر قوى القدر .

الفصل الثامن

المعركة تبدأ

لم تطل غيبة جدى إذ لم يمكث فى القاهرة أكثر من يومين .. عاد فى ثالثها .. ولم أضق بعودته ... فقد أحدث قول إبراهيم فى نفسى تطورا كبيرا ، وملأنى رغبة فى خوض المعركة والتحدى والانتصار ... وأزال من نفسى ذلك الاستسلام لقضائى والخضوع لمصيرى الذى أساق إليه سوق النعاج .

لقد بدد برغبته وإصراره .. حالة العجز التى كانت تقصر مطالبى على الأوهام والأحلام ، والتى كانت تتركنى أقنع بجلسة فى الشرفة وشرود فى السماء وتحليق بين النجوم وتعزية لنفسى عن مرارة الحقائق بحلاوة الأمانى .

لقد أذاب إيمانه ثلوج اليأس والخوف والعجز ، وجعلنى أجرؤ على التفكير فى حقى فى الحياة الواقعية .. لا فى حياة الأفكار .

لقد وهب لى الشجاعة مرتين : الأولى عندما سألنى أن أحبه .. هو .. كما هو .. الكائن البسيط .. بلا عبقرية ، ولا ألحان ولا نبوغ .. إذ جعلنى أحس قدرة علىالاستحواذ عليه وعلى الاستئثار به ، والمرة الثانية عندما أكد لى أنه لن تحول بيننا قوة ، فقد ملأنى جرأة على العقبات وتحديا للموانع .

وهكذا لم أضق بعودة جدى السريعة .. فقد كنت أنتظره والقفاز فى يدى ، وكنت أتعجل المعركة ... حتى أصل إلى نهايتها ، ويصبح ذلك الشىء الذى تخيلته فى أول الأمر حلما .. ثم أصبح مع الأيام متعة مختلسة .. يصبح حقا لى .. أستطيع امتلاكه أمام الملأ ... بلا خوف ولا خشية .

ألا يستحق ذلك أن أخوض من أجله المعركة ... وأتعجل النهاية ؟

وكان على إبراهيم أن يعلن القتال ، وأن يبدأ الحولة الأولى .. أما الجولة الثانية ، والأخيرة ... فقد قررت أن تكون من نصيبى ، وكان الاتفاق قد تم على أن أرسل إليه سيدة بمجرد حضور جدى ، ولم يكد يستريح جدى من عناء السفر .. حتى أرسلتها إليه ، ولم تمض فترة قصيرة حتى أرسل هو بطاقة مع مدبولى يستأذن فى الزيارة .

وكنت أجلس مع جدى عندما وصلت البطاقة .. وكنت أرقب التعبيرات التى ترسم على وجهه جيدا .. فقد كنت أعتبر فيها .. تقريرا لمصيرى ، ولم يكن وقع البطاقة مبشرا بخير فقد وجدته يقلب شفتيه فى شبه ازدراء ويتساءل قائلا :

ــ إبراهيم محسن .. موسيقار ... يعنى إيه موسيقار ؟! « مزيكاتى » وإلا .. آلاتى .. أقد باتت هذه وظيفة توضع على البطاقات ؟!

ثم التفت إلى « سيدة » التى أحضرت البطاقة من مدبولى وتساءل :

ــ ماذا يريد منى ؟!

ــ أظنه يريد زيارتك .

ــ زيارتى أنا ؟ لعله يريد حسنة .. أهذه آخر طرق التسول ؟! تسول بالبطاقات ؟

وأحسست بالدم يرتفع إلى وجهى وتملكنى ضيق شديد وهممت بأن أجيب عليه ، ولكن « سيدة » كانت ترقبنى جيدا وكانت نظرة منها كافية لأن تجعلنى أتمالك أعصابى .

هذه فاتحة لا تبشر بخير .

وقذف جدى بالبطاقة وصاح فى ضيق :

ــ لا أريد أن أقابل أحدا .. قولى له إنى نائم .. أو إنى خرجت

قولى له أى شىء ، اصرفيه بالتى هى أحسن .

ونظرت إليه « سيدة » وقالت له فى هدوء :

ـ يا سيدى هذا جارك .. رجل محترم ، وهو يريد زيارتك .. أتصر بعد هذا على أنه يطلب حسنة ؟

ـ جارى ؟

ثم صاح فجأة كأنه قد تذكر :

ـ آه .. هذا المخلوق المزعج .. الذى يسكن فى بيت الدكتور زكى والذى لا يكف عن إزعاجنا لحظة .. ماذا يريد من زيارتى ؟!.

وأجابت سيدة فى هدوء الصبور الهادئة :

ـ وماذا يريد الناس من زيارة جيرانهم ؟ لعله يود التشرف بمعرفتك ، وقد أرسل خادمه يستأذن فى الزيارة . رجل كله ذوق .

وكأنما تأثر جدى بهدوء سيدة وندم على اندفاعه وتسرعه ... فقد قال فى لهجة أقل حنقا وخشونة :

ـ قولى له يتفضل .

ونهضت أنا تاركة الحجرة .. ذاهبة إلى حجرتى ، وكنت فى حالة اضطراب شديد .. كمتهم يوشك أن يتلقى حكما بالحياة أو الموت .

وجلست على حافة الفراش وقد تضاعفت أشجانى ، وفقدت كل رغبة فى الكفاح والتحدى والنضال ، ووجدتنى برغمى أقرأ الفاتحة ، وكل ما وعيته من القرآن ، وأدعو الله أن يحقق كل أملى ولا يخيب رجائى .

وناديت سيدة لتجلس بجوارى أستعين بها على الموقف العصيب ، وقبل أن تأتى سمعت الجرس يدق والخادم يفتح الباب ويقول « تفضل » . ثم سمعت وقع أقدام إبراهيم تتقدم إلى حجرة الاستقبال .

ودخلت سيدة فرأت اضطرابى ، ونظرت إلىّ وحاولت أن تبعث فىّ الطمأنينة بقولها :

- ما بالك تلهثين هكذا ؟! استريحى ، وتوكلى على اللّه . إن الخير فيما يختاره اللّه .

وقلت لها وأنفاسي تتلاحق كالمصدور أو العادى في سباق :

- إنى خائفة .

- مم تخافين ؟ إن المقادير بيد اللّه ... إذا كان إبراهيم من نصيبك فلن يستطيع جدك ولا غيره من المخلوقات أن يفرق بينكما ... إن جدك لا يملك برفضه أن يحول دون إرادة اللّه ، فإياك أن يصدمك رفضه .

وأدركت أن سيدة تحاول بقولها التمهيد للصدمة حتى لا يكون وقعها المفاجئ أليما .

وأخذت تردد حديثها عن القسمة والنصيب والمقادير لا يملكها إلا اللّه ، وعن وجوب توقعى كل الاحتمالات ، وعدم اكتراثى لرفض جدى .

وقلت في حنق وقد ضقت بأقوالها :

- أنا لا يهمنى الرفض .. إن كل ما أخشاه الآن هو أن يسىء إليه جدى .. فلا يحسن استقباله .. أو يعامله بطريقته الجافة .. إن الذنب ذنبى .. كان يجب ألا أعرضه لمثل هذه التجربة التى أعرف نتيجتها سلفا .. أجل ... كان يجب ألا اتركه يضع نفسه في هذا المأزق ، إن جدى لا يعرف قدره . ألم تسمعى قوله عنه إنه « مزيكاتى » !! إنه كان يرفض مجرد استقباله ، فما بالك إذا علم أنه قد أتى لخطبتى ؟!

وهكذا نسيت في أزمتى وضعفى ..كل ما دفعه في نفسى من قوة وإيمان ، ولم أعد أرى لى حقا يستوجب الكفاح بل أضحى كل ما أتمناه هو أن أجنب إبراهيم مرارة الخذلان وأن أعدو إلى حجرة الاستقبال فأسأله أن يعود من حيث أتى ، وألا نفكر في الخطبة مرة أخرى .. أن نقنع بأحلام الدجى ، واللقاء المختلس .

وسمعت وقع أقدام جدى تهبط السلم بعد أن ارتدى ملابسه ، وهممت بأن أعدو إليه لأعرفه بمن يكون زائرنا وأبين له قدره ..

وأوضح قيمته .. وأقول له إنه مخلوق نسيج وحده .. وأن الأرض قد تنجب الكثيرين ممن يجيدون الحساب ويحسنون استثمار المال ، ولكنها لا تهب لنا العباقرة إلا بقدر محدود ، ولأقول له .. إذا كان ينوى خذلانه فليترفق به وليحسن رده ويجمل لقاءه ويحترم قدره .

قلت هذا لنفسي لأفرج عنها .. وانتهى وقع الأقدام ودخل جدى حجرة الاستقبال وأنا منكمشة على طرف فراشي .. لا أملك من القدرة على الحركة إلا الارتجاف كريشة في مهب الرياح .

ورفعت رأسي إلى سيدة وقلت متوسلة :

ــ انزلي يا سيدة لعلك تسمعين شيئا .

وربتت سيدة ظهرى وقالت فى حنان :

ــ هدئى روعك ، واستريحى قليلا .. تمددى فوق الفراش ، وسأنبئك بكل ما يحدث ...سأكمن وراء باب حجرة السفرة ، وسأسمع حديثهما .

وغادرتنى وهبطت إلى أسفل .. وجلست وحدى .. وكأنى أجلس كما يقولون على جمر الغضا أو شوك القتاد ، ونهضت من الفراش وقطعت الحجرة عدة مرات جيئة وذهابا .. ثم جلست ثانية وتمددت ، وقضمت أظافرى ومزقت منديلي . وهززت ركبتي ، وفعلت كل ما يمكن من حركات القلق والحيرة والانتظار .. حتى خلت أن دهرا قد مضى ، وأخيرا نظرت في الساعة فإذا العقرب لم يتحرك أكثر من عشر دقائق .

وغادرت الغرفة نافذة الصبر ، وخرجت إلى « الصالة » ووقفت على طرف السلم .. عندما أبصرت سيدة تهرول فى « الصالة » السفلى ثم تختفى فى « بئر السلم » وسمعت وقع أقدام تطرق أرض « الصالة » متجهة إلى الباب الخارجى فأسرعت بالاختفاء .. ووصل إلى صوت جدى يقول :

ــ مع السلامة .

وعدت مسرعة إلى غرفتى .

ومرة أخرى جلست ألهث على طرف الفراش .. وانتظرت أن تصعد سيدة ، ولكن غيابها طال ، أو هكذا خيل إلىّ من فرط قلقى وضيقى ، وأخيرا صحت أناديها ، وأتى إلىّ صوتها من أسفل قائلة إنها قادمة .

وأقبلت ، ولم يصعب على أن أعرف من وجهها ما حدث ، ولكننى أردت أن أسمع منها التفاصيل .

قلت فى غضب مكتوم :

ــ ماذا حدث ؟!

ــ لا شىء .. حدث ما كنا نتوقع .. إنها إرادة اللّه . يجب أن ..

ولم يكن لدى صبر لسماع حكمها ونصائحها فصحت بها فى حدة :

ــ قولى لى ما حدث كلمة كلمة .

ــ صبرك يا سيدتى .. أهدئى .. أولا .

ــ أنا هادئة .. قولى ما حدث ؟

ــ لقد سلم عليه جدك وقدم إليه القهوة .. وأؤكد لك أنه لم يحاول قط أن يقلل من شأنه ، وتحدثا برهة عن هدوء السيوف ... وعن تحسن الجو .. واستطاع إبراهيم أن يستميل إليه جدك بلباقته ، وجرى الحديث بينهما سهلا هادئا بلا تكلف .. حتى بدأ إبراهيم يطرق الموضوع .. ولم يستطع جدك أن يفهم تلميحه .. فقد كان ذهنه أبعد ما يكون عن تصور مجىء إبراهيم لهذا الغرض ، وأخيرا لم ير بدا من الإفصاح ، وهنا ... فغر جدك فاه ، ورفع حاجبيه وقال فى دهشة :

ــ تريد من ؟.

وأجاب إبراهيم فى هدوء وثقة :

ــ راجية .

ــ راجية ؟.. أرأيتها ؟

ــ أجل .. لمحتها بضع مرات فى الشرفة .

ــ وتتقدم لخطبتها بمثل هذه السرعة .. من مجرد لمحها فى الشرفة ؟!

ولم يجبه إبراهيم فى الحال .. بل تفرس فى وجهه برهة ليعرف ماذا يقصد بقوله .. وأخيرا أجابه فى تؤدة :

ــ إنى لا أقدم على عمل إلا بوحى من إحساسى ... ولم يخطئ بى إحساسى مرة واحدة .

وأطرق الجد رأسه مرة ثم تلفت حوله كأنما يخشى أن يسمعه أحد قال :

ــ اسمع يا بنى .. خذها نصيحة منى .. مرة أخرى عندما تحاول الزواج ... لا تقدم عليه بمثل هذا التسرع .. إن الزواج ليس لعبا .. يجب أن تتروى جدا ، وتسأل جيدا .. أما أن تبت فى المسألة بمجرد لمحة فى الشرفة فهذا فعل أقل ما يوصف به أنه تسرع وطيش ، وعلى أية حال هذه مسألة خاصة بك أنت .. أما بالنسبة لى فإنى أخبرك أن الفتاة التى تتقدم لخطبتها .. مخطوبة فعلا ، ولكى أكون معك أكثر صراحة .. وأرجو ألا تؤاخذنى .. فإنى أحدثك حديث رجل لرجل ... إنى ما كنت لأعطيها لك لو لم تكن مخطوبة .. أنت كما تقول موسيقار ، وأنا لا أعتبر الموسيقى عملا .

وكنت أتوقع من إبراهيم أن يغضب ، أو على الأقل يتجهم .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث ... بل أجاب بهدوء وقد ارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيه .

ــ يبدو لى أنه من الخير .. أن أكون أنا أيضا أكثر صراحة فى الحديث .. لكى أشرح لك المسألة .

ولكن جدك أسكته بإشارة من يده وقاطعه بقوله :

ــ أرجوك .. لست أريد شرحا .. ولا مناقشة .. لقد أنهيت الموضوع بقولى .. ولست أريد أن أسمع فيه كلمة واحدة .. بل أرجو ــ أكثر من هذا ــ أن تتناسى أنت الموضوع .. وتعتبره كأن لم يكن ..

أرجوك .. دع جيرتك لنا تمر على خير .. وإذا كان لديك موضوع آخر للحديث فإني على استعداد لسماعه .

ولكن إبراهيم نهض واقفا .. فنهض جدك وصافح كل منهما الآخر ورافقه إلى الباب .. هذا كل ما ما حدث كلمة .. كلمة .

وانتهى حديث « سيدة » . ولست أظنني كنت أتوقع خيرا من هذا .. بل لقد كنت أحاول أن أوطن نفسي على أسوأ منه .

ومع ذلك فقد تملكني غضب أخذ يغلي في صدري كما يغلي الماء في مرجل مغلق .. وكانت « سيدة » دائما تتهمني بأني « صفراوية ، كتوم للغضب .. ولكني في ذلك الحين كان ما بي أشد من أن استطيع كتمانه .

لقد بدد اليأس خوري واستكانتي ... وأضاع الغضب ذلك الاستسلام الذي ملأني .. المعركة دائرة .. والنتيجة لم تستبن بعد .

كنت أفضل الانسحاب إلى عالم الأوهام .. رغبة في أن أقي إبراهيم مرارة الهزيمة ... أما وقد وقعت الهزيمة ، وفاضت المرارة .. فما عدت أهتم بشيء ، أو أخشى شيئا ، يجب أن أفي بوعدي .وأن آخذ دوري في المعركة .. أجل . يجب أن أبدأ الجولة الثانية .

ووجدتني أنفجر في وجه « سيدة » صائحة :

ـ من قال إني مخطوبة .. أنا لا أخطب برغم أنفي .

وذهلت « سيدة » من تهوري ومن صياحي وأسرعت بإغلاق الباب وعادت إليّ محاولة تهدئتي :

ـ لا تصيحي هكذا وإلا سمعك جدك .

وصحت بصوت أعلى :

ـ أنا أريد أن يسمعني ... إني لست « جارية » عنده .. إذا كان يحاول فرض سيطرته .. مقابل صرفه علي ، فلن أبقى في البيت دقيقة واحدة .

ـ لا تكوني « مجنونة » .. إنك ابنته .

- لست ابنة أحد ... إنى حرة أقرر مصيرى ... كفاه استعبادا لى .. ألا يكفى خضوعى لحياته الجافة الخامدة فى كل ما مضى من حياتى .. حتى يحاول التحكم فى مستقبلى ؟! ألا يكفى أن يفرض علىّ ما يريد من ملبس ومأكل .. وأن يتدخل فى كل حركاتى وسكناتى .. حتى يحاول أن يفرض على شريك الحياة .. هذا ظلم .. هذا استعباد .. إنى أكرهه .. أكرهه ...

وكنت فى حالة من الهياج والثورة لم تعهدها « سيدة » .. حتى لقد اصفر وجهها وأخذت تلهث وهى تمسك بيدى تحاول أن تجلسنى على المقعد وهى تقول مضطربة خائفة :

- بسم اللّه الرحمن الرحيم .. ماذا حدث لك يا راجية ؟ لم يا رب هذا ؟! لقد كنت دائمة هادئة وعاقلة ... اجلسى يا سيدتى .. كل شىء يحل بإذن اللّه .. ولكنه ليس بمثل هذا الغضب ... بل الصبر .

ووجدتنى أصيح بها فى غضب أشد :

- لا .. لن أصبر ... ليس لأحد أن يتحكم فى مصيرى .. إنه مصيرى وحدى .

- حاضر ... كما تشائين .. ولكن أخفضى صوتك .. لئلا يسمعك جدك .

وفجأة فتح الباب وبدا جدى وقد علت وجهه علائم الدهشة وصاح متسائلا :

- ما هذا الصياح ؟ ماذا حدث ؟!

وفزعت « سيدة » من صيحته وحاولت أن تنقذ الموقف قدر استطاعتها فأجابت :

- لقد أصاب سيدتى راجية مغص .

ونظر إلى جدى وما زال الغضب والدهشة تعلوان وجهه وكأنه يطلب منى تفسيرا ... أو تأكيدا .. وأحسست بشىء من الخور

يتملكنى ، وأنا أقف أمامه وجها لوجه .. وكدت أتراجع فأصدق على قول « سيدة » وأتهاوى على الفراش مدعية المرض .. ولكننى تذكرت إبراهيم .. وتذكرت ما أصابه من مهانة فى سبيلى ... أنا التى لا أستحق قلامة ظفره .. وغلى الدم فى عروقى ... وفار الغضب فى صدرى ، فصحت متفجرة بلا وعى :

– لا ... ليس عندى مغص .

وزادت دهشة جدى ... وحار بصره بينى وبين « سيدة » محاولا أن يفهم حقيقة الأمر .. ولكن « سيدة » لم تجد ما تقول .. بعد أن أفلت الأمر من يدها ووجدت أنى قد ركبت رأسى ، وعزمت على ألا أتراجع .

ووقفت انظر إلى جدى متنمرة وأوجه إليه نظرات ملتهبة كأنى على وشك أن أنقض عليه .

وعاد هو يسأل فى ذهول :

– ما بك ؟! تكلمى .

ولم أكن فى حالة تمكننى من التفكير وصياغة الحديث أو ترتيب القول .. بل كانت الألفاظ تندفع من شفتى كالطلقات .

قلت صائحة .

– أنا لست مخطوبة .

وزادت دهشة جدى .. واندفع هو الآخر يصيح فى غضب :

– أمجنونة أنت ؟! ما هذا الذى تقولينه ؟!

واندفعت فى هجومى .. غير واعية ما أقول :

– أنا لست مخطوبة .. ولا يمكن أن أخطب برغم أنفى .. أنا لست جارية فى سوق عبيدك تمنحنى لمن تشاء .. وتمنعنى عمن تشاء .. إن لى رأيا فى مصيرى ... بل إن رأيى هو الأول ... أنا لست مجنونة ولا صغيرة .. حتى تتصرف فىّ بغير إرادتى .. وتختار لى ما تشتهى . أنا التى ستتزوج ولست أنت .. إذا كنت تكره الموسيقى فإنى أحبها ..

وأفضلها على كل أموالك .. وإذا كنت تعتبر الموسيقار عاطلا فإنى أراه سيد الناس .

وكانت الدهشة تزداد بجدى وأنا مندفعة فى صياحى إذ لم يدرك سر الموقف حتى بدأت أتلفظ بالجملة الأخيرة ... وبدأت الدهشة تزول لتحل محلها غضبة شديدة .

ولم يجبنى بصياح كصياحى ، بل تمالك أعصابه وأجاب فى سخرية :

ـ هكذا !! إذاً فالمسالة مبيته .. والموضوع متفق عليه .. والعلاقة ليست مجرد لمحة من الشرفة ... ولكن الذنب ليس ذنبك .. إنه ذنبى أنا .. لأنى لم أعرف كيف أربيك . كان يجب ألا أترك لك هذه الحرية التى أفسدتك ، ولكن لا بأس .. كل شىء سيصلح .. وسأعرف كيف أعيدك إلى وعيك .

ثم ألقى إلى « سيدة» نظرة تهديد وأردف قائلا :

ـ وأنت سأعرف كيف أجعلك تحرصين عليها جيدا . كان يجب أن تمنعيها عن هذا العبث .. أو تبلغينى خبره .

ثم غادر الحجرة .. وأغلق الباب خلفه بشدة .. وأخذ وقع أقدامه يتباعد .. حتى اختفى .. وساد الغرفة سكون أشبه بسكون أرض المعركة بعد نهاية القتال .

وكما لا يشعر المقاتل بجروحه ورضوضه إلا بعد انتهاء المعركة .. بدأت أنا أشعر بمدى الجهد الذى بذلته من دمى ومن أعصابى .. فانهرت على الفراش واندفعت فى نوبة عنيفة من البكاء .

وبكت سيدة من أجلى .... ثم أقبلت على تحاول أن تكفكف من دمعى ، وتخفف من لوعتى ، وترفع كفها إلى السماء بين آونة وأخرى داعية اللّه أن يهدى جدى .. ويرقق قلبه .

ولكن جدى لم يهتد .. ولم يرق .. بل أمعن فى صرامته ، وبدأ يوقع الجزاء الذى ظن أنه سيقلعنى عن غيى ويكسر شوكتى ويهدينى

سواء السبيل ... فلم يقبل الليل حتى كان قد ضرب الحصار حولى ، فأغلق النوافذ المطلة على بيت إبراهيم ، وأصدر أوامره لى بتحريم الخروج إلى الشرفات أو النزول إلى الحديقة .. وألا أغادر الدار إلا فى صحبته .. معتقدا أن نوبة الطيش الطارئة لا تلبث أن تزول بمثل هذا القمع والتضييق .

وهكذا أضحت الصلة بإبراهيم متعذرة ، أو على الأصح مستحيلة .. لا أستطيع رؤيته أو الاتصال به ، ووجدتنى وحيده مهارة يائسة .. حتى الأمل المستمد من أمله قد انقطع ، والإيمان النابع من إيمانه قد نضب .. فقد خيل إلىّ أن اليأس قد أصابه .. وأن ثقته قد تبددت وعزيمته قد فلّت .

وآويت إلى مضجعى وقد تكاثرت الوساوس على ذهنى وكان أكثر ما روعنى خشيتى أن يكون قد خلفنى ورحل ، وأحسست كأنى أهوى فى بئر عميقة مظلمة لا قرار لها ، وأخفيت رأسى فى الوسادة أدفن فيها عبراتى ، وقد تملكنى من خاطرى حزن شديد ، وأحسست أنى بت فى محنتى وحيدة ، وأن الكل قد تخلى عنى .. حتى هو . الذى أمدنى بالثقة فيه والإيمان بحبه .. والذى كان يمكن أن يعيننى فى كفاحى من أجل حقنا فى الحياة قد خلفنى ورحل .

رحل ؟!... لا .. لا .. إنه لن يخلفنى وحيدة أبدا .. لن يتركنى .

وحاولت جهدى أن أدفع عنى الهواجس .. وهى تهجم على بلا رحمة ولا هوادة .

ما الذى يدعوه إلى البقاء ... بعد هذه الصدمة ؟! وإذا لم يكن قد رحل فهو لا شك راحل .. بعد أن يرى النوافذ المغلقة والقطيعة الجازمة المؤكدة .

لو أستطيع الاتصال به !! لو يعزف كما كان يعزف كل ليلة !! أو حتى لو أسمع منه همسة واحدة .. لو ...

وفجأة ، وجدتنى أرهف السمع ، وأخرج رأسى من تحت الوسادة وأنصت جيدا .

عجبا !! إنه هو .. أجل .. هو بعينيه .. يعزف لى ، إنه ينادينى بمقطوعته « راجية » .

وأخذت أنصت ، وأرهفت مشاعرى ، وشحذت قواى ، وركزت أعصابى فى أذنى .. وخيل إلى أن اللحن ينبعث خافتا من وراء النافذة المغلقة ، وأحسست أن اليأس قد تبدد ، وأن الإيمان قد عاد ، وأن الروح قد ردت .. وأنى بدأت أسترد أنفاسى ، لأعاود النضال .

وفيم أنا أرهف السمع لالتقاط الألحان الخافتة ... وجمع الأنغام الهامسة المتقطعة دخلت سيدة وهى تدفع الباب وتضىء الحجرة وتسألنى أن أنهض للعشاء فصحت بها وقد أغشى النور عينىّ وأطار صوتها اللحن من أذنىّ :

ـ أطفئى النور .. واذهبى .. إنى لن أتناول العشاء .

ولم تذهب « سيدة » بل جلست على الأرض بجوار الفراش تربت على كتفى .. تحاول أن تقنعنى بالصبر وترجونى أن أتناول ولو بعض الفاكهة التى أحضرتها لى .

ولم أكن أحس بقابلية للأكل أو النوم .. كانت أعصابى من فرط الجهد متوترة ، وكان كل ما أتلهف عليه هو مزيد من ذلك الصوت السارى من وراءة النافذة .

وصحت بها أن تسكت وتكف عن الثرثرة .. أو تتركنى وحدى .. حتى أنصت للحنى المحبوب .

وبدت على « سيدة » الدهشة وقالت متسائلة :

ـ تنصتين إلى ماذا ؟

ـ إلى « راجية » .. إنه يعزفها لي ، إنه يناديني بها .. ألا تسمعين؟!

وعاد الصوت ينبعث خافتا ، كأنه الهمس .

وانبسطت أساريرى ، وعدت أسمع فى إرهاف شديد وأنا أقول لسيدة :

ـ اسمعى .. إنه يعزف الآن .

وهزت « سيدة » رأسها فى دهشة وهى تتمتم قائلة :

ـ أنا لا أسمع شيئا .

ـ كيف لا تسمعين ؟ أنا أسمع جيدا .. أجل . أسمعه . أنصتى .

ولكن « سيدة » لم تسمع شيئا ؟!

كنت أنا الذى أسمع وحدى .

أم ترى اللحن كله كان وهما .. من صنع الأعصاب المتوترة والنفس المنهارة المحطمة ، وهم .. أو غير وهم .. إنه غذائى الوحيد .. إنه كل ما تبقى لى . لست أريد منهم شيئا ... سوى أن يدعونى وحيدة أستمع إليه .

وعدت أنصت إلى النغم .. أو أتصيده من عالم الوهم . وعاد الصوت ينبعث خافتا ، وعادت « سيدة » تربت ظهرى قائلة فى حنان :

ـ ألا تستريحين قليلا !! ألا تنامين !

وصحت بها فى ضيق :

ـ اصمتى .. لا تتحدثى .. إنك تضيعين الصوت .. اذهبى من هنا واتركينى وحدى .. لست أريد أحدا .

ونهضت « سيدة » ، وعدت أنصت .

وعاد اللحن ينبعث من وراء النافذة .

ولم أشعر بانقضاء الوقت .. بل لم اشعر بشىء أبدا .

وراقدة كما أنا .. مفتحة العين مرهفة الحس .. ألتقط همس الألحان التى أتصيدها من الهواء خافتة متقطعة .. بدأت أستقبل أول خيوط الفجر .. دون أن يجسر النوم على أن يراود جفنى .

وقبيل الفجر أحسست بالصوت يزداد خفوتا ، ولم تعد أعصابى المحطمة ولا سمعى المرهف .. تميزه ، إلا بجهد شاق وصعوبة شديدة ، وبدا لى كأنه صادر من آخر الأرض وخيل إلىّ أن فتحة يسيرة فى النافذة .. قد تمكنه من الوصول إلىّ واضح النغمات مميز النبرات ، ونهضت مترنحة أستند على الفراش . ودفعت النافذة دفعة هينة ، وجلست على الفراش أنصت .

ولكن الصوت انقطع تماما .

وأغلقت النافذة .. فعاد الصوت .. ينبعث خافتا .. متقطعا .. ورقدت على الفراش أجمع النبرات المتقطعة فى أذنى ... حتى فتح الباب ودلفت سيدة .

ونظرت إلىّ « سيدة » وقد بدا الارتياع على وجهها كأنها ترى شبحا.

وأقبلت على تضع كفها على جبينى وقالت فى حزن شديد :

ـ ما هذا الشحوب البادى عليك ؟ ألم تنامى ليلتك ؟

وهززت رأسى بالنفى .. إذ لم تكن بى أقل رغبة فى الحديث ولا الإنصات .

كنت أشعر بقواى خائرة .. وبجسدى محطما ، ورأسى يكاد ينفجر ، وكنت أحس بحاجة شديدة إلى النوم حتى أفر من تفكيرى وأوهامى وآلامى .. ولكن لا أكاد اغمض عينى حتى أحس بيقظة تامة ، وكانت حواسى ، ولا سيما مسامعى ، ترهف فى حدة ، كأنما تخشى أن يفر منها الصوت إذا ما غفت عنه .

وكان بنفسى عزوف عن الطعام .. فلم أذق مما حملته إلىّ سيدة شيئا ، ومر اليوم كالليل ، وأنا مرهفة السمع ، شاردة الذهن ، مفتحة العينين ... أتنقل من الفراش إلى المقعد ومن المقعد إلى الفراش .

وانتهى اليوم وسقطت الظلمة ، وأقبل على ليل ثقيل « كموج البحر أرخى سدوله » .. حتى بت من ثقله أهتف :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل
بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وأشرق فجر جديد ... دون أن يحمل إلىّ جديدا ، كنت كما أنا .. أتقلب على المرقد الجافى والمضجع النابى ، والسمع منى مرهف والجسد منهك محطم .

وقبيل الضحى أحسست فى البيت حركة غير طبيعية ، وسمعت صوتا غريبا ، وأقبلت على سيدة تنبئنى أن الطبيب قد أتى .

وصحت بها فى حدة :

ـ لست أريد طبيبا ... لا أريد أن يرانى أحد .

وأمسكت « سيدة » بيدى وقالت وعبراتها تسيل فى صمت على خديها :

ـ يا سيدتى ... ارحمى نفسك من أجلى ، ومن أجل شبابك .

ـ ارحمونى أنتم ، واتركونى ... إنى أبغضكم جميعا.

واندفعت فى نوبة بكاء .

وأخذت « سيدة » تكفكف دمعى وتربت جسدى قائلة :

ـ كفى يا سيدتى .. كفى .. ماذا يقول عنا الطبيب ؟

وأخيرا تمالكت نفسى ، ومسحت وجهى بمنشفة مبللة ، ورقدت أنتظر الطبيب .

وأقبل علىّ .. ووجدته كهلا تبدو عليه الطيبة وكان فى صحبته جدى وعبد الرحمن ، وكانت المرة الأولى التى أرى عبد الرحمن فيها

منذ أن رقدت ، وبدا لى أنه لم يكن لديه أقل فكرة عما حدث إذ كان قد قدم توا من القاهرة .

وتقدم إلىّ عبد الرحمن وقد بدت على ملامحه دلائل الانزعاج ، وأمسك يدى برفق وسألنى فى لهجة شفقة حنون :

ـ ما لك يا راجية ؟! ماذا بك ؟

ولم أجب بأكثر من « لا شىء » .

كنت أكرههم جميعا .. بل كنت أكره الحياة كلها .

وتنحى عبد الرحمن ليفسح الطريق للطبيب الذى أمسك بيدى وسألنى باسما :

ـ كيف الحال ؟! كفى الله الشر ! بماذا تشعرين ؟!

وهززت رأسى للدلالة على أنى لا أشعر بشىء .

وبدأ يجس النبض ويسأل :

ـ أظن ليس عندها حرارة ؟

وهزت « سيدة » رأسها قائلة :

ـ لم نقس الحرارة .. فحرارتها تبدو طبيعية .

ـ والهضم ؟

وعادت سيدة تجيب فى مرارة :

ـ أى هضم ؟ ماذا تهضم ؟ إذا كانت لا تأكل ؟ لقد مضت عليها ثلاثة أيام لم يدخل جوفها سوى فنجان شاى :

وكان جدى يبدو متجهما ، ولم يكن قد حاول الدخول إلىّ خلال الأيام الماضية ، وإن كانت « سيدة » أبلغتنى أنه يبدو حزينا غاضبا يثور لأقل سبب وأنه قد أضحى لا يحتمل .

وسمعته يتمتم قائلا :

ـ « دلع .. ومسخرة » ... عندما يقرصها الجوع ستضطر للأكل .

وأجابته « سيدة » بمثل تمتمته وكأنها تحدث نفسها :

ــ ألم يقرصها الجوع خلال ثلاثة أيام ؟ . لعلها جمل ! والنوم الذى لا يقرب جفونها .. أهو « دلع » أيضا ؟

ثم أشاحت بوجهها .

وأخرج الطبيب السماعة .. وجذب مقعدا جلس عليه بجوارى .

ورأيت عبد الرحمن يغادر الحجرة ويغلق الباب خلفه .

وأنهى الطبيب فحصة الشكلى الذى لم يكن منه بد .. ثم قال وهو يضع السماعة فى حقيبتها ..

ــ كل شىء سليم والحمد لله .. وأعتقد أن أعصابك مرهفة قليلا .. سأكتب لك أقراصا تساعدك على النوم ، أكتب لك بعض الفيتامينات ، وسأمر عليك بعد أسبوع ، وإن شاء الله أراك سليمة ويكون كل شىء قد زال .

ثم أخذ فى تحرير التذكرة .. وسيدة تنظر إليه وإلى الجد فى غيظ مكبوت .

وأخيرا نهض الطبيب .. وربت يدى فى رفق قائلا :

ــ شدى حيلك .. لاداعى للوهم ، ليس بك شىء على الإطلاق .

وغادر الرجل الطيب الحجرة .. يتبعه جدى ، وكان عبد الرحمن يقف خارجها منتظرا .. فسلمه جدى تذكرة الطبيب قائلا :

ــ خذ العربة .. وأحضر هذة الأدوية من أقرب صيدلية .

ثم هبط جدى السلم مع الطبيب .

ورأيت « سيدة » تندفع خارج الحجرة .. وسمعتها تقول لعبد الرحمن بصبر نافد .. بعد أن فاض بها الغيظ :

ــ أية أدوية هذة التى ستحضرها ؟ أنخدع أنفسنا ؟ . أنترك الصبية تضيع « هدرا » ؟ حرام .. واللّه حرام .. إن ربنا لا يرضيه هذا

وسمعت صوت عبد الرحمن يسائلها فى دهشة :

ــ ما هذا الذى تقولينه ؟ ! كيف نخدع أنفسنا ؟

ولم تتمالك سيدة من الاندفاع فى البكاء وهى مستمرة فى قولها :

ــ حرام . حرام والله .

وعاد عبد الرحمن يسألها ناهرا وقد زادت به الدهشة :

ــ ما هذا الحرام ؟ ! « حرمت عليك عيشتك » .. تكلمى ؟! أفهمينى ؟

ــ ماذا أفهمك ؟! أهو شىء يحتاج إلى فهم ؟.. من قال إن المسائل تؤخذ هكذا بالقوة . أهو حكم قراقرش ؟!! أهى جارية لديه ؟

ــ لست أفهم شيئا أبدا مما تقولين .. فسرى الأمر لى .. أرجوك ...

ــ ألم يذكر لك سيدى الكبير شيئا ؟

ــ أبدا .. إنى لم أصل إلا قبل الدكتور بدقائق .. وكل ما أعلمه من جدى أن راجية مريضة ، وأنه قد أرسل فى طلب الدكتور ، وأنبأنى أنه عندما تشفى سنعلن الخطوبة ونلبس « الدبل » .

ــ هكذا ؟! حتى يأتى على بقيتها .. ويقضى عليها قضاء مبرما .

وتساءل عبد الرحمن فى دهش :

ــ يقضى على من ؟!

ــ على سيدتى راجية ... يا ناس اتقوا الله !! أكل هذا يفعله فى البنت .. يغلق عليها النوافذ ويحرم عليها الدخول والخروج .. كأنها سجينة .. حتى الحديقة يحرمها عليها ... ولم كل هذا .. أمن أجل أن تقدم لها خطيب ؟

ــ تقدم لها ماذا ؟

ــ خطيب .

ــ متى تقدم ؟. ومن يكون ؟

ــ جارنا الأستاذ إبراهيم .. تقدم أول أمس .

ــ عجيبة !! كيف تقدم ؟

ــ تقدم ككل الناس .

ـ أعنى ماذا دعاه إلى ذلك ؟

ـ رآها وأعجبته .

ـ وماذا قال جدى ؟

ـ ثار وفار .. وهاج وماج ... وقال إنها مخطوبة ... وإنها لو لم تكن مخطوبة ماقبل أن يعطيها له .. ثم صعد إليها .. وسود عيشها ..

ـ سود عيشها هى ؟ وما ذنبها ؟

ـ لأنها قالت إنها ليست مخطوبة .. وأنه ليس هنا من يستطيع أن يخطبها برغم أنفها .. إنها حرة تختار من تشاء .

ـ أهى قالت له هذا ؟

ـ أجل .. ومعها حق .

ـ ولكن أتعرف إبراهيم ؟! أرأته ؟! أبينهما شيء ؟!

ـ ربما .. من يدرى ؟.. أيسلم الإنسان ... وهبها قد أحبته .. أقد حرم الحب ؟! أليست بشرا لها قلب ولها شعور ؟! أنقتلها من أجل ذلك !! أم نعتبره قضاء الله .. فيها ... وفينا ... وعلينا أن ندبر الأمر بالتى هى أحسن !

ومضت فترة صمت سمعت صوت عبد الرحمن يقول كأنما يحدث نفسه :

ـ إذاً هذه هى المسألة .. هذا هو سبب المرض .. عجيب !

ثم سمعت صوت أقدامه تقترب من الحجرة ، ولكن « سيدة » اعترضت طريقه قائلة :

ـ إلى أين ؟!

ـ دعينى أحدثها .

ـ ماذا تريد أن تقول لها . اتركها وحدها أرجوك. كفى ما فعله بها جدك .

ـ لا تخشى شيئا .. إنى أعرف كيف أحدثها ..

ثم سمعت صوت أقدامه تقترب من باب الحجرة .

(فديتك يا ليلى)

الفصل التاسع

وجهة نظر

عبر عبد الرحمن الباب ووقف أمامي يبتسم في رفق ... ولم أرد على ابتسامته ... إذ لم أكن في حال يساعدني على الابتسام ... وكنت أحس له شعوراً بالعداء .. رغم أنه لم يشترك في المعركة .. إذ كنت أراه خصما بحكم مركزه .

وجلس عبد الرحمن على حافة الفراش وأمسك يدى بين يديه ولم يكن بى من القوة ما أحاول به نزعها ... فتركها في موضعها وقال لى في صوت رقيق يناديني باسم التدليل الذى تعود أن يناديني به منذ الصغر :

ـ ماذا بك يا روحة ؟! ماذا يضايقك ؟

ـ لا شيء .

ـ بل بك شيء .. حدثيني بصراحة ولا تخفى عنى شيئا .. أعتبريني عبد الرحمن أخاك .. قولى مابك ؟

ـ قلت لك ليس بى شيء ... أرجوك أن تدعني .. فإني متعبة لا أستطيع الحديث .

ـ إذاً فلأ تحدث ولأكن أنا أكثر صراحة .. أنت تعلمين يا راجية ... أننا نشأنا معا كأخوين ... وأن لك في نفسى موقع الأخت ، وإنى أكره كل ما يؤلمك أو يضايقك ، وإذا كنت قد صمت عن حديث جدك في خطبتنا صمت الموافقة .. فلم يكن صمتى هذا إلا لأن المسألة لا تعدو مجرد لغو لا يستحق الجدل .. لغو طبيعي يحدث في كل عائلة بها قريبان مثلك ومثلى ، ولست أعنى بذلك أنك لم تكونى في نظرى أهلا

لى ، بل إنى أراك دائما خير الفتيات وأصلح الزوجات .. ولكنى لم أفكر قط فى أن تكون المسألة قسرا ولا فرضا ... كنت أعتقد دائما أن الخطبة إذا تمت فلن تتم إلا برغبة مشتركة من كلينا ، وأن حرصك على إتمامها لن يقل عن حرصى ... ورضاءك عنها لن يقل عن رضائى .. أما أن تفرض عليك كما تقولين فرض الاستعباد وتقيدين بها قيد الأسر فهذا لم يخطر على بالى قط ، فليس بى نحوك ولَه يُعمى بصيرتى عن مصلحتك ولا حب يسمنى بطابع الأنانية ، وكل ما أحسه لك إعجاب بخلقك وتقدير لك وأنت تعلمين أن طريقتى فى الحياة دائما غير شاعرية أو هوجاء وأنى لا أتصرف فى أمر إلا بعد تفكير وروية .. وأنه إذا ما استعصى على أمر .. ففى غيره بديل عنه .. وأن حكمتى فى الحياة هى :

إذا لم تستطع شيئا فدعه   وجاوره إلى ما تستطيع

أقول لك هذا عن نفسى ، وأنا أكره الحديث عنها ... حتى أطمئنك من ناحيتى ... وأعتذر عن كل ما حدث مما لم يكن لى به دخل .. ولأؤكد لك أنى سأفتح لك الباب على مصراعيه وأفسح لك الطريق على سعته ، ولست أتخلى عنك من باب التضحية وإنكار الذات .. بل لأنى أحبك حب الأخت .. ولأنى لست أشعر بحاجة ملحة إلى الزواج .. وعندما أشعر أعتقد أن الذى خلقك لم يعجز عن خلق سواك ، أو كما قال المثل الإنجليزى « لم يزل فى البحر من السمك أكثر مما خرج منه » .

اضحكى الآن ... وأرينى أسنانك الحلوة ... ودعى عنك هذا التمارض أيتها الماكرة .

ووجدتنى .. على غير إرادة منى .. قد ضحكت .

وعاد يقول مازحا :

ـ أهكذا كنت عبئا ثقيلا عليك ؟! تخونك العشرة .. واللعب الذى لعبناه معا .

ولم أدر كيف أجيبه ، لقد فعل فىّ حديثه فعل السحر . لم أكن أتوقع منه كل هذا .. لا لأنى أعرفه أنانيا نهازا للفرص ، بل لأن الأحداث التى مرت بى وحطمتنى لم تدع لى بارقة أمل فى أحد ، وأضاعت ثقتى بالجميع .

وبرغم أن حديثه أدهشنى كمفاجأة لم أتوقعها .. أجده ـــ إذا حاولت استعادته لنفسى ـ لا يزيد على أنه خير معبر عن نفسه تمام التعبير ، وأن ذلك هو خلقه وتلك هى طبيعته وأن هذا هو التصرف الذى كان يتصرفه فى كل ما يصادفه من شئون الحياة .. وأننا ما تنازعنا فى صبانا على شىء إلا تركه لى بمنتهى السهولة والترحيب .

ونظرت إليه وقتذاك ... والدهشة ما زالت تعقد لسانى وكأنى غير مصدقة ما قال .. وهتفت به :

ـ أتقول حقا يا عبد الرحمن ؟

ـ ألا أقول حقا !! هذه أعتبرها إهانة .. منذ متى تعودت أن أكذب عليك ؟

ـ أنا متأسفة .. أنا أعرف أنك لا تكذب ، ولكن ما مر بى جعلنى محطمة الأعصاب .. لا أثق فى أحد ولا أصدق أحدا .. اعذرنى يا عبد الرحمن .. لأنى كرهتك برغمى ، وبرغمك .. كرهتك لأن جدى حاول أن يصنع منك قيدا يأسرنى به .

واندفعت فى نوبة من البكاء .

وأخذ عبد الرحمن يربت ظهرى فى رفق محاولا تهدئتى وهو يقول :

ـ أوتعلمين أنى أكون قيدا .. ولك أنت يا راجية ؟ خففى عنك .. ودعى البكاء جانبا .. انهضى من فراشك واضحكى ، وألق عنك الهم والتفكير .

وأخذت أصحك خلال العبرات التى لم تجف بعد .. وقلت لعبد الرحمن :

ـ كان يجب أن أثق بك أكثر من هذا ... ولكنى كنت أخشى أن تكون مصرا على الخطبة وأن تكون فى صف جدك .

ـ من الآن .. تأكدى أنى فى صفك .

ـ أجل ، ولكن .. جدى ؟

وخيمت على وجهى سحابة حزن .. وتساءل هو :

ـ ما له جدك ؟

ـ ماذا ستقول له ؟

ـ اتركيه لى .. أنا أعرف كيف أتفاهم معه .

ـ ولكن هبه لم يقتنع ؟

ـ يقتنع بماذا ؟ المسألة لا تحتاج إلى إقناع .. سأقول له فى يسر إنى قد صرفت عن الخطبة نظرا .. وأنى لا أريد الزواج منك .

ـ أو تظن أنه سيقبل قولك بسهولة ؟

ـ بسهولة أو بصعوبة .. ليس أمامه إلا قبوله .

ـ وهبه ثار .. وغضب .. وهددك بأقصى ما يمكن أن يهدد به .

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل .. مثل علاقته بك والاستغناء عنك ، وحرمانك إرثه ؟!

وضحك عبد الرحمن ... ضحك بشدة لم أتوقعها ، كأنما ألقيت إليه بنكتة مستملحة ثم قال بعد أن انتهى من ضحكه :

ـ الظاهر أنك حسنة النية .. ولكنك معذورة لأنك خالية الذهن من كل شئوننا .. ولست اظن أن هناك وقتا لكى أشرح لك كل شىء . ولكن لكى أثبت لك أنه لا يستطيع قطع علاقته بى ولا الاستغناء عنى ... أخبرك أنى عندما تسلمت أعماله .. كانت ثروته كلها بما فيها الأراضى موشكة أن تضيع ، وأنى فى بضعة الأعوام التى توليت

إدارتها .. زادت ثلاثة أمثالها .. ولست أزعم أني صاحب معجزات .. ولكني أؤكد أني فعلت له الكثير .. وأن الحظ ساعدني أكثر ، ومن هذا يتبين لك أنه لا يستطيع بسهولة أن يستغني عني .. أما مسألة حرماني الإرث فأنا لم أفكر في إرثه قط .. ولا طمعت في أمواله ، ولا أموال غيره ... أنا أحب الكفاح والعمل ، وطلبتي في الحياة هي أن أرقب ثمرة ما أكافح من أجله وأراه ينمو ، وأن أمسكه بيدى وأبصره بعيني .. تلك هي أقصى بغيتي في الحياة .. هي عندى كالموسيقى عندك .. أنا أكره اللقمة الجاهزة .. التي لم أتعب في تحصيلها ، وإرث جدك الذى سيورثني ويورثك أياه من صنع يدى . والذى قدرني على عمله يقدرني على عمل غيره ، وغيره .. لا تحملى لى هما .. أنا أعرف كيف أقنعه إذا احتاج الأمر إلى اقناع .

ونزل عليّ حديثه بردا وسلاما ، ولكن الذهن الذى لا يهجع عاد يخلق المصاعب ويبرز العقبات ووجدتني أطرق برأسي ثم أقول في صوت خافت ملؤه الحياء :

ـ ولكن .. هل تظنه يقبل الخطبة الثانية ؟

وأطرق عبد الرحمن برأسه وصمت ، وبدأت أحس بالندم على قولي .. ما له هو ولهذا حتى أقحمه فيه ؟! ألم يكفني أن فك عني القيد وأفسح الطريق ؟ وهممت بالاعتذار .. ولكني وجدته يرفع رأسه ويقول متسائلا :

ـ اسمعي يا راجية .. أتحبينه ؟

واندفع الدم إلى وجهي ، ولم أستطع أن أقول شيئا .

ولكني أومأت برأسي إيماءة خفيفة علامة الإيجاب .. وعاد يسأل :

ـ حب متئد رزين عميق .. غير طائش .. ولا مندفع .. أعني حبا يربط حياة اثنين وليس نزوة طارئه ؟!

ومرة أخرى أشرت برأسي وعيناى مثبتة في غطاء الفراش .

واسترسل هو فى أسئلته التى خلتها لن تنتهى :

ـ وهو ؟ أيحبك كما تحبينه ؟

وهو ؟ .. أأستطيع أن أكرر له مناجاته ؟! أأستطيع أن أتلو عليه آياته التى أحفظها عن ظهر قلب ؟! طبعا لا . إن كل ما استطعت أن أقوله هو :

ـ أظن ذلك .

ـ أتعتقدين أنه سيكون لك زوجا وفيا .. وأنه سيمنحك حياة طيبة ؟

وكان يتحدث بلهجة متئدة .. كأنه أحد القسس الذين يعقدون مواثيق الزواج كالذين رأيتهم فى « السينما » .

ومرة أخرى أومأت له برأسى .. نعم .

وانتهى الاستجواب ... ونهض عبد الرحمن وهو يقول :

ـ سأبذل كل جهدى ... وربنا يسهل .

وربت يدى ثم أدار ظهره مغادرا الحجرة ... وقبل أن يبلغ الباب نظر إلىّ وقال مبتسما :

ـ سأقوم بالمهمة بشرط ..

ـ سل ما تريد ؟

ـ أن تضحكى وتزيحى عنك ذلك العبء الذى ترزحين تحته .

ـ لقد أزحته أنت .

ـ إذا فانهضى . ودعى عنك ذلك النوم الذى يمرض السليم وسأذهب إلى حدك الساعة ؟

ونهضت من الفراش ، وقمت لأغتسل وقد تبدد اليأس من نفسى وحل مكانه أمل وليد .

ومرة أخرى جلست فى الحجرة على طرف الفراش وحيدة أتمتم بالفاتحة ، وببقية الآيات القرآنية التى أعرفها .. وأدعو اللّه ألا يخذلنى هذه المرة .

ومضى الوقت وبدأت أرقب عقرب « المنبه » وأعد دقاته وأخذ اليأس مرة ثانية يتسرب إلى قلبي .

أجل .. لو أن عبد الرحمن قد أفلح فى سعيه .. لما غاب عنى تلك المدة ولأقبل على يبشرنى بالنتيجة .

أنا أعرف جدى وأعرف عناده .. لا بد أنه قد نهره كما نهر إبراهيم ورفض الاستماع إليه أو مناقشته .

ولكن لماذا لم يصعد عبد الرحمن لينبئنى بالنتيجة أيا كانت ؟ لم يتركنى هكذا معلقة بين اليأس والرجاء ؟

أتراه قد خدعنى ؟!

ولكن لا .. ليس هو الذى يفعل ذلك .. إنى أعتقد أن جدى قد ثار عليه .

لعنة اللّه ..لقد ورطته كما ورطت إبراهيم .

أجل .. أنا السبب فى كل هذا .. كان يجب ألا استسلم للأمل من أول الأمر .

وطفقت العبرات تسيل صامتة من مقلتى .

ودفنت رأسى فى الوسادة .. عندما أحسست فجأة بالباب يدفع ، وبالوسادة ترفع من فوق رأسى . و « سيدة » تنحنى على وتضمنى إليها وتقبلنى وأنفاسها لاهثة متقطعة وهى تقول كأن بها مسا من جنون :

ــ مبروك يا ست راحية .. انهضى ..

ثم تركتنى فجأة .. ورفعت يدها إلى السماء :

ــ إلهى يخليك يا سيدى عبد الرحمن ... إلهى يسعدك ولا يريك سوءا فى حياتك أبدا .

ولم أتركها تسترسل فى دعواتها ... فقد كنت أعتقد أن باب السماء مفتوح فى أى وقت لتلقى الدعوات .. وأنه لا ضير على « سيدة » ولا

على « عبد الرحمن » ... إن هى أحلت دعواتها فترة ، أما أنا فستصيبنى جنة لو لم تعجل لى بالشرح .

قلت لها فى لهفة مجنونة :

ـ ماذا حدث يا سيدة ؟! أخبرينى ! تكلمى ! .

ـ صبرك علىّ يا سيدتى حتى التقط أنفاسى .

ولكن قبل أن تلتقط أنفاسها كان عبد الرحمن قد أقبل فى تؤدة ، وقد بدت على وجهه علائم لست أدرى كيف أصفها ولا إلى أى كفة أرجحها أهى فرح .. أم حزن .. أم خليط من هذا وذاك غلب عليه شعوره بالانتصار وبأنه أسدى إلى إنسان جميلا أزال به شقاءه ؟.

على أى حال لقد أقبل على فضمنى إليه ولثم جبينى وقال :

ـ الحمد للّه أن وفقنى إلى إسعادك ... كنت أودك لى ، ولكن لا بأس .. لقد حق على المثل « تكون فى بقك وتقسم لغيرك » ... وبيدى يا راجية .. لا بيد عمرو .

ورفعت عينى إليه ، وخيل إلىّ أنى قد طعنته من حيث لا أدرى ، قد عميت إلا عن نفسى ، وقلت له :

ـ أضايقتك يا عبد الرحمن ؟

ـ لا تكونى مجنونة ، يكفينى هذه السعادة التى أنت فيها ، ويكفينى أنى خلصت عن نفسى قبدا كنت أوشك أن أضع يدى فيه .. أنا أحب الحرية وأحب العمل والكفاح .

ووقع بصره على النافذة المغلقة .. فمد يده وفتح مزلاجها ودفعها دفعة فتحتها على مصراعيها وقال :

ـ انتهينا .. لا قيود بعد اليوم ... لقد فك الحصار .

وكنت فى لهفة شديدة لأن أسمع من فمه التفاصيل فقلت له :

ـ اجلس ... وقل لى كل ما حدث .

ـ كل ما حدث ... تستطيع قصه عليك هذه « الحيوانة » التى كانت تسترق السمع من وراء الباب ، والتى لولا انهماكى فى الحديث وخشيتى من أن أضيع المسألة ... لقمت وحطمت رأسها .. قولى لها يا سيدة ما حدث .. أظنك تعرفينه أكثر منى ؟!

ورفعت سيدة يديها إلى أعلى وعادت تواصل دعواتها :

ـ إلهى يسعدك يا سيدى عبد الرحمن ، إلهى يخليك .

وعاد عبد الرحمن يقول :

ـ أما أنا .. فأستأذن للذهاب إلى إبراهيم ... لكى أعتذر له . وأدعوه لزيارة جدى ، يجب أن نطرق الحديد وهو سخن ، قبل أن يعدل .

وغادر عبد الرحمن الحجرة ، وتركنى وسيدة ، وأقبلت على سيدة أجذبها من عنقها وأنا أضحك فى شبه جنون :

ـ اجلسى هنا .. قولى ما حدث .. كلمة .. كلمة .

ـ اصبرى على يا سيدتى قليلا . مالك تجذبيننى هكذا ؟! لقد مزقت ثوبى .. دعينى أصلحه أولا .

ـ تصلحينه ؟ اجلسى أيتها البلهاء ، قولى ماذا حدث ؟

ـ حدث يا سيدتى .. خير والصلاة على النبى ، دخل سيدى عبد الرحمن على حدك وقد أمسك « بالروشتة » فلم يكد حدك يراه حتى صاح به .

ـ ألم تذهب بعد لشراء الدواء؟!

ـ هناك بعض كلمات أود أن أسر لك بها .

ـ بعد .. بعد ... الدواء أهم .

ـ بل ما سأقوله أهم كثيرا من الدواء .

ـ ليس هناك شيء أهم من الدواء .. انى قلق جدا على راجية .

ـ ولهذا أفضل أن أحدثك قبل أن أذهب لشراء الدواء .. إنى أود أن أحدثك أيضا بخصوص راجية .

ـ بخصوص راجية ؟! ماذا تريد أن تقول ؟!

ـ أريد أن أقول إنى عدلت عن خطبتها .

وفغر جدك فاه ، وقفز من مقعده ، كمن لسعه عقرب ، وصاح بعبد الرحمن :

ـ ماذا تقول ؟ عدلت عن خطبتها ؟! أجننت ؟

ـ جننت لماذا ؟! أتعتبر عدول الإنسان عن خطبة لم تتم .. جنونا ؟

ـ لعلك أنت الآخر .. تحب ؟!

ـ لا .. أنا لا أحب .. ولا أريد أن أخطب .

ونظر إليه جدك فى دهشة ؟ وبدا له أن عبد الرحمن يهذى فقال له محاولا إنهاء الحديث :

ـ اسمع يا عبد الرحمن .. ليس هذا وقته .. إن بى مايكفينى .. دع هذا الحديث الآن .. واذهب أولا لشراء الدواء .. وعندما تشفى راجية ... يحلها ربنا .

ـ الدواء لن يشفى راجية .. نحن نعرف جيدا دواءها .. فلا داعى لأن نتغابى ، ونخفى رءوسنا فى الرمال ، يجب أن نواجه الحقائق .

ـ أية حقائق هذه التى تريد مواجهتها ؟ لقد واجهتها وحدى بطريقة حاسمة .

ـ وكانت النتيجة كما ترى .

ـ المسألة تحتاج إلى قوة وعزيمة .. اذهب أنت لشراء الدواء .. ودع لى الامور أدبرها كما أرى .. غدا ستشفى وتعقل .. ويتم كل شيء على ما يرام ...

ـ أنا واثق أن الدواء لن يفعل بها شيئا .. ثم أى شيء هذا الذى تظنه سيتم على ما يرام ؟! هل تتخيل أنى أقبل أن أفرض نفسى عليها فرضا ؟

ـ من قال إنك ستفرض عليها نفسك !! إن ما بها نزوة طارئة سرعان ما تزول ؟

ـ طارئه أو غير طارئه .. إنى لا أريد الخطبة ولا هى تريدها .

ـ أنتما ما زلتما أولادا صغارا .. لا تعرفان مصلحتكما .إنـى أعـرف مصلحتكما خيرا منكما .. وإن لى وجهة نظر فـى المسـألة .. سـأعرف كيف أسويها ..

ـ هذا هو الخطأ .. يجب أن تسوى الأمور من وجهة نظرنا نحن لا أنت .. إن كـل إنسـان لـه وجهـة نظـره فـى الحيـاة .. بـل إن الإنسـان الواحد تختلف وجهة نظره فى مختلف أطوار حياته ، ولكن شر مـا فـى الامر أنه يأبى على غيره أن ينظر إلى الحياة إلا من وجهة نظـره الخاصـة .. حقيقة أنت الآن محنك مجـرب .. وحقيقـة أنـك تنظـر إلـى الحيـاة نظـرة اتـزان وجـد وحكمـة ورويـة وتـزن كـل أمورهـا بمـيزان العقـل والمصلحة .. فأنت تكره لعب الصغار وتسخر من نزق الشباب وحرارة مشاعره ، وتنسى أنك فى وقت ما كنت طفـلا وأن دنيـاك كـانت دنيـا لهو ولعب ، وأنك كنت شـابا .. وكـان الـنزق هـو الأصـل فـى الحيـاة وكانت الحكمة سخافة وغباوة .. والروية جمودا والعقل غباوة ، وانـك كنت ترى الحياة الحب والحب الحياة .. إنك تنسى كل هذا وتأبى إلا أن ينظر الناس على مختلف أعمارهم إلى الأمور نفس نظرتك . فإن لـم يتصرفوا التصرف الذى يتفق مع وجهة نظرك .. كـانوا حمقـى مجـانين .. وكانت كل أفعالهم خـرق وطيـش وجنـون .. لا .. لا ... دع كـل امرىء يدبر أمره من وجهة نظره هو .. إنه أدرى بمطالبـه ومشـاعره .. وهو مسئول عن حياته .. وعن نتائج أعماله ، وإذا كان لابد لك من أن تدبر أمره فافهم نفسيته وقدر مشاعره وليكن تدبيرك ما أمكن مـن جهـة نظره وبطريقة تفكيره .

ـ ما شاء اللّه .. أنت تحاول أن تعطينى درسا ؟!

ـ ليس هذا درسا .. ولكنه رجاء .. رجاء بـأن تغير طريقتـك التـى توشك بها أن تدمر حياة أعز الناس لديك .. ألست تحب راجية ؟

أحبها أكثر من أى شيء فى هذه الحياة .. أكثر منك ومن نفسى ، ولهذا أضن بعمرها أن يذهب هباء وأكره أن تتنكب الطريق السوى .

ـ ليس هناك طريق سوى وغير سوى .. إن استواءهما نسبى .. يختلف باختلاف النظر والتفكير .. فما تراه أنت سويا يراه المائل عنك غير سوى .. وما يراه هو سويا تراه أنت غير سوى .. وليس هناك مقياس للاستواء ثابت فى حياتنا يمكن أن يقاس إليه ، فأى طريق مستقيم يميل إذا ما ملت عنه ويستقيم إذا سرت فيه .. ماذا تنكره على راجية ؟! أتنكر عليها أنها أحبت ؟!

ـ أتجرؤ أنت على أن تقولها بمثل هذه السهولة ؟

ـ ولم لا ؟! إذا كنت تنكر عليها مجرد الحب فى حد ذاته ، فهذا محض خطأ .. وهذا ما لا يقرك عليه إنسان .. فالطبيعى أن يحب المرء وغير الطبيعى ألا يحب .. وإذا كنت أنت أو أنا لم نحب .. فقد تكون طبيعة مشاعرنا جامدة .. أو قد يكون العمل استنفد كل أحساسنا .. فلم يبق منه شيء لنوجهه إلى الحب أو قد تكون الظروف أبت علينا الحب .. ولكن ليس هذا معناه .. أن نحرم على غيرنا الحب .. أما إذا كنت تنكر عليها أنها أحبت هذا الشخص بالذات .. فهذا هو العجب العجاب .. لأنه ليس مفروضا عليها أن تحب من تريد أنت أن تحب ... بل ليس المفروض أن تحب من تريد هى أن تحب . لأن الحب .. كما لا شك تسمع .. إذا كنت لم تجرب .. شيء يفعله الإنسان بلا إرادة منه .. بل أغلب ظنى أنه يصاب به كما أصاب أنا وأنت بالإنفلونزا أو الصداع .

ـ ما شاء الله ... لم أكن أعرف أنك اصبحت فيلسوفا أو محاميا .

ـ ليست هذه فلسفة أو دفاعا .. إنها مجرد توضيح لحقائق أود ألا تخفى عنك .. وأنت تقرر مصير أعز الناس لديك حتى لا تظلمها وتفسد مستقبلها .

ـ إنى أظلمها وأفسد مستقبلها إذا زوجتها من هذا « المزيكاتى » .. ماذا تظنه يكون أكثر من هذا ؟!

ـ أنا لا أناقش فى أنه « مزيكاتى » ، أو « قرداتى » . المهم كيف تراه هى .. هى التى ستشاركه حياته .. بعد بضعة أعوام ـ أمد اللّٰه لنا فى عمرك وأطال فى حياتك ـ ستذهب أنت وتتركها تتحمل وحدها نتيجة اختيارها .. إنها هى التى ستجنى الثمرة .. وهى وحدها التى عليها أن تنتخب البذرة .

ـ وهذا ما يجعلنى أصر على رأيى .. إنى أحب أن أضمن لها حياة سعيدة بعد أن أتركها وحدها ، وأنا أبعد منها نظرا .. وأسلم تفكيرا .

ـ إذا فلتسد إليها النصح ، وتوضح لها الرأى ... وتنبئها أية كفة ترجح ثم تترك لها حرية الاختيار .. فإذا أخذت بنصيحتك كان بها ، وإن لم تأخذ فقد أديت واجبك وأرحت ضميرك .. أما أن تفرض عليها رأيك بمثل هذه القسوة وتكرهها عليه أكراها .. فهذا ما يسمونه الاستعباد ... ونتيجته كما ترى ... إذا كنت تنوى أن تقتلها .. فاستمر فى طريقتك ... وتفضل .. إليك « الروشتة » .. هات لها الدواء عسى أن ينفعها .. أما أنا فقد أديت واجبى ونفضت يدى من الأمر كله .

وترك عبد الرحمن « الروشتة » على المنضدة واتجه إلى الباب يهم بالخروج .. ولكن جدك قفز من مقعده وصاح به :

ـ تعال ... اجلس .

وتراجع عبد الرحمن وعاد إلى مقعده .

وأطرق جدك برأسه برهة ثم زفر زفرة حارة ورفع وجها بدا عليه الانهيار والاستسلام ، وقال فى صوت خافت :

ـ أتظن يا عبد الرحمن أنى راض عن حال راحية !! إنها تمزق قلبى .. ألا تعرف قيمتها فى نفسى .. كنت أود أن يحقق اللّٰه أمنيتى .. وأراها عروسا لك .. ولكن ما حيلتى إذا كنا نقدر ، فتضحك منا

الأقدار . لقد ظننت أنى أستطيع نزع ما برأسها بالقسوة ... فقسوت عليها وقلبى موجع .. وظننت الغمة ستنقشع بعد بضعة أيام وقلت لنفسى إن مستقبلها يستحق أن تتحمل هى واتحمل أنا معها بعض الألم .. وكنت أتوقع منك العون والمساعدة .. ولكنى وجدتك عونا لها علىّ ، وأنا أعرفها عنيدة مكابرة ، ولكنى لم أتصور أن العناد يبلغ بها الحد الذى يجعلها لاتأكل أو تنام .

ــ ليست المسألة عنادا .. إن أعصابها منهارة .

ــ لتكن ما تكون .. ماذا تريد منى الآن ؟ لقد أصبحت أنا المخطئ وأنتما صائبان .. إنى تارك لك الأمر للتصرف كما تشاء .. كل ما أرجوه منك أن تسرع بإحضار الدواء .. لأنى لا أطيق أن أراها كما رأيتها اليوم .

وأسرع عبد الرحمن فمزق «الروشتة » شر ممزق وقال له :

ــ هذه هى « الروشتة » .. قد انتهى أمرها حتى تريح نفسك منها .. إنى كفيل بشفائها .. دع الأمر لى .. سأذهب الآن إلى إبراهيم لأعتذر إليه وأدعوه إلى مقابلتك الليلة .

وهز جدك رأسه وأجاب :

ــ افعل ما تراه .

واندفعت إليك .. وأنا أكاد أجن .

وصمتت سيدة .. وصمت أنا .. وأحسست بكثير من الندم على ذلك الشعور البغيض الذى كنت أحسه لجدى .. ما كان يجب على أن أبغضه ذلك البغض .. وأن أندفع أمامه ذلك الاندفاع الأحمق الذى اندفعته بعد أن أضاع رفضه صوابى .

كان يجب أن أعرف أن كل ما بيننا هو اختلاف فى وجهات النظر .. إن غرضنا واحد .. ولكن الوسائل اختلفت ... كلانا يبغى سعادتى .. ولكنى رأيتها فى إبراهيم ورآها فى عبد الرحمن .

كان يحب ألا أعتبره خصما لى يبغى القضاء على مستقبلى . وأى مصلحة له فى هذا ؟

ولكن أنىّ لى أن أفكر فى هذا التفكير وقتذاك !!

لو استطعنا أن نسيطر على مشاعرنا وكبحنا جماح غضبنا لأمكننا أن نحصل على أفضل مما نحصل عليه إذا أطاش الغضب صوابنا .

أم ترى أن المسألة ما كانت تتم .. لو لم أندفع لخوض المعركة ... بمثل هذه الثورة .. وأنى ما كنت أحصل على ما حصلت عليه إلا بالكفاح والنضال والآلام ؟!

اللّه وحده أعلم ؟

كل ما يهمنى الآن .. هو أن أملى قد تحقق .. وأوهامى قد باتت ملء يدى .. وأنى وإبراهيم .. قد انتصرنا فى معركة حياتنا المشتركة .. ومصيرنا المرتقب .

ووجدتنى أذكر اللّه ، وأقول من كل قلبى « الحمد للّه » .

وكما صاحبتنى الدموع فى أحزانى .. وجدتها تهبط منسابة من عينى .. لتصاحبنى فى فرحتى .

ووددت لو أقفز من النافذة وأعدو إلى إبراهيم فأضمه بين ذراعى وأضع رأسى فى صدره .. وأنبئه أن كرامته قد ردت ، وأن جدى سيعتذر له .. ويقول إنه يشرفه أن يزوجنى إياه ...

أجل .. لقد كان أكثر ما يسبب سعادتى .. هو احساسى بأنى لم أخذل إبراهيم .

الفصل العاشر

نهاية تجربة

وهكذا تبددت فجأة غيوم اليأس المعتمة التي كانت تملأ سماء حياتي .. وإذا جلاميد الصخر التي كانت تحول بيني وبين إبراهيم .. أو على الأصح .. بيني وبين الحياة .. والتي كنت أراها توشك أن تنقض على فتتركني حطاما .. قد تفتتت وذابت .. وأضحى الطريق إلى أمنية النفس سهلا معبدا .

ورحت من فرحتي أشبه بالسكرى أو المأخوذة لا أكاد أعي ما حدث في بضع الساعات التالية .. كل ما أحسسته وأنا قابعة في غرفتي أن في الدار حركة غير طبيعية ، وأن أقداما تروح ، وأقداما تغدو .. وعلمت من سيدة أن عبد الرحمن زار إبراهيم .. وإن إبراهيم أتى لزيارة جدى .. وأنهما تفاهما بسرعة عجيبة .. وأن جدى كان رقيقا معه واتفقا على إعداد « دبل » الخطبة لكي نلبسها في أقرب وقت .

وانتهت المسألة في يسر وسهولة .. وكان الإعياء قد بلغ مني أقصاه ، فلقد أنهكتني الانفعالات الشديدة التي مرت بي ولم أعد أملك إلا الرقاد والاستغراق في سبات عميق .

وفي اليوم التالي تمت الخطبة .. ولست أظن شرح سعادتي بالأمر السهل .. لقد كنت في كثير من الأحيان عندما أخلو لنفسي ، وأذكر كيف كنت اعتبر سعادتي . في سماع إبراهيم مع ألوف الناس . ثم كيف أصبحت أشعر بعد ذلك أن السعادة قد فاضت بي وأغرقتني عندما كان يعزف لي .

كنت عندما أذكر هذا لا أكاد أصدق أنه قد بات ملكا لى .. وأن من حقى أن أجلس معه .. وأحدثه ... وأناجيه ويناجينى ... وصار هذا حقا مقررا من الناس والتقاليد ... لا حقا مختلسا أو مسلوبا .

كانت سعادتى تفوق الوصف .. ولم يكن يخيفنى إلا تخيلى فى بعض الأحيان أنى أمر بحلم .. نهايته اليقظة .

واستيقظت أول فجر بعد الخطبة على صوت أنغام يحملها النسيم من دار إبراهيم ، وتذكرت أول مرة ذهبت إليه عبر السور .... وأحسست برغبة جارفة تدفعنى إلى أن أكرر ما فعلت .

وغادرت الحجرة هابطة إلى الحديقة .. وصعدت إلى السور وقفزت منه إلى الأرض .. وبنفسى أحساس بمتعه عجيبة .. متعة السارق .. الذى يعرف أنه لا سلطان لأحد عليه .. أو متعة الذى يأتى ما كان محرما عليه .. لكى يشبع فى نفسه رغبة الاستهتار .

وأخذت أتسلل إلى الشرفة على أطراف أصابعى ... ولم يكن فى هذه المرة صوت المسجل هو الذى يعلو .. بل كان هو نفسه جالسا أمام « البيانو » واستمررت فى الاقتراب حتى وقفت وراءه .. ثم مددت يدى ووضعتها على عينيه .

وسمعته يهتف فى صيحة جذل ودهشة :

ــ راجية ؟!!

ــ كيف عرفتنى ؟

من مسة يدك .. وهبة عطرك .. إنى أعرفك لو مررت بى من بعد ميل .. أعرفك من نسمتك كما قال الشريف الرضى :

هبت لنا من رياح الغور رائحة
بعد الرقاد عرفناها برياك

ــ أنا لا أفهم الشعر .

– وأنا أحب ترديده والترنم به .. إنه أقرب الكلام إلى الموسيقى .. تعالى .

ثم جرنى من يدى إلى حجرة مجاورة فرأيت رفا صفت عليه الكتب . وأردف قائلا وهو يشير إلى بعض الكتب :

– هذه كلها دواوين شعر .. ألجأ إليها وقت الراحة .

– والباقى ؟

– فى الادب والموسيقى .. وهناك كتاب فى علم الأرواح ، وآخر فى علم النفس .

– لم أكن أظن أن لديك وقتا للقراءة .

– إنى أحب القراءة .. وأخلق لها الوقت .

– وانا أيضا أحبها .. ولدى مكتبة سأريكها عندما تأتى إلى .. ولكن معظمها روايات وأقاصيص .. إنى لا أطيق الشعر .

– وأنا أيضا لدى بعض القصص سأعيرها لك .. إن كنت لم تقرئيها .

– ولكن كيف تجد وقتا للقراءة وللتلحين ؟

– كل شىء مستطاع مادمت فى حالة نفسية طيبة .

– وإذا لم تكن ؟

– أجارك الله .. لقد مضى على بضعة أيام عقب أن خذلنى جدك ، وكنت لا أكاد أفعل شيئا .. سوى الحملقة والشرود ... ويخيل الى أنه لو طال بى الوقت أكثر من هذا .. لفقدت عقلى .

– وبعد ذلك ؟؟

– فى أول ليلة .. لم أفعل شيئا من فرط الفرحة والطرب .. وبعد ذلك فعلت فى يومين .. ما لم أستطع عمله فى شهر بأكمله .

– أحقا وضعت ألحانا جديدة ؟

وكنا قد عدنا إلى حجرة « البيانو » وقد تشابكت أصابعنا وجلسنا على الاريكة متجاورين .. وأجابنى قائلا :

ـ وضعت ما أعتقد أنه أجمل ألحاني . أتريدين سماعه ؟

وكنت أحس بمتعة من الجلوس بجواره تكاد تغلب متعتي من سماع ألحانه ، وقلت محاولة أن أستبقيه إلى جواري :

ـ أنا لا أريد أن أتعبك .

ـ لن أتعب في شيء .. سأسمعه لك بواسطة المسجل .

وبدأنا نستمع إلى المسجل وقد أسندت رأسي إلى كتفيه وتركته يعبث ـ كعادته ـ بخصلة شعري .

ولم يكد ينتهي اللحن حتى سمعت في المسجل صوتا يقول :

ـ راحية ؟

وآخر يسال :

ـ وكيف عرفتني ؟

واستغرقنا في الضحك فقد ميزنا في الحديث صوتي وصوته ، وأدركت أن الجهاز لم يكن قد أوقف عندما دخلت عليه .

وقلت في جذل :

ـ هذا الجهاز لطيف جدا .. إن الإنسان يستطيع أن يسجل عليه أجمل ما قيل له .. كي يستعيده اذا ما أحس بالحاجة إليه .

ـ إذا سأعطيك إياه .. برغم ثقتي بأنك لن تحتاجي إليه .. لأن أجمل ما قيل لك .. سيقال لك دائما .. بل سيقال لك خيرا منه .

وأحنى رأسه على ، ثم وضع أنفه في خصلة شعري وهمس قائلا :

ـ أحب رائحة شعرك .

وانزلقت شفتاه ببطء على أنفي واستقرتا برهة على طاقتيه ثم هبطتا إلى شفتي .

ووجدتني أستنشق أنفاسه في شهيق طويل وأهمس به :

ـ وأنا أحب رائحة أنفاسك .

وعدت إلى البيت من السور .. وتسللت إلى حجرتى وسرعان ما رقدت فى الفراش وبعد لحظات كان « مدبولى » يدق الجرس حاملا جهاز التسجيل ومعه بعض التسجيلات .

وأقبلت « سيدة » تحمل الجهاز وتضعه على المنضدة فى غرفتى قائلة :

ـ سيدى إبراهيم أرسل هذا مع المخبول الذى يدعى مدبولى .

ولما لم تجد منى بوادر دهش ولا سؤالا عما يكون هذا الصندوق الذى حملته إلىّ فى الصباح المبكر تساءلت قائلة :

ـ أتعرفين ما هذا ؟

ـ أجل .. أعرف .

ـ كيف ؟

وضحكت قائلة وأنا أنهض وقد رفعت عنى الغطاء ووقفت امامها « بالجيب والبلوزة » .

ـ انظرى !!

وضربت سيدة على صدرها وقالت :

ـ بسم اللّه الرحمن الرحيم .. أكنت نائمة بملابسك ؟

ـ لقد كنت أحلم أنى أتنزه فى الخارج .. وعندما فتحت عينى وجدت نفسى بملابسى هذه .

ـ يا نصابة .. يا كذابة أين كنت ؟

ـ كنت عند إبراهيم .. قفزت السور كالمرة السابقة .

ـ يا فتاح يا عليم .. هكذا على الصبح .. أنت حنسك إيه .. شيطانة ؟! .. وما هذا الصندوق ؟ ماذا به ؟

ـ أتريدين أن تعرفى ماذا به ؟

ـ أجل .

ـ أديرى وجهك إلى الناحية الأخرى .

وأدارت « سيدة » وجهها وهى تمصمص بشفتيها وتقول :

ـ « حكم » .

وبدأت أدير الجهاز للتسجيل كما علمنى إبراهيم .. ثم صحت بسيدة :

ـ هل تستطيعين الغناء ؟

ـ طبعا أستطيع .. إن صوتى يفوق منيرة المهدية فى زمانها .

ـ إذا غنى .

ـ ليس هذا وقته .

ـ قلت لك غنى .

ـ لا أستطيع الغناء هكذا « حاف » بلا تخت .

ـ غنى ولا تضيعى الوقت .

وبدأت سيدة تغنى أحد المواويل .. وأخيرا صحت بها :

ـ كفى .. أديرى ظهرك واسمعى .

ثم بدأت أدير الجهاز للإذاعة .. ووقفت سيدة جاحظة العينين ، فاغرة الفم .. وهى تسمع الحوار الذى دار بيننا ، ثم تسمع صوتها يغنى .. وأخيرا قالت متسائلة :

ـ ما هذا ؟ .. كأن بجوفه عفريتا .

وبعد الظهر دعونا إبراهيم لتناول الشاى .. وعقب الشاى سحبته من يده وقلت له ضاحكة :

ـ تعال .. سأريك مفاجأة .

واتجهت به إلى حجرتى .. وقبل أن يجتاز الباب قلت له :

ـ أغمض عينيك .

ووقف إبراهيم بباب الحجرة مغمض العينين وهو يقول :

ـ أتنوين أن تسحبينى إلى السور كما فعلت بمدبولى ؟

ـ لا .. انتظر لحظة واحدة .. والآن افتح عينيك .

وكنت قد أخرجت الصورة التي رسمتها له والتي أُخفيتها خلال « الأزمة » في أسفل الدولاب .

وبدت عليه الدهشة والإعجاب وهتف !

ـ مدهشة .. أحقا رسمتها من الذاكرة ؟

ـ طبعا .. ألا تشبهك تماما ؟

ـ إنها تشبهني حقا .. ولكن لا أظن الأصل وجيها .. كالصورة .. أتظنيني وجيها بهذا الشكل ؟

ـ على أية حال .. لقد رسمتها من الأصل المقيم في ذهني ... وسواء أكنت هكذا أم لم تكن .. يكفي أني أراك هكذا .

ـ وإلى متى سأستمر في ذهنك هكذا ؟ متى « أبهت » ؟

ـ لا أظنك « تبهت » أبدا . إنك منقوش في الذهن ... محفور في القلب .. ليس لك زوال ولا نهاية ... رسمك في نفسي أشبه بنقوش الفراعنة ...

وقبل أن يجيب أشرت إليه بأصبعي :

ـ انتظر هناك مفاجأة ثانية .. أغمض عينيك .

وأغمض عينيه فقلبت الصورة وقلت له :

ـ افتح .

ولم يكد يفتح عينيه حتى صاح مقهقها وهتف :

ـ يا مدبولي الكلب ... والله هو بعينه وغباوته وبلهه ... خسارة فيه الرسم .. والألوان .. والجهد .

ـ لقد رسمته للتمويه أولا .. حتى إذا دخل علي أحد قلبت الصورة ... ولتسلية سيدة ثانيا ... فهي تمرن لسانها في الصورة على السباب .. على أية حال لقد حكم على الصورة بالسجن في الدولاب

فى فترة مرضى ولم يفرج عنها إلا بعد انفراج الأزمة .

ــ لقد كنت أنا أيضا أشعر أنى فى سجن ، بل أكثر من هذا .. كنت كالمحكوم عليه بالإعدام ...

ــ أرجوك لا تذكرنى بتلك الأيام .. إنى لم أر ألعن منها ... لقد كنت في حالة .. أشبه بالموتى ... هيا بنا أريك الحجرة .

ثم أمسكته من يده وأخذت أعرض عليه محتوياتها قائلة :

ــ هذه هى المكتبة التى حدثتك عنها .. كلها قصص . وهذا هو « ألبوم » الصور ... تفرج عليه وعلى مهل ... وهذا هو « الأوتوجراف » الذى لم تتكرم بإمضائه حتى الآن .

ــ سأمضى فى قلبك .. وليس فى الأوتوجراف .

ــ لقد أمضيت من زمن طويل ..

ثم استمررت أعرض عليه بقية المحتويات قائلة :

ــ وهذا هو دولاب الرسم والاشغال .

ثم مددت يدى إلى الرف العلوى وجذبت « كمان » مخبأة فوقه وقلت :

ــ وهذه أعز ما أملك .. إنها « كمان » ــ كان يعزف عليها أبى .. وقد احتفظت بها لنفسى بعد وفاته .

ــ أكان أبوك يجيد العزف ؟

ــ يقولون هذا .. أنا شخصيا لم أسمعه .

ــ إذا فقد ورثت عنه الميل إلى الموسيقى .. إنها ليست بدخيلة عليك ؟

ــ إن سيدة تقول إنه كان يهوى الموسيقى والغناء . إنها لم تر أرق ولا أطيب ولا ألطف منه .

ثم مددت يدى إليه « بالكمان » وأردفت قائلة :

ــ إنها خير ما لدى لأهديه لك ، فخذها إذا كنت تجدها تستحق .

وتناول « الكمان » وهو يقول :

ــ متشكر جدا يا راجية ... لا أدرى كيف أشكرك ..

ــ أنا أعرف أنها ليست قدر المقام ولكنك لا تتصور قيمتها عندى .. إنى أقدم أعز ما أملك ، لأعز الناس على .

وبدأ إبراهيم يجرى القوس على أوتارها ويربط مفاتيحها وهو يقول :

ــ إنها « كمان » أصيلة .. إنها فى حالة جيدة جدا .. إنى لن أعزف بعد الآن إلا عليها .

وسرنى حسن قبوله لهديتى .. ورضاؤه عنها ، وعدت أعرض عليه بقية ممتلكاتى .. قائلة :

ــ وهذه أول هدية منك لى .

ومددت يدى فى أحد الأدراج وأخرجت منديلا .

وهتف هو فى دهشة :

ــ هدية منى أنا ؟

ــ ألا تذكر .. المنديل الذى ربطت به قدمى !!

ــ ألا زلت تحتفظين به حتى الآن ؟! لو علمت هذا ... لربطتها بشىء أثمن .. أو لوضعت فى قدمك خلخالا من الذهب .

ــ إنه عندى أثمن من ذهب العالم كله .. إنه تذكار لأول رؤيتى لك وحديثى معك . إنه يحمل إلى أعز الذكريات .

وخرجت به إلى الشرفة وبدا أمامنا منظر السور ، والأشجار المتكاثفة ومن خلال فروعها بدت شرفته .

وعندما وجدت نفسى أقف فى شرفتى بجواره أحسست أن اللّه قد منحنى شيئا كثيراً ، ووجدتنى أتنهد تنهد الاستقرار والحمد والشكر ... ودعاء اللّه أن يديم على فضله ونعمته .

وقلت لإبراهيم فى صوت خفيض وقد رق منى الحس وأرهف الشعور :

ـ هذه هى الشرفة التى سمعتك فيها أول مرة .. كنت أجلس هنا على هذا المقعد .. وقد شرد منى الذهن ... وسبحت ببصرى بين النجوم .. ورحت أمسح وجهى فى السحب الهشة المتناثرة .. عندما حمل إلىّ النسيم لحنا عجيبا ، سرى هادئا كأنه حفيف الشجر . كانت لحظة خالدة لن أنساها مدى الدهر ... لأنها بداية حياتى .. كنت من قبل أحس أنى ضالة تائهة .. لا أعرف لم وجدت فى هذه الدنيا ولا ماذا أريد منها ... ولكنى شعرت بعد ذلك .. أنى لم أعد ضالة ولا تائهة وأن الدنيا بها ما يستحق الحياة ، وأن هناك أملا أعيش لأبلغه ... وأمنية أحيا لإدركها .. واخترت الشرفة بعد ذلك معبدا .. ألجأ إليه لأملأ بالإيمان نفسى .. وأصبحت إذا ما جلست على هذا المقعد أحس براحة عجيبة ، حتى تعوّدت ألا أسمعك إلا وأنا مضطجعة عليه ، شاردة ببصرى فى السماء .

وكنت أقف إلى جانبه وقد وضع يده على رأسى وأخذ يتحسس شعرى ونظر إلى عينى مبتسما وقال :

ـ إذاً فأنت لا تستطيعين سماعى إلا فى شرفتك وعلى مقعدك ؟

ـ أجل .. هكذا تعودت .

ـ إذا فليس لى أى فضل فى إطرابك .. الفضل كله للشرفة وللمقعد .. على أى حال .. أنا على استعداد لأن أعزف لك لحنا جديدا .. ما دامت الشرفة قائمة والمقعد موجودا .

ـ والكمان جاهزة ؟!

ـ أجل .. لا ينقصا شىء .. سوى أن تضطجعى على المقعد وتنظرى إلى السماء .

وأمسك « بالكمان » ! يصلح أوتارها .. ثم قال لى :

ـ ها .. إنى جاهز .. أجاهزة أنت ؟

وكنت قد جلست على المقعد ولكنى قفزت فجأة قائلة :

- انتظر .. كدت أنسى شيئا هاما .

وعدوت إلى جهاز التسجيل فأعددته ثم عدت إليه قائلة :

- تصور .. كدت أنسى أن أسجله .. وكاد تعبك يذهب هباء .. سأحتفظ بهذا التسجيل .. حتى أسمعه إذا ماغبت عنى .

وبدأ إبراهيم العزف ، وجلست فى مقعدى .. وأغمض عينى ورحت فى نشوة .

وحملتنى الألحان بعيدا إلى السماء وكأنى أطوف بالفردوس .

وصمت الصوت ... وأنا ما زلت محلقة فى عليائى ، مغمضة العينين شاردة الذهن .

وأحسست بأنفاس حارة تلفح وجهى وشعرت بشفتين تمسان شعرى ثم تطوفان بخفة فى وجهى ماسة جبينى وعينى وأنفى وخدى وعنقى وذقنى ، وأحسست بالرحلة قد طالت وشفتى قد زاد بهما الظمأ .. ولم يستطيعا الانتظار حتى تصل إليهما الشفتان الأخريان .. فتعجلت اللقاء .. واختصرت الطريق ووثبت إليهما .. واستقرت شفتاى عليهما فى ظمأ ونهم . ومددت ذراعى فضممته إلى .

وبدا لى كأنى مازلت أهيم فى شرودى .. وأن ما أفعله ليس سوى حلم .. وهممت به :

- أين أنا ؟

- بين ذراعى .

- خيل إلى أنى أحلم ، وخشيت أن أفتح عينى حتى لا يتسرب الحلم ويختفى .

- افتحى عينيك ولا تخشى شيئا .. إن حلمك .. باق إلى الأبد . لن أوقظك منه مهما فتحت عينيك .

ومضت لحظة صمت ثم همس فى أذنى :

- راجية .. أتحبيننى ؟ قوليها لى فإنى أحب أن أسمعها من شفتيك .

وفتحت عينى ونظرت إليه وأطلقت تنهيدة حارة .. وهززت رأسى ببطء وأجبته هامسة :

- لن أقولها لك .. إن ما عندى ليس حبا .. إنه أكثر من هذا .. عندما يحب المرء .. يحب مخلوقا آخر .. ولكنى لا أحس أنك آخر .. إنك أنا .. أنت فى دمى وفى كيانى .. كل ذرة فيّ معها ذرة منك . أعرفت من تكون بالنسبة إلى ؟

- أنا أيضا أحس كما تحسين .. لم يعد لى غنى عنك لحظة واحدة .. أشعر كأنى لا أستطيع تنفس الهواء إلا إذا كان ممزوجا بأنفاسك .. وأشعر أن حياتى مستمدة منك .. أنت أحد عناصر الحياة لدىّ .. بل عنصرها الأول .. بغيرك لا أستطيع الحياة ., لا أستطيعها أبدا ... أبدا .

وضمنى فى لهفة .

وفى تلك اللحظة .. وصل إلى مسمعى صوت أدركت منه أن المسجل ما زال دائرا وأننا قد نسينا وقفه .

وقلت لإبراهيم فى دهشة :

- إبراهيم .. إننا لم نعطل المسجل ؟

وهتف إبراهيم وهو يتلفت نحوه :

- أجل .. لقد نسيناه تماما .

واتجه إليه فعطله ثم عاد إلى وهو يقول ضاحكا :

- تصورى يا راجية .. لقد سجل كل ماقلناه ؟

وصحت فى شبه ارتياع :

- يا خبر !! لم أكن أدرى أن هناك من ينصت إلينا ويسجل علينا أقوالنا .. لو سمعه أحد .. ستكون فضيحة .كم أنا خجلة ؟

- لا تقلقى إنى أستطيع مسحه .

وعاد إلى المسجل مرة أخرى ليمسح الشريط ... وقبل أن يهم بمسحه قلت له عابثة :

ـ دعنا نسمعه أولا .

وأدار الشريط . وسمعنا أولا اللحن الذى سجله .. ثم مرت فترة لم أسمع فيها شيئا .. فقلت له وكأن بى خيبة أمل :

ـ إنه لم يسجل شيئا .. الظاهر أنه خجل من نفسه ؟

وضحك إبراهيم وأجاب :

ـ انتظرى قليلا .. إننا لم نكن قد بدأنا الحديث بعد . كانت شفاهنا مشغولة بشيء أهم .. شيء لا يستطيع المسجل تسجيله ... ولله الحمد .

وقبل أن أجيبه بدأ الصوت يقول فى همس :

ـ أين أنا ؟

ـ بين ذراعىّ .

ـ خيل إلىّ أنى فى حلم .

واستمرت المناجاة حالمة هائمة .. حارة ذائبة .. حتى انتهت بقوله :

ـ بغيرك لا أستطيع الحياة .. لا أستطيعها أبدا أبدا .

ونظر إلىّ إبراهيم وقال متمما لصوت المسجل :

ـ أبدا .. أبدا .. أبدا .

وعاد يضمنى إليه ، ثانية ، وثالثة ، ورابعة .

ومرت بى بعد ذلك أسعد أيام حياتى . أيام منحتنى الدنيا من السعادة ما يعتبر كرمها الأول بجواره بخلا وتقتيرا .. كنت أنطلق فى مرعى من النعيم لا حدود له ولا قيود فيه .

وبدا لى أن القدر قد نسينى .. وغفل عنى بمصائبه وأحداثه وأحزانه .. أو أن القضاء قد انتقانى من سجل البشر ليفرد لى صفحة خالصة من السعادة لا تشوبها شائبة كدر ولا ضيق .

كنا لا نكاد نفترق إلاساعات النوم .. وفى خلال النهار كنا نرتع بين الحدائق أو على شاطئ البحر، وكان الوقت ربيعا ، والأوراق الجديدة

اللامعة على فروع الشجر وأكداس الأزهار المتفتحة المتزاحمة فى الأحواض ، وبيض السحب العابثة فى مراح الزرقة الصافية ، كل ذلك قد جعلت منه الطبيعة إطارا رائعا يحيط به ينبوع السعادة المتدفقة من قلبينا .

وإنى لأسائل نفسى الآن ، وأنا أستعيد لذهنى ما كنت فيه .. هل يتهيأ المخلوق .. أن يظل حياته كلها فى مثل هذا الفيض من النعيم ؟! وهل يتفق للدنيا .. أن تفجر لمخلوق ينبوعا من السعادة لا ينضب له معين ولا يجف له نبع ؟! وهل يغمض القدر عن مخلوق يغفل عنه بأحداثه إلى الأبد .

عندما أسائل نفسى الآن .. أجزم أن هذا غير معقول .. ولكنى .. هائمة فى مرتعى كما كنت .. شاردة سابحة .. أعب وأنهل .. لم يخطر ببالى قط أن ما بى من الهناء يمكن أن يصل إلى نهاية ، وأن حياتى تستطيع أن تسير على غير هذا النمط من المتعة والنشوة .

لم أكن أفكر أن سفاهة الدنيا فى المنح لابد أن يعقبها إفلاس .. وأن هذه الفترات ذات النعيم المركز .. لا يمكن أن تستمر مدى الحياة لأنها أشبه بروح العطر ، يمكن أن تفرق على قنينات العمر .. لكى تجعل العمر كله عطرا ، وأنها زاد من الذكريات يجتر ليمنح الإنسان قوة يستعين بها على مشقة الطريق حتى يصل إلى نهاية عمره .. أو بارقة تضئ لنا لحظة لكى ترينا فى ظلمات الطريق مفاتن الحياة حتى نعيها فى أذهاننا إذا ما ادلهمت الظلمة مرة أخرى .

لم أذكر كل ذلك وأنا منطلقة فى مراح النعيم .. حتى أحسست فجأة أنى أنزلق من قمة المنحدر .. أو أهوى من حالقه ، وأن الشىء الصلب الذى كنت أطبق عليه يدى فى ثقة وطمأنينة قد بدا يذوب .. وأخذ يتسرب من أصابعى دون أن أستطيع الاحتفاظ به .

لست أدرئ كيف بدأت الكارثة .. فقد كانت المسألة كلها خاطفة كلمح البرق .. ولكنى أذكر أن الأمر بدأ بشرود منه وذهول لم

أعهده .. وتجهم يعلو وجهه عندما يغيب عنى بذهنه .. فإذا ما استدعيته إليّ .. فك عقدة وجهه وحاول جهده أن يفرج أساريره .

ثم أحسست بعد ذلك أن شروده قد زاد ، وأن السد الذى بدأ يقوم بينى وبينه قد علا واشتد .. وأن الصلة التى أحالتنا إلى شخص واحد قد أخذت تنفصم عراها ، وتتمزق روابطها ، وأنه قد أخذ يبتعد منى رويدا رويدا .. حدث كل ذلك بلا مبررات ولا مقدمات ولادواعى معقوله .

وخلت أن هناك ما يضايقه مما قد يكون حدث علي غير قصد منى رويدا رويدا ... حدث كل ذلك بلا مبررات ولا مقدمات ولا متجاورين فى حديقة دارنا فسألته :

ــ ماذا بك يا إبراهيم ؟

ورفع رأسه عائدا من شروده قائلا :

ــ لا شىء .

ــ إنك لست كعادتك .. إن بك ضيقا من شىء .. قل ما هو ؟

ــ ليس هناك شىء .. قلت لك .

ــ أضايقك من جدى شىء ؟

ــ لا .

ــ ولا عبد الرحمن ؟

ــ ولا عبد الرحمن .

ــ إذا .. ماذا بك ؟

وأخيرا فتح اللّه عليه بعذر شكلى لم أستطع إلا قبوله فقد قال :

ــ أن بى صداعا خفيفا .

ــ أأحضر لك أسبرينا ؟

ــ أخذت .

ولم أحاول أن أضيق عليه بالسؤال مرة أخرى ، وحاولت أن أعزى

نفسي بأن ما به قد يكون حقا صداعا أو إجهادا ، أو على أسوأ الفروض ، نوعا من ملل الإنسان الذى يصيبه نتيجة الإفراط فى شىء .. ولو كان إفراطا فى السعادة .

وصممت على أن أتصرف بحكمة ، ولا أفزع ولا يطير عقلى شعاعا .. وأن أفعل كل ما أستطيع حتى لا أزيده ضيقا ، ولم أحاول قط أن أسبب له ما يزعجه .. أوأثقل عليه بما لا يريد .

ولكن يبدو أن القضاء كان قد وقع ، ولم يكن لى فى رده حيلة ولا على دفعه قدرة .

ففى يوم .. أغبر مشئوم .. وجدته قد أقبل على وفى وجهه شحوب وفى سيماه تجهم .. وبدا كأنه واقع تحت عبء ثقيل وكنت أقف فى الحديقة لأجمع بعض الورد . هششت له وصحت محيية :

ـ أهلا إبراهيم .

ولكن لم يكن لديه القدرة أو الرغبة ، فى أن يهش لى بل أجاب فى ضيق وهو يزدرد ريقه كأنه يعانى أزمة :

ـ راجية .. انى أريد أن أسر إليك ببضع كلمات .. تعالى .. أرجوك ..

وسرت معه حتى وصلنا إلى خميلة فى ركن الحديقة تعودنا أن نجلس بها معا .

وجلس أمامى وقد أخذ يعتصر جبينه كأنما يلح عليه صداع شديد ، وأخيرا أطلق زفرة حارة وقال فى صوت خفيض :

ـ لست أعرف كيف أبدأ .. أنا أعلم أن ما سأقوله سيكون شديد الوقع عليك ... وأؤكد لك أنه لم يكن هناك أبغض على نفسى من أن أسبب لك آلما .. ولكنى مع ذلك أجدنى مجبرا على أن أقول ما سأقول .. لأن مصايرنا ليست بأيدينا .. بل هى فى يد قوة أكبر ترسمها كما تشاء وتوجهها حيثما تشاء .. كنت أود ألا أتخلى عنك أو

أخذلك ، وأن نكمل السير فى الطريق معـا .. ولكن القـدر يـأبى علينـا ذلك ، ولا بد لنا من الافتراق .

وأقول الحق أن الصدمة كانت مروعة .كانت مذهلة ، ولـم تسـتطع كل المقدمات السابقة أن تمهد لها وتخفف من وقعها .

وهتفت به وأنا مأخوذة مشدوهة :

ـ لا يا إبراهيم .. لا تقل هذا أرجوك .. نحن لا يمكن أن نفترق .. ليس هناك قوة على الأرض تستطيع أن تفـرق بيننـا .. ألا تذكـر قولـك إنك بغيرى لا يمكنك العيش أبدا .. أبدا ؟

وأطرق إبراهيم برأسه وعض على نواجذه :

ـ أرجوك يا راجية .. كفى عن هذا .. لقد انتهى الأمـر .. لا فـائدة من الحديث فيه .

ـ ولكن .. ما السبب ؟! قل لى أرجوك !! أرحنى !! هل أساء إليك أحد فى المنزل ؟! أرجوك .. اشرح لى الأمر فقذ يكون هناك حل .

ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. كأنما قد أصم أذنيه عن سماع حديثـى ونهض واقفا وقـد بـدا علـى وجهـه التجهـم والشـرود ، ودون أن ينظـر إلىّ .. أو يلقى إلى تحية وداع .. وجدته قـدْ أدار وجهـه وسـار متجهـا إلى باب الحديقة .. وخلفنى من فرط الذهول لا أكاد أملك حراكـا ولا نطقا ، كأننى فى كابوس مزعج وحلم مخيف .

وعندما اختفى عن ناظرى هممت بالعدو وراءه والتعلق بـه والتوسـل إليه ألا يتركنى .. ولكنى لم أفعل .. إذ كنت كالمشلولة .

ولم أبك .. فقد جفت مآقىّ ... وجف كل شىء بى .. حتى كنت أحس أنى شبح يتحرك .. وتسللت إلى حجرتى وكأنما أخشى أن يرانى أحد .. حتى أويت إلى حجرتى وأخفيت رأسى فى الوسادة .. مغمضـة عينى ... محاولة الفرار من الواقع المروع .. جاهدة فى وقف تفكيرى ووقف حياتى .. لو كنت أستطيع .

وهكذا أنتهى الأمر وذهب كل شيء بلا أدنى سبب .. وبلا أمل في عودة .. وسحب القدر الأحمق بيساره كل ما أعطاه بيمينه .. وخلفني بالضبط كالهاوية من قمة جبل إلى قاع بئر .

وأغلقت على باب الحجرة ولم أحاول أن أحدث أحدا .. حتى أنبأتني « سيدة » بعد ذلك بما حدث له من ذهول ، وبسفره مع الدكتور زكي إلى مصر .

وزادت دهشتي .. وأحسست أن أعصابي لم تعد تتحمل أكثر مما تحملت .. وحاولت أن أعزى نفسي بأن هجره لي لا يعدو أن يكون من الأزمة التي أصابته .. وتمنيت لو أستطيع أن أكون بجواره وأن أفعل له شيئا .

ولكني كنت أحس أن صلتي به ـ بعد أن عرف جدي بالفرقة ـ قد باتت متعذرة إن لم تكن مستحيلة .

وكنت أخشى أن أواجه جدي طوال الأزمة .. كنت أخشى ثورته .. ولم أقل له أكثر من أننا اختلفنا وافترقنا ، ولكنه كان أكرم مما توقعت .. ورحم ضعفي وانهياري .. فلم يحاول أن يزيد متاعبي أو يلح في الأسئلة وقال لي في رفق :

ـ كنت أعلم أن هذا الحب المندفع لا يمكن أن يكون أساسا متينا لحياة طويلة مشتركة . هذه أعراض طارئة تصيبنا في فترة من فترات العمر فلا يجب أن نبني عليها مستقبلنا بل يجب أن نحكم عقولنا في كل ما يمس مصائرنا . إنه مصيرك وأنت حرة في تقريره . إني لن أتدخل ثانية .. إني أحبك ولا أرجو سوى سعادتك ، ولقد أوضحت لك الطريق وأنت أدرى بنفسك وبما يسعدك .. إنها تجربة .. والتجارب خير ما يعلم الإنسان .

الفصل الحادى عشر

ليلى الصغيرة

وأخيرا صمتت راجية .. وأفاق توفيق إلى نفسه .. بعد أن استغرق في الاستماع بكل مشاعره ، ونظرت راجية إلى ساعتها فإذا بها الثانية عشرة والنصف ، وتمتمت معتذرة وهى تلفظ زفرة حارة :

ـ لقد أضعت وقتك يا دكتور ، ولكنك أنت الذى طلبت ذلك .. هذا هو كل ما حدث .. إنى أحس بشىء من الراحة كأنى لفظت من صدرى جمرات كانت تتأجج به .

وأطرق توفيق برأسه وهو ينقر بقلمه على مكتبه وقال كأنما يحدث نفسه :

ـ عجيبة !... كنت أظن أول الأمر أن الصدمة حدثت نتيجة شىء وقع بينكما . أقصد ـ بصراحة ـ شيئا صدر منك .

ـ أنا ؟! إنى منذ رأيته لم يصدر منى ما يخدشه أو يضايقه أقل ضيق ، ولا سيما فى الأيام الأخيرة التى بدأت أحس تغيره فيها .

ـ ألا يمكن أن يكون قد حدث منك شىء عن غير قصد ؟

ـ لا أظن ، وإلا أخبرنى به .. أو على الأقل لمح لى .

ـ ألا تظنين أن هناك شأنا لجدك أولعبد الرحمن بالمسألة ؟

ـ لا شىء مطلقا .. لقد سألته أنا نفسى ... إذ خطر ببالى أن يكون جدى قد عاد إلى رأيه الأول وأنه ندم على موافقته وأراد أن يفسد ما بيننا ... ولكنه أكد أن جدى لا دخل له فى الأمر.

ـ ألا يحتمل أن يكون هناك عنصر دخيل .. أعنى أمراة أخرى ؟

وبهتت راجية وبدت عليها علائم ألـم وضيـق ولكنهـا هـزت رأسـها بشدة كأنما تطرد الخاطر من نفسها وقالت فى لهجة جازمة .

ـ لا .. من أين تأتى المرأة الأخرى وأنا لا أكاد أفارقه لحظة ؟!

ـ على أية حال .. لا بد أن هناك شيئا .. وهذا الشيء إما أن تكونى أنت محوره .. أو يكون غيرك .. فإذا كنت أنت محـوره .. وإذا كـان شعوره نحوك ما زال كمـا هـو ، وأنـه لـم يتركك إلا وهوتحـت تـأثير طارئ لا إرادة له فيه .. فأنا أعتقد أنك وحدك التى تستطيعين شفاءه .. فإذا فرضت أيسر الفروض .. وهـو أن مـا بـه صدمـة عاطفيـة .. نتيجـة خذلان أو خيبة أو فشل أو غيره وهو ما تستبعدين أنت حدوثه .. كنت مضطرا أن أدخله فى دائرة الاحتمـال ... ولاسيما أنـه مخلـوق حسـاس جدا وليس أسهل من خدش شعوره .. وقد يكون فضل الانســحاب إثـر الصدمة فى صمت وسكون .

ـ ولكن هذا مستحيل .. أنا واثقة .

ـ أنا أقول إن هذا فرض .. إننا جميعا نجهل الحقائق المطموسة فى ذهنه .. وليس أمامنا إلا أن نفرض كل الفروض ونحاول أن نتمشى مـع جميع الاحتمالات .. حتى نتبين الحقيقة ونكشـف عنـه تلـك الظلمـات التى تغرقه .

ـ هب هذا الفرض صحيحا .. ماذا يمكن فعله ؟

ونزع توفيق منظاره وتشاغل بمسحه برهة .. ثم قال :

ـ من رأيى أن أعرضه لصدمة عاطفية أخرى .

ـ كيف ؟

ـ أفاجئه بك فى منظر يثيره.

وتصاعد الدم إلى وجه راجية.. وأطرقت برأسها .. وتمتمت قائلة :

ـ ولكن ...

ــ هذا مجرد عرض ... أنت حرة فى قبوله أو رفضه ، فأنت قد تقدمت للمساعدة بمحض رغبتك .. وأنت كما أعتقد أكثر الناس حرصا على شفائه .. والمسألة لن يكون بها ما يضايقك ... إنها مجرد تمثيل .. ستقفين هنا مثلا فى هذه الحجرة ومعك أى إنسان وقد تقاربتما فى وضع غرامى يوهم الداخل أن بينكما صلة حب .. فإذا أقبل هو عليكما وأبصركما فى هذا الوضع ؟.. فقد تثار غيرته وتلهب مشاعره وتوقظ عاطفته .. وقد تنفض تلك الانفعالات الحادة الأتربة المنهالة على ذاكرته وتبدد الغيوم الملبدة فى ذهنه .

وصمتت راجية وهى مازالت مطرقة برأسها .

وعاد توفيق يسأل :

ــ ما رأيك ؟

وبدا عليها التردد والحيرة ثم أجابت :

ــ كما تريد .. إنى أثق بك وإنى على استعداد لأن أفعل كل شىء من أجله .

ــ هذا حسن ، وأنا أعرف أنه طلب ثقيل ومهمة شاقة . وما كنت لأجرؤ على عرضها عليك لولا يقينى من سعة إدراكك إنها مجرد محاولة للعلاج والمسألة لن تستغرق أكثر من دقائق .

ودق توفيق الجرس ودخل الخادم فطلب منه أن يدعو الدكتور زكى ، وأقبل زكى وهو يقول :

ــ لقد طالت القصة .. أرجو أن تكون قد استطعت الوصول إلى شىء .

ــ سنجرب أحد الحلول الذى عرضته على الآنسة راجية .

ــ ما هو ؟

وشرح له توفيق ما اتفقنا عليه ثم أردف قائلا :

ــ لنتفق على موعد .. تحضر فيه راجية ، ثم تأتى به أنت فى

أعقابها وتدخله في حجرتي هذه عندما أطلب منك . أظن المسألة ستتم بسهولة ، وسأقوم أنا بعمل الرجل الآخر ـ برغم أني لا أجيده ـ حتى تكون التجربة في أضيق نطاق ... أليس هذا الأفضل ؟

وأشارت راجية برأسها علامة الموافقة .

وعاد توفيق يسألها :

ـ أى موعد يوافقك ؟

ـ أعتقد أنى أستطيع الحضور غدا فى نفس موعد اليوم ... ألا يناسبكما هذا ؟

ـ بالتأكيد ، سأكون في الانتظار.

ونهضت راجية وهى تمد يدها مصافحة :

ـ إذا أستأذن . وإن شاء الله نلتقى فى الغد .

وقال زكى وهو يسير بجوارها إلى الخارج .

ـ أتريدين أن أوصلك ؟

ـ متشكرة جدا .. سأعود بعربة أجرة كما أتيت .. وأرجوك أن تطلب من الخادم أن يستدعى واحدة .

وهبط كلاهما في المصعد بعد أن ودعا توفيق ، وعادت هى إلى بيت عمتها .. وعاد هو إلى عيادته .

وفى اليوم التالى قبل العاشرة كانت راجية تدق جرس العيادة وقادها الخادم إلى حجرة توفيق .. وبعد أن تصافحا قالت راجية :

ـ أظنهما لم يأتيا بعد ؟!

ونظر توفيق إلى الساعة وقال:

ـ الساعة العاشرة تماما ... أعتقد أنهما سيصلان خلال ربع الساعة .

وكان اليوم حارا ذا ريح راكدة ، وأوراق الأشجار ثابتة على الأغصان لا تهتز ولا تتحرك ، والجو فى داخل الحجرة لايكاد يحتمل .

وأخرجت راجية منديلها ، وأخـذت تجفـف قطـرات عـرق تصببـت حول عنقها . وقال توفيق وهو يدير مروحة كهربية على مكتبه :

ـ أظن المروحة قد تلطـف الحـرارة بعـض الشـيء .. تفضلـى علـى المقعد الآخر كى لا تتعرضى لتيارها .

وأبدلت راجية مقعدهـا .. وفـى نفـس اللحظـة طـرق البـاب ودخـل الدكتور زكى .

ولـم تكد تراه حتى همت من مقعدها وقـد أصابهـا اضطـراب شـديد وسألته فى لهفة :

ـ هل أحضرته ؟!.

ـ أجل .. إنه يجلس فى الشرفة.

ـ كيف حاله ؟.

ـ كما هو .

وسأله توفيق :

ـ والحقيبة ؟.

ـ مازال يحملها .

ونهض توفيق واتجه إلى أريكـة فـى مواجهـة البـاب وأشـار لراجيـة قائلا :

ـ تفضلى هنا .

ثم أردف موجها الحديث إلى زكى :

ـ سنجلس هنا فى مواجهة الباب وسأمسـك بيدهـا وأجعلهـا تسـتند برأسها إلى صدرى وسأعبث بأصابعى فى خصلة شعرها .

ثم سأل راجية .

ـ أهكذا كان يفعل ؟

وأطرقت راجية رأسها وقد بدا عليها شرود ووجوم .

وعاد يقول لزكى :

ـ اذهب أنت الان وأحضره .

وخرج زكى إلى الشرفة حيث جلس إبراهيم وقد أخـذ يتنقـل بعينيـه بين النيل والنخيل ومنبسط الخضرة الممتد أمامـه علـى مـدى البصـر ، وربت زكى كتفه قائلا فى رفق :

ـ هيا بنا .

ولم يجب إبراهيم ..

إلى أين هذه المرة ؟! لم لا يسأل ؟! ماذا يضيره من السؤال ؟ ولكن ما فائدة السؤال .. وهو لا يعى شيئا مما يقال له ؟! ما فائدة السؤال عن شيء بذاته .. وهو لا يدرى شيئا عن أى شيء .

لا .. لا .. لا فائدة . المهم هو أن يطبق جيدا على هذه الحقيبـة .. التى لا يدرى لم يحرص عليها .

أجل .. ماذا بها ؟! ولماذا يتعلـق بهـا كـل هـذا التعلـق ؟! لا بـد أن بهـا أشياء هامة .. وإلا لما أطبق عليها هكـذا .. إن بهـا شيئا خطيرا . أجـل .. أجل .

وكان زكى قد وصل إلى بـاب الحجـرة المغلـق .. وطرقـه طرقـات خفيفة ثم دفعه بيده ، وأشار لإبراهيم أن يتفضل .

وتردد إبراهيم برهة .. لم لا يدخل صاحبه أولا .. لقد تعود دائما أن يتبعه .. ولكن زكى لم يترك له فرصة للتردد وعاد يقول :

ـ تفضل .. تفضل .

ليتفضل إذاً ... إنه لم يتعود المقاومة .

وعبر الباب ومضت لحظة صمت .. وهو يحدق أمامـه ، وسـاد فـى الحجرة سكون مطبق .. كاد كل من فيها أن يكتم أنفاسـه ... ووسـط هذا السكون كان يعلو صوت واحد هو أن أزيز المروحة الكهربية تلـف فى مكانها حتى تبلغ أقصى اليمين ثم تعود إلى أقصى اليسار .

واسترعى الرجل والمراة الجالسان على الأريكة نظـره لحظـات قصـار:

وما لبث أن تحول انتباهه فجأة إلي صوت الأزيز ولم يعد يحس في الحجرة سواه .

وببطء وحذر أخذ بصره يتحول عن الكائنين المجهولين الجالسين أمامه .. إلى الصوت المريب الذى يئز فى الناحية الأخرى .

وفجأة صرخ صرخة رعب .

لقد وقع بصره على المروحة وأحس بأذرعها تتضخم وتتضخم .. وتقترب منه حتى تطبق عليه وتطويه فى لفاتها الفظيعة ، وأحس بالحجرة تدور حوله بسرعة .. ويصبح عاليها أسفلها وأسفلها عاليها .. وكأن جسده يوشك أن يتحطم ورأسه أن ينفجر .

ومد ذراعيه محاولا اتقاء شبح المروحة المطبق عليه ... وسقطت الحقيبة إلى الأرض وفتحت وبدت محتوياتها واضحة للعيان ..

ووجه زكى بصره بسرعة إلى ما ظهر من محتوياتها .. ثم تقدم ليسند إبراهيم الذى أوشك أن يتهاوى إلى الأرض وأجلسه على أحد المقاعد .

وانهارت راجية على الأريكة وقد أصابها يأس قاتل ... ورعب شديد .

كانت مفاجأة عجيبة لم يتوقعها أحد .

لقد كانت صرخته وانفعاله وانهياره أمرا متوقعا .. ولكن توقعه كان يجب أن يكون نتيجة المنظر المثير الذى أعد لمواجهته .

أما أن يكون ناتجا من رؤيته المروحة .. فهذا آخر ما كان يخطر على بال أحد .

وكان توفيق أول من تمالك نفسه فنهض بسرعة .. ليلقى نظرة فاحصة على محتويات الحقيبة .. علة يجد بها شيئا يلقى الضوء على هذه المعميات .

وبسرعة فحص ما بها .. فزادت به الدهشة .

ما هذه الأشياء الخطيرة التى يحرص عليها هذا المخلوق العجيب !

« إشارب » ، ونظارة شمس ، وكتاب يبدو أنه قصة كتب عليه بالإنجليزية « حذار من الشفقة » .

أهذا كل ما بالحقيبة ؟! أهذا هو مايحرص عليه ذلك الحرص العجيب ؟. ومايخشى أن يراه أحد ؟!

وهمس توفيق لراجية وهو يتساءل فى دهشة :

ـ أهذه الأشياء لك ؟!

وهزت راجية رأسها والبكاء يكاد يخنقها وأجابت :

ـ لا .

ـ وأحس توفيق أن راجية قد تحملت أكثر مما تستطيع ، وأن تجاهل إبراهيم إياها قد سبب لها يأسا فظيعا .

وربت كتفها وقال هامسا برفق :

ـ أظنك تستطيعين أن تتفضلى بالعودة .. آسف جدا على ما سببته لك ، ولكنى أعتقد أن تعبنا لم يذهب سدى ، دعى الأمر لى .. وسأبذل من أجله كل ما أستطيع من جهد .

وتمتمت راجية وهى تتجه فى انهيار نحو الباب :

ـ لست أظن أن هناك أملا .. لقد نظر إلىّ كأنه لم يرنى من قبل .

ـ لا تخشى شيئا ، إن الحالة ليست عسيرة كما تتصورين . بإذن الله سنتمكن من شفائه .. اذهبى أنت إلى البيت ، واستريحى ، وعندما نحتاج إلى معونتك سأبلغ الدكتور زكى .

وخرجت راجية .. ووقف زكى ينظر إلى توفيق فى دهشة ويأس وقال :

ـ ما كل هذا ؟! ما علة ما حدث ؟

ـ انتظر لحظة .

ثم دق الجرس وعندما أقبل الخادم قال له :

ــ قل « لامتثال » أن تجهز الحقنة .

وانصرف الخادم .

وكان إبراهيم قد استقر فى مقعده وتصبب العرق من جبينه وقد بدت عليه علامات الأ لم ، وراح فى نوبته .

وأمسك زكى بالحقيبة فوضعها بجواره .

ولم يكد إبراهيم يحس بها حتى أطبق عليها ... وأخذت أنفاسه تتلاحق كأنه يعدو فى سباق .

واتجه توفيق إلى دولاب زجاجى فى ركن الغرفة قد صفت به بعض العقاقير ، وأخرج منه زجاجة فوضعها على المكتب .

وسأله زكى :

ــ ما هذه ؟

ــ حقنة مخدرة .. تعطى فى الوريد .. وتجعل المريض فى شبه غيبوبة ، أعنى أنه يكون مانسميه نصف نائم أو « دائخا » وتجعله يفصح بأشياء كثيرة كامنة فى نفسه لا يستطيع الأفصاح عنها وهو فى تمام وعيه .

وأقبلت الممرضة بالحقنة ... وطلب توفيق من زكى أن يساعده على نقل إبراهيم إلى الفراش الصغير حتى يستريح عليه تماما .

وانتقل إبراهيم إلى الفراش فى استسلام المنهك الخائر القوى واستقر عليه فى استكانة واسترخاء .

ودفع توفيق بالإبرة فى ذراعه .. وبعد لحظات كان إبراهيم يقلب رأسه يمنه ويسرة ثم راح فى شبه إغفاءة .

وجذب توفيق مقعدا وجلس بجواره وقال لزكى :

ــ قل للممرض ... لايدع أحدا يدخل .

وعاد زكى بعد لحظة وجلس على مقعد بجوارهما .

وبدأ توفيق حديثه فى صوت خافت موجها القول لإبراهيم :

- كيف حالك الآن ؟! أهناك ما يضايقك ؟

وبعد فترة صمت أجاب إبراهيم بصوت خافت :

- لا .

- أبدا ؟!

- أبدا !

- ولا المروحة ؟!

واضطرب إبراهيم فى مضجعه وبدا كأنه يعانى ألما شديدا ، وأمسك توفيق يده فربت فوقها برفق وقال :

- لا تخش شيئا .. ليس هناك أبدا ما يستدعى كل هذا الذعر .. أنت هنا فى أمان تام .

ومد إبراهيم يديه وكأنه يدفع شبحا مخيفا :

- أبعدوها .

- ما هى ؟

- هذه المروحة المخيفة .. أبعدوها ... أبعدوها .

- لقد أبعدناها تماما .. لم يعد لها أثر .. وإن كنت لا أجد بها ما يستدعى كل هذا الذعر .. ماذا تخشى منها ؟

- إنها هى السبب .

- السبب فى ماذا ؟

- فى كل ما حدث .

- حدث لك ؟

- بل لها .

- من هى ؟

- ليلى .

- ليلى !! من تكون ليلى !

ـ ليلى أختي .. ليلى الصغيرة الجميلة .. لقد كان هذا الشبح القائم كالمارد ذى الأذرع الممتدة إلى عنان السماء هو السبب ؟

ـ أى شبح هذا الذى تعنيه ؟ وما صلته بالمروحة ؟

ـ إنها مروحة هواء ... مروحة ذات أذرع تديرها الريح لرفع المياه من باطن الأرض .

ـ وأين كانت هذه المروحة ؟

ـ فى الصحراء .

ـ وماذا فعلت بأختك ؟

ـ قتلتها .

ـ قتلتها ؟

ـ أجل قتلتها تماما .

ـ هذه حكاية عجيبة لا يعرفها أحد ؟

ـ لقد مضى عليها زمن طويل .

ـ أتذكرها جيدا ؟

ـ أجل كأنى أراها رأى العين .

ـ قصها عليّ .. قصها بحذافيرها وحاول ألا تنسى شيئا . وأخذ إبراهيم شهيقا طويلا وأخرجه زفيرا أطول ، وبدأ بصوته الخافت وعينيه نصف المغمضتين يقص القصة العجيبة قائلا :

ـ كان ذلك منذ عشرات السنين وكنت لم أزل بعد طفلا فى التاسعة . وكانت أختى « ليلى » فى الخامسة من عمرها .. وكان بيننا ما بين كل طفلين من عراك دائم وتنازع مستمر على الدمى والألعاب ، وعلى الطعام والشراب ، وعلى كل تافهة مشتركة بيننا ، وكنت أشعر فى كل معركة بيننا أن أبى وأمى يخذلانى وينصرانها .. ويؤنبانى ويدللانها ، ولا أكاد أتشابك وإياها من أجل لعبة من اللعب حتى أجد أحدهما انتزعها منى وأعطاها لها صائحا فى وجهى :

- عيب .. إنها أختك الصغيرة .

ويصيح الآخر مؤيدا :

- قلت لك مائة مرة لا تضايقها .. أنت كبير ويجب عليك أن تكون أعقل من هذا .

ثم يربتان كتفيها ويقبلانها .

وفى خلال هذه المعارك الصبيانية كنت أحس لها بالبغض وكانت كراهيتى لها تتزايد .. عندما أشعر أنها قد انتزعت منى حب والدى .. واستأثرت بتدليلهما وعطفهما . وعندما يشتد بى الغيظ أحيانا كنت أتمنى لو لم تولد .. فقد خيل إلى أنى كنت أسعد حالا قبل ولادتها .. وأن كل ما كنت أتمتع به من تدليل ودمى وألعاب قد تحول إليها .

وكنا نقضى الصيف فى الإسكندرية عندما ذهب بنا أبى للنزهة ذات يوم فى مكان قرب العامرية يسمى كنجى مريوط .

وإنى أذكره جيدا كما أذكر الطريق إليه .. وقد تفرع من الطريق الصحراوى وانحدر بين الرمال التى تنبت بها الأزهار البرية .. وعلى جوانبه وقف الصبية يحملون طاقاتها الزاهية يعرضونها على المارة .

وأذكر أن أول ما بدا لى فى المكان مراوح الهواء المتعالية فى الأفق القائمة على الآبار وسط المزارع المتناثرة وبجوار البيوت المتفرقة هنا وهناك .

وسارت بنا العربة وأنا أشير لليلى إلى المراوح كلما مرت بنا مروحة .. حتى وصلنا أخيرا .. إلى الاستراحة القائمة فى نهاية الطريق .

وكانت الاستراحة أشبه بفندق صغير فى أسفله مقهى تحيط به الأشجار المتكاثفة .. تجرى خلالها قنوات المياه النابعة من الآبار ، وتترامى على مدى البصر حقول الشعير الخضراء تتناثر بها أشجار الزيتون .

وجلس والدانا على منضدة فى الحديقة بين الأشجار ، وأخذت أعدو وليلى تلهو مع بقية الصبية المنطلقين فى الحديقة يلعبون بالكوة أو يركبون الحمير .

ونادى أبى الساقى فعدونا لننال نصيبنا من المرطبات وسألنا أبى عما ترغب فطلبت « جلاس » وطلبت ليلى « كازوزة » وطلب أبوانا « قهوة » .

وعدت وليلى نواصل اللعب ، ووالدتى تصيح بى :

ــ خذ بالك من أختك يا إبراهيم .

وعندما عاد الساقى بالطلبات عدنا مرة أخرى ، ومددت يدى آخذ « الجلاس » فصاحت ليلى أنها تريده ، ونظرت إليها فى ضيق وقلت لها محذرا :

ــ لقد طلبت أنت « كازوزة » يا ليلى .. خذى زجاجتك يا حبيبتى .

ــ ولكنى أريد « جلاس » .

وأحسست بحنقى يزداد وخشيت أن تصر على عنادها فاختطفت « الجلاس » وأنا أقول لها :

ــ أنا الذى طلبت « الجلاس » .

وكان الساقى قد فتح الزجاجة ، ولم يكن هناك سبيل إلى إعادتها . وأخذت ليلى تصيح كعادتها فى عناد وإصرار :

ــ أريد الجلاس .

ووجدت أبى ينظر إلى ناهرا ويقول منذرا :

ــ أعطها الجلاس .. ولا تعاندها .

ــ ولكنى أنا الذى طلبته .

ــ لا بأس ... خذ أنت الكازوزة .. هذه المرة .

ونظرت إلى ليلى فى ضيق .. وصحت بها :

ــ لماذا لم تطلبى « الجلاس » .. ما دمت تريدينه .. لن أعطيك شيئا .

واشتركت أمي في المعركة مؤيدة ليلى وقالت :

ـ إسمع كلام أبيك وأعطها « الجلاس » .

وكان الجلاس قد بدأ يسيح .. وأخذت ليلى تبكى . فصاح أبى :

ـ أعطها إياه وألا كسرت رأسك .

ودفعت بالكوب إليها ... وقد بلغ مني الغيظ مبلغه . وصحت بها :

ـ حذى « إن شاء الله تموتى » .

وهكذا كان الحال في كل شيء .. كنت أستسلم في النهاية ، مفرجا عن غيظي بدعوتى عليها أن تموت .

لم أكن أكره ليلى ، ولكن أبوى بتدليلهما إياها أثارا في نفسي البغضاء والكراهية .

ولم نكد نتهى مما في أيدينا حتى كنت قد تناسيت الأمر برمته... وأقبلت على ليلى أعدو وإياها لاهين ..

ومر بنا أحد « الحمير » التي يؤجرها أصحابها للمتنزهين فصحت بوالدتى أسألها أن تركبنى « حمارا » .

وكانت تتشاغل ببعض أعمال الإبرة في يديها فأجابتني ناهرة دون أن ترفع رأسها :

ـ ألا تكف لحظة عن الطلبات !! اذهب وخذ بالك من أختك .

ـ كل الأولاد يركبون الحمير .. لم لا أركب أنا ؟

وكان الرجل قد اقترب منا ... فأخذت ألح عليها ولم تجد بدا من الموافقة تخلصا من الإلحاح فقالت للرجل :

ـ دعه يركب .

وهنا صاحت ليلى :

ـ وأنا يا ماما ؟

وأجابت أمي :

ـ وأنت أيضا اركبى .

وعدونا كلانا إلى « الحمار » . وصاحت ليلى :

ـ أنا أركب الأول .

وعادت المجادلة مرة أخرى فصحت بها :

ـ أنا الذى قلت الأول .. وسأركب الأول .

وفى هذا قضى الرجل صاحب « الحمار » الخلاف قبل أن يستفحل فقد قال مهدئا :

ـ لا تتعاركا .. اركبا أنتما معا .

ورفعها أولا ثم رفعنى وراءها وسار بنا ووالدتى تصيح محذرة التحذير الدائم :

ـ لا تبعدا كثيرا .. وحافظ على ليلى .

وعندما ابتعدنا عن أبوينا واختفينا عن نظريهما فى أول منعطف بين الشجر قلت للرجل وأنا أضرب الحمار بساقى :

ـ دعه يجرى .

وبدأ « الحمار » فى العدو عندما صاحت ليلى مذعورة :

ـ يا ماما ..

وقلت لها مهدئا :

ـ لا تخافى يا ليلى إنى ممسك بك .

ولكنها استمرت فى الاستغاثة والصياح ، فاضطر الرجل إلى تهدئه سير الحمار .

ووجدتنى اضغط على نواجدى فى غيظ وقلت لها :

ـ إذاً انزلى برهة .. ودعينى أجرى .. ما دمت تخشين الجرى .

وأجابت فى عناد كعادتها :

ـ لا .. لن أنزل .

وكان شوقى إلى العدو « بالحمار » قد بلغ حدا لا يعادله إلا غيظى من ليلى ، وحاولت أن أرجوها فى هدوء فقلت لها متوسلا :

ــ يا ليلى يا حبيبتــى .. كونـى لطيفـة .. أنزلـى برهـة ..وسـأجعلك تركبين ثانية .

ولكنها تمادت فى عنادها .

ولم أجد بدا من خداعها والضحك عليها .. فقلت لها وأنا أشير إلى مروحة هواء مركبة على بئر فى مزرعة ملاصقة للمقهى :

ــ انظرى ياليلى .. ألم تشاهدى هذه العـروس التـى تغمـض وتفتـح عينيها ؟

ولم يكن هناك أحب إليها من حديث العرائس فالتفتت إلى وسـألت فى لهفة :

ــ أين هى ؟

ــ هناك بجوار المروحة .

ــ إنى لا أرها .

ــ إنها فوق .

ــ وكيف أتوصل إليها ؟

ــ إذا ما صعدت على السلم .. أمكنك رؤيتها .

ــ إذا دعنى أنزل .. إنى أريد مشاهدتها .

وأحسست بفرحة الانتصار ... وفى غمضة عين كانت ليلـى علـى الأرض تعدو إلى الطاحونة ، وكنت أنا أعدو « بالحمار » .

ولففت به لفة ثم عدت إلى حيث كنت ونظرت إلى أعلى .. ولشـد ما كانت دهشتى إذ وجـدت ليلـى مسـتمرة فـى الصعـود فـوق الهيكـل الحديدى المرتفع وقد أوشكت أن تبلغ القمة .

وتملكنى عليها ذعر شديد وصحت أناديها .

وعندما بلغتها صيحتى وجدتها تتلفت إلىّ .. ولم يكد بصرهـا يقـع على الأرض فى أسـفلها .. وتـدرك العلـو الشـاهق الـذى بلغتـه وتحـس تعلقها فى الهواء حتى أصابها اضطراب شديد ، وخـارت قواهـا ، ودار

رأسها .. فصرخت صرخة فزع مدوية وأفلتت قدمها من حديد السلم فهوت من أعلى .

وأغمضت عيني وسقطت من فوق الحمار واندفعت أعدو إليها .

وإني لأذكر منظرها وقتذاك وهي ملقاة على الأرض وقد تهشم رأسها وسال الدم من فمها فأحس أن شيئا في جوفي يكاد يهبط إلى أسفل .. وأن يدا تطبق على عنقي ، وكأنها تزهق أنفاسي .

ومن العبث أن أذكر مبلغ ارتياعي وفجيعتي .. وإحساسي بالجرم .. كنت أشعر في قرارة نفسي أني قتلتها .. ألم أدفعها إلى الطاحونة ؟! ألم أزين لها الصعود ؟ . الم أصح بها بعد ذلك وهي معلقة في قمتها .. فجعلتها تنظر إلي وتهوى إليّ الأرض ... وفوق ذلك كله .. ألم أكن أحس ببغض لها عندما تتعارك ، وأتمنى في كثير من الأحيان لو لم تولد !! الم أدعُ عليها منذ بضع دقائق قائلا :

« إن شاء الله تموتي » .

كل هذا كان يملأ قلبي شعورا بالذنب .

وأحسست في تلك اللحظة بمبلغ حبي لها .. وتمنيت لو امكنني استردادها ثانية .. وإعادتها لتلهو معي ، ومنعها من أن تذهب وتتركني وحدي ... وتمنيت لو استطعت أن أفتديها بعمري .. وأن أموت أنا وتبقى هي .

ولكن كل هذا لم يجد شيئا .. وماتت ليلى ... وحملها أبواى اللذان روعتهما الصدمة وتركتهما مشدوهين مذهولين وذهبت أسير وراءها خافض الرأس ذليلا حزينا محسورا .

ذهبنا كلنا وبقيت المروحة ، كما هي ، باسطة ذراعيها إلى عنان السماء كأنها مارد مخيف .

الفصل الثانى عشر

نائحه بين القبور

وصمت إبراهيم وبدت على وجهه علامات الألم والإرهاق الشديد .

وهز توفيق رأسه فى دهشة . وانتظر برهة ثم قال فى صوت خافت :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟.

ولم يجب إبراهيم وأطلق من صدره زفرة ضيق :

وانتظر توفيق فترة أخرى ثم عاد يسأل :

ـ تذكر ... أهذا كل ما يخيفك من المروحة ؟! إنها حكاية قديمة جدا .. ماذا أثارها فى ذاكرتك ؟! ما الذى أيقظها ثانية ؟ تذكر ..

وتململ إبراهيم وقال فى شبه همس :

ـ أنا متعب جدا .

ـ كفى هذا .. إذاً .. لا داعى لأن ترهق نفسك .. استرح .

تم تلفت إلى زكى وقلب شفته السفلى ورفع كتفيه فى شىء من الخذلان ثم أشار إليه برأسه .

ونهض الاثنان إلى ناحية المكتب بعيدا عن إبراهيم .

وقال توفيق :

ـ عجيبة !! يبدو أن المسألة تتعقد أكثر .

ـ ولكن كل ما قال لا صلة له بالموضوع .

ـ كيف ؟.. أنه هو نفسه الموضوع .. إنى أعتقده جازما ... أن هذه الحالة التى أصابته فى طفولته هى التى سببت له العقدة الأولى ..

إنها هى الداء الكامن فى نفسه من قديم العمر .. ولكنى أعتقد أيضا أنه لا بد أن هناك ما أيقظها .. فقد كان ممكنا أن تبقى كامنة إلى ما شاء اللّه .. ولكن شيئا جديدا أثارها .

ـ وما هو ؟!

ـ من يدرى .

ـ ولم لا نسأله ؟

ـ لا .. لن يقول شيئا .. لقد استنفدت كل قواه .

ـ أتظن أنه يمكن أن يفصح عنها فى مرة ثانية ؟

ـ اللّه وحده أعلم .. المسألة كما قلت لك معقدة جدا .

ـ أتقصد أنه ليس هناك أمل ؟

ـ لم أقل هذا .. ولكنها تحتاج إلى جهد كبير .. هناك أشياء كثيرة مجهولة .. لا أظنه سيفصح عنها ... لا بد أن يكون قد وقع له من الأحداث فى الفترة الأخيرة ما هيج كامن مشاعره . إن الفترة التى قضاها فى الإسكندرية يجب أن تبحث جيدا.

ـ وكيف يمكن بحثها ؟

وبدا التردد على توفيق وصمت برهة ثم أجاب :

ـ كنت أود أن نسافر به إلى الإسكندرية .. حيث مسرح الأحداث نفسه .. إذ يخيل لى أن الوسائل هناك قد تكون أفضل ، ولكنى فى هذه الفترة مشغول جدا .. لدى بعض المرضى الذين أتولى علاجهم .. ومن العسير على تركهم فى هذه المرحلة من العلاج .. ولذا فإنى أرى أن نقتصر على علاجه هنا .. وأن نحدد له ثلاث جلسات فى الأسبوع ... والمسألة تحتاج إلى بعض الصبر والتؤدة .. وكل شىء يحل مع الزمن .

ولم يبد على زكى الاقتناع وقال فى رجاء واستعطاف :

ـ أنا أعلم أنى قد أثقلت عليك .. ولكنى لا أحدثك كطبيب أو كزميل .. بل أحدثك كأخ .. إن إبراهيم عزيز علىّ كنفسى .. وأرجو

ألا تعتبره مجرد مريض ، بل اعتبره أخا لك كما هو أخ لى . إن مسألته لا تحتمل الصبر والتؤدة ما دامت أمامنا وسيلة ... فلم لا نطرقها .. إن مرضاك يمكن الصبر عليهم بعض الوقت .

وبدا الحرج على وجه توفيق ؟ وأخذ ينقر بأصبعه على المكتب ثم قال أخيرا :

ــ أعدك بأن أحاول جهدى .. اترك لى فرصة حتى أرى إذا كنت أستطيع أن أدبر أمرى .

ــ إنى واثق أنك ستستطيع ، سأتصل بك فى الغد فى مثل هذا الوقت لأسمع موافقتك على السفر ولكى نحدد موعدا له .

ــ إن شاء اللّه سأبذل جهدى .

وكان إبراهيم قد بدأ يفتح عينيه ونهض من الفراش فى تثاقل . وكان أول ما فعل أن مد يده فاختطف الحقيبة التى كانت مستقرة بجواره وأطبق عليها بذراعه ثم تلفت حوله فىدهشة .

وأخذ ينفض عن رأسه ما يثقلها واستطاع أن يميز صاحبه فشعر بشىء من الطمأنينة .. كما يحس الأعمى عندما يتحسس عصاه .. ولم لا ؟! أليس هو العصا التى تقوده ؟! ألم يتعود أن يتبعه إلى حيث يذهب دون أن يسأله أو يعلم منه ما الغرض من كل هذا التنقل ؟!

واقترب منه صاحبه وبجواره الرجل الآخر الضئيل الحجم ذو العوينات السميكة .

وتأبط صاحبه ذراعه ومد الآخر يده لمصافحته .

إذاً فهو سيترك المكان .. أجل .. لا شك فى هذا ... ومد يدا للمصافحة وأخرى للتأبط واتجه خارج الحجرة وهو يرد على مودعه بتمتمته غير المفهومة .

وبعد الظهر عاد توفيق إلى عيادته ليستقبل مرضاه .. وذهنه لم يستقر بعد على رأى .

إن به حقا رغبة أكيدة فى علاج إبراهيم .. فهو يقدره ويحبه .. ويكره أن يضيع عبقرى مثله .. ولكنه أيضا لا يستطيع ترك مرضاه والتنقل فى الإسكندرية ليستقصى أسباب العلة ... كأنه مخبر سرى .. إن واجبه كطبيب نفسانى لا يحتم عليه دلك .. إن ذلك أكثر مما يطلب منه كطبيب .

وجلس على مكتبه .. وطلب المريض الأول .

وفتح الباب ... ولم يدخل أحد المرضى بل دخلت راجية .

وبدت عليه الدهشة وسألها وهو يمسح منظاره محاولا إخفاء دهشه :

ــ إنى آسفة جدا لإزعاجك وإضاعة وقتك .. ولكنى أرجوك أن تعتبرنى أنا الأخرى إحدى مرضاك . لقد سألتنى فى أول الأمر معاونتك ... ولقد بذلت كل ما أستطيع .. وأنا الآن أسألك معاونتى .

ــ ليس هناك قط ما يدعو لهذا الاعتذار .. إنى أحب معاونتك من كل قلبى .. ماذا تريدين ؟

ــ لقد عرفت من الدكتور زكى كل ما حدث ... وسمعت منه قصة ليلى والمروحة .. وعلمت أن هناك عقدة كامنة فى إبراهيم أثارتها حوادث جديدة ، وأن العلاج قد يكون أتم لو سافرنا إلى الإسكندرية وأنت معنا .. ثم علمت أنك متردد فى السفر .

ــ ليست المسألة مسألة تردد .. ولكنها ارتباط بواجبى نحو مرضاى الآخرين .

ــ إنى أتوسل إليك يا دكتور .. لقد سمعت منى كل قصتى معه .. سمعت منى ما لم أجسر على قوله لأحد .. لأنك بعثت فى نفسى الثقة .. فأرجو ألا تتخلى عنى . أنقذه من أجلى .. إن حياتى معلقة به ، لا تدع القدر يحطمنى .. ويبدد أمانىّ .

ولـم تسـتطع أن تكبـت دموعهـا .. فانسـابت مـن عينيهـا وأخـذت ترتجف أمام الطبيب .

ونهض الرجل الطيب الرقيق فربت كتفها فى حنو قائلا :

ـ كفى .. كفى هذا .. لا تخشى شيئا .. سأذهب معك ولن أتركه حتى أسلمه لك معافى بإذن الله . إنك فتاة تستحق أن يكافح الإنسان من أجلها .. كفى عن البكاء .. إنك ـ بإيمانك ووفائك ـ أقوى من أن تسيل لك عبرة .

وفى خلال يومين كان الجميع قد عادوا إلى السيوف أو إلى مسرح الأحداث .

وبدأت أولى محاولات توفيق مع إبراهيم .

طلب توفيق من راجية أن تحضر له المسجل .. وقبيل المغرب حملت « سيدة » الجهاز وهبطت راجية من حجرتها تتبعها إلى الخارج ولمحها الجد وقد جلس فى حجرة المكتب مع عبد الرحمن الذى انهمك فى بحث بعض الأوراق ، وصاح بها الجد متسائلا :

ـ إلى أين يا راجية ؟

ـ سنحمل المسجل إلى بيت إبراهيم .

ـ ولمه ؟

ـ لقد طلبه الطبيب المعالج حتى يجرى به على إبراهيم بعض المحاولات .

ـ ولماذا لا ترسلينه مع سيدة ؟

ـ لقد طلب منى الدكتور الحضور .

ـ ولكن .. أتظنين من اللائق بعد ما حدث أن يراك الناس تترددين على بيته ؟

ـ لن يرانى أحد يا جدى .. وإنى غير ذاهبة للتسلية ، أو اللهو ، إنى أحاول أن أساعده فى محنته ، وأعتقد أن هذا واجب علىّ .

ـ تقصدين أنه كان واجبا عليك ؟

ـ وما زال ....

ـ ليس هناك ما يحتم عليك الذهاب إليه ... وليس هناك أبدا ما يبرر صلتك به بعد أن فكت خطبتكما .. وعقول الناس لا تفهم غير ذلك وألسنتهم لا ترحم أحدا .

ـ لا يهمنى الناس يا جدى .. أنى أفعل ما أراه صوابا ، وليقولوا ما يشاءون . إن إبراهيم مصاب وأنا أملك له بعض المعونة فليس من المعقول أن أمنعها عنه لأنى أخشى كلام الناس .. إنها مسألة إنسانية بحتة .. إن الإنسان يجب أن يقدم للمرضى كل ما يملك من معونة .. ولو لم يكن له بهم أدنى صلة .

وبدأ الجد يفقد هدوءه وقال فى حدة :

ـ لا تكونى عنيدة يا راجية .. ألم يكفك ما حدث ؟ لو سمعت نصيحتى من أول الأمر لما ..

ولم يكن عبد الرحمن قد نبس ببنت شفة ولكنه عندما وجد أن جده بدأ يثور وأنه يوشك أن يخوض فى حديث مثير لن ينتهى .. بدأ تدخله مقاطعا جده :

ـ دعها وشأنها يا جدى ... إن إبراهيم محطم منهار .. ويجب أن نقدم كلنا ما استطعنا من مساعدة .. إنه إنسان لم يسىء إلينا ولم يخطئ فى حقنا .. ولا يستطيع أحد أن يعرف الظروف المحيطة به .

ـ ولكن يا عبد الرحمن ... يجب أن تفهم راجبه .. أن الوضع ..

ــ إنها تفهم كل شيء .. راجية ليست صغيرة ... إنها إنسانة عاقلة ولقد قلت لها إن التجارب خير معلم لها ، فدعها وشأنها .. خذ هذا حساب السندات الأخيرة التي اشتريناها من شركة الحرير .

وأنهى عبد الرحمن بهذا الحديث مع راجية وأفلتت راجية وراء سيدة إلى بيت إبراهيم .

وكان توفيق قد جلس في الشرفة وفي الداخل جلس إبراهيم بحقيبته على إحدى الأرائك بجوار الدكتور زكي وقد بدت عليه السكينة والهدوء .

وأشار توفيق لسيدة بأن تضع المسجل فوق منضدة في الشرفة . وقال لراجية :

ــ أأحضرت الشريط الذي سجل عليه حديثكما ؟

ــ أجل .. هذا هو .

ثم أخرجته من صندوق صغير للأشرطة .

ــ أرجوك إذا أن تبدئي بإذاعته .. دعي الصوت خفيضا حتى لا يصدمه .

ــ إن الشريط يبدأ باللحن الذي سجله أولا فهل أذيعه كله ؟

ــ أجل ... لا بد من إذاعته .. حتى يهيئ لنا الجو المطلوب ويمهد للحديث .

ووضعت راجية الشريط .. وبعد لحظة علا اللحن رقيقا خفيضا .

ووصل اللحن إلى مسامع إبراهيم .. وأخذ في الانتباه واليقظة .. وأرهف أذنيه .. وأحس براحة لذيذة واللحن ينساب في نفسه .

هذا لحن جميل .. إنه ليس غريبا على مسامعه .. إنه حبيب إليه .. وأراح رأسه على ظهر الأريكة وأغمض عينيه في متعة .

وانتهى اللحن .. ومضت فترة وهو في استرخاء لذيذ ، حتى سمع فجأة صوتا يهتف :

ــ أين أنا ؟

وصوتا آخر يجيب :

ــ بين ذراعيّ .

وتملكته رجفة من قمة رأسه إلى إخمص قدميه .

واستمر الحديث ، وازدرد ريقه وكأن في حلقه غصة ، وتوترت أعصابه ... وتلاحقت أنفاسه .. وحاول أن يصم مسامعه عن الصوت المندفع إليه .. ولكنها زادت إرهافا وأخذت تلتقط الألفاظ المنسابة في وضوح :

ــ راجية .. أتحبينني ؟! قوليها لى فإنى أحب أن أسمعها من شفتيك .

وازداد توتر أعصابه وأحس بشيء يعتصر في باطنه فيسبب له ألما شديدا .. وحاول مرة أخرى أن يبعد مسامعه عن الصوت .. ولكنه أزداد وضوحا :

ــ لم يعد لى غنى عنك لحظة واحدة .

ووجد نفسه يعدو لاهثا والصوت يلاحقه كأنه المطارق تتهاوى على رأسه :

ــ بغيرك ... لا أستطيع أن أعيش .. أبدا .. أبدا .

واستمرت المطارق تهوى عليه :

ــ أبدا .. أبدا .

وندت عنه صرخة مروعة وهو يصيح :

ــ كفى ... كفى .

وأسرعت راجية فأوقفت الجهاز .

واستغرق إبراهيم في نوبته .. وتصبب العرق من جبينه وهو يعدو بين الرمال ... هاربا من شيء .. أوعاديا وراء مجهول .. وخيم عليه الضباب وتلاطمت حوله الأمواج .

وهز توفيق رأسه وقال :

ــ لا فائدة .. أعيدى الجهاز يا سيدة .

وأخفت راجية وجهها بين كفيها واهتز جسدها بالبكاء وأقبل عليها توفيق مهدئا :

ـ لا داعي لهذا .. إنها مجرد محاولة ..أمامنا غيرها ، محاولات أخرى كثيرة .

وتوالت المحاولات بعد ذلك .. وتوالى الإخفاق ... وازداد اليأس ، وحاولت راجية جهدها .. أن تستعيد إلى نفسه ذكرياتهما معا .. فصحبته إلى كل مكان كان لهما به ذكرى محببة .. قال عنها إنها ستخلد في نفسه .. صحبته إلى الشاطئ .. وإلى المتنزه النائي بجوار الحقول .. وإلى الحدائق ، وإلى معرض الرسم .

ولكن كل ذلك ذهب سدى .. كان يتحرك كأنه آلة صماء .. لا وعي ولا فهم ولا إدراك .. لا شيء سوى الاستسلام المطلق والشرود والذهول .. والإطباق على الحقيبة ذات المحتويات التافهة .

وذات صباح جلس توفيق في الحديقة وأقبل مدبولي يحمل الشاى .

وجرى حديث بينهما أشبه بالثرثرة .. « والدردشة » .

قال توفيق متلطفا مع الرجل وهو يصب له الشاى :

ـ كيف الحال يا عم مدبولي ؟

ـ واللّٰه ردىء يا سيدى الدكتور .. كلما رأيت سيدى إبراهيم وهو على حاله هذه أحسست أن سكينا يمزق أحشائي .. سيدى إبراهيم الرجل الطيب الأمير يحدث له هذا ؟! أمعقول أنه لا يعرفنى ؟ عشرة هذه السنين الطوال ؟ ثم ينظر إليّ وكأنه ينظر إلى خادم غريب .. ومن غير سبب !!

ـ ليس هناك شيء من غير سبب يا مدبولي .. لا بد أن يكون هناك سبب .

ــ والله يا سيدى من غير سبب .. لم يحدث له شيء أبدا .. ولا حاول أحد أن يزعجه أو يضايقه .. لقد كان « مبسوطا » أربعة وعشرين قيراطا ، وما أظننى رأيته في حياتى أسعد مما رأيته هنا .

ــ أكان سعيدا طول المدة ؟

ــ أجل .. عدا الفترة التى رده فيها سيدى عبد الوهاب ولكن الأزمة ما لبثت أن انفرجت وأضحى كل شيء على ما يرام .. وظل يرتع هو وسيدتى راجية .. كأنهما طفلان صغيران يلهوان ... حتى بدأت تظهر عليه علامات ذهول وشرود .

ــ منذ متى لاحظت هذا ؟

ــ قبل إصابته بيوم أو يومين .. ولكنى لم ألق إليه بالا .. فإنى أعرف أنها فترات يغرق فيها فى ذهوله .. ويقول لى إن الوحى يهبط عليه .. وقد ظننت أنها نوبات وحى كما كان يقول لى ... ولم أدرك أنها بوادر كارثة ستحل بنا ، حتى وقعت الواقعة .. إنها يا سيدى « عين أصابته » .

ــ ومتى رأيته أول مرة على حاله هذه ؟

ــ فى الصباح .. وقد أقبل علىّ شاحب الوجه زائغ البصر يضم الحقيبة تحت أبطه .

ــ وأين كانت الحقيبة ؟

ــ لا أعرف .

ــ ألم ترها من قبل ؟

ــ أبدا .. ولا أدرى عنها شيئا .. إنها لم تصل إلى يده إلا هذا الصباح لأنى عندما أعددت له الفراش فى الليلة السابقة لم يكن لها أثر .

ــ إذن من أين أتى بها ؟

ــ من يدرى .

ــ ألم يزركم أحد ؟

ـ مطلقا .

ـ أواثق أنت ؟

ـ لقد كنت آخر من نام فى الدار .. وأغلقت الباب بيدى هذه .

ـ إذاً فكيف وصلت إليه ؟

ـ ربما قد أتى بها من الخارج .

ـ متى ؟. إذا كان قد نام وليس لها أثر ، فكيف يأتى بها من الخارج ؟

ـ فى الصباح وهو يستريض كعادته .. ربما وجدها فى الطريق أو على الشاطئ .

ـ أكان عائدا من الخارج عندما رأيته ؟

ـ أجل .

ـ أمن عادته الخروج كل صباح ؟

ـ تقريبا .. إنه دائما يستيقظ مبكرا ... ومنذ أن حضرنا إلى هنا .. تعود أن يرتدى القميص والبنطلون وحذاء خفيفا .. ويخرج للسير أو للسباحة ثم يعود بعد ذلك للإفطار .

ـ وماذا فعل فى هذا اليوم ؟

ـ خرج كعادته .

ـ أرأيته عند الخروج ؟

ـ لا .. لقد خرج قبل أن أستيقظ .

ـ وهل كان يبكر دائما فى الخروج كما بكر فى هذا الصباح ؟

ـ غالبا .. فأنا لا أراه إلا حين عودته ، وقد أعددت له الشاى والإفطار .

ـ ألديك فكرة عما كان يفعله فى خروجه ؟

ـ لا شيء أكثر من المشى أو السباحة .

ـ فى أى جهة ؟

ـ ليست لديه جهة معلومة .. أحيانا يسير بين الحقول ، وأحيانا يتجه إلى الشاطئ وهو يحب السير الطويل .. لقد خرجت معه ذات مساء وسار بى حتى خارت قواى ولم تكد تحتملنى قدماى .

ـ وفي اليوم الذى حدثت فيه الإصابة .. هل تدرى إلى أين ذهب ؟

ـ والله لا أعرف بالضبط .. ولكنى أظن أنه منذ بضعة أيام قال لى من باب التفاخر : أتدرى إلى أين ذهبت اليوم يا مدبولى ؟ فلما أجبته بأنى لا أعرف . قال : حذر .. وظل يسألنى حتى قال لى أخيرا إنه ذهب إلى .. إلى ..

ـ إلى أين ..؟!

ـ إلى .. إلى .. لقد كنت أذكره .

ـ حاول أن تتذكر .

ـ ولكنى لست واثقا أنه كان هناك فى هذا اليوم .

ـ لا بأس .. ليس هذا مهما .. تذكر .

ـ إلى .. إلى .. اسم غريب .. كان اسم طير .. أجل .. أجل .. تذكرت .. إلى العصافير .

ـ تقصد .. العصافرة ؟

ـ أجل بالضبط العصافرة .. لقد سار إلى هناك .

وفى تلك اللحظة أقبل الدكتور زكى وتناول مقعدا ، وجلس بجوار توفيق وتساءل مدبولى :

ـ أأحضر لك شايا يا سيدى ؟

ـ لا .. متشكر .

وحمل مدبولى أدوات الشاى وعاد إلى الدار .

وقال توفيق :

ـ كنت أتحدث مع مدبولى وعلمت منه أن إبراهيم كان يستريض على الشاطئ صبيحة ذلك اليوم الذى أصيب فيه .

ــ وماذا فى ذلك ؟

ــ لقد عاد ومعه الحقيبة وهو فى حالة الذهول التى أصابته .

ــ أتظن قد حدث له فى أثناء سيره ما يمكن أن يكون له علاقة بالحادثة ؟

ــ ولم لا ؟

ــ ولكن كيف يمكن أن تعرف ما حدث له ، والشاطئ طويل لا حدود له ؟

ــ لقد قال مدبولى إنه منذ بضعة أيام سار إلى العصافرة .

ــ وماذا يفيدنا من ذلك ؟

ــ من يدرى .. على أية حال .. لست أرى ضررا من الوصول إلى هناك والسير على الشاطئ .. ألديك مانع ؟

ــ أبدا .

***

وفى صباح اليوم التالى استيقظ الاثنان مبكرين وقاد زكى عربته وبجواره توفيق . وتحركت العربة من السيوف فعبرت تقاطع شارع أبى قير عند « الكوبرى » الواقف عنده عسكرى المرور ثم اتجها إلى فيكتوريا عابرين مزلقان السكة الحديدية ثم دار يمينا حول كلية فيكتوريا حتى وصلا إلى الشاطئ واتجها إلى سيدى بشر وتجاوزاه حتى بلغا أحد أكشاك السواحل ، وبدأ زكى يتمهل بالعربة حتى وقف وهو يقول :

ــ أظن هذه هى العصافرة ؟

وقرأ توفيق اللافتة :

ــ أجل هنا :

ثم تلفت كل منهما حوله وقال زكى :

ــ لست أجد ما يسترعى الالتفات .

ــ دعنا نترك العربة ونجول قليلا .

وهبطا من العربة وكانت الريح شديدة تقـذف بـالموج متعاليـا نحـو الشاطئ فلا يلبث أن تتكسر حدته وينبسط فوق الرمال .

وكاد المكان يكـون خاليـا إلا مـن جنـدى الشـاطئ بمنظـره العتيـق وحزامه ذى الطاسة النحاسية العريضة .

ولم يطل بهما السير حتى عادا إلى العربة وقال زكى فى يأس :

ـ لا فائدة .. ماذا يمكن أن نجد على الأمواج أو بين الرمال .

وركب توفيق بجواره فى صمت ، وهم زكى بأن يدير اتجـاه العربـة للعودة ولكن توفيق قال له :

ـ دعنا نسير قليلا ..

وسارت العربة فى اتجاه المنتزه .. وقال زكى وهو يهز رأسه فى حيرة :

ـ حكاية عجيبة !! لست أدرى لها علة .. حتـى الحقيبـة التـى كنـا نظن من فرط حرصه عليها أن بها سرا .. اتضح أن لا بهـا .. ولا عليهـا .. نظارة شمس و « أشارب » .

ـ ولكن ترى لمن تكون ؟

ـ ظننتها فى أول الأمر لراجية كما ظننت أنت ، ولكنها قـالت إنهـا لم يسبق لها أن رأتها .

ـ يبدو لى أن فى المسألة .. امرأة أخرى .. وإلا فمن أين له بالحقيبة ؟

ـ ربما وجدها على الشاطئ .

ـ ربما ؟

واستغرق الاثنان فى صمت لم يلبث أن قطعه زكى بقوله :

ـ من ناحيتى أنا .. يخيل إلى فى كثير من الأحيان أن جـد راجيـة .. قد يكون له دخل فى المسألة .. أنـا أعـرف إبراهيـم جيـدا .. أعرفـه إنسانا فى منتهى الحساسـية .. أتذكـر مـا قلتـه لـك عـن ضمـيره الحـى المرهف .. الذى يأبى دائما إلا أن يثقل عليه ويظهـره بمظهر المقصـر الذى كان يمكنه أن يفعـل خيرا ممـا فعـل .. ويحملـه وزر كـل سيئة

تصيب من حوله ، ويجعله دائم القلق خشية أن يكون قد تسبب فى شقاء أحد أو خذلان أحد .. أتذكر هذا ؟

ــ أجل أذكره .

ــ يخيل لى أنه يحتمل جدا أن يكون فى أحد أحاديثه مع جد راجية .. قد فهم منه أنه قد أضاع مستقبلها .. وأنه حرمها حياة أفضل ... ولذلك صمم أن يتركها .. ولم يحتمل التضحية فأصابته الصدمة التى أصابته .

ــ تعليل معقول .. ولكن ما دخل الحقيبة ؟! وما سبب حرصه العجيب عليها ؟!

وهز زكى رأسه فى حيرة ..وعاد توفيق يتساءل :

ــ والمروحة .. ما سر هذا الخوف الفظيع منها ؟

ــ ألم تفسره أنت بحادث أخته ؟

ــ أجل .. ولكن هذه عقدة قديمة .. لا بد أن يكون قد أثارها شىء جديد .. ما هو هذا الشىء .. الذى جعله ينهار تماما .. والذى بدد خوفه القديم من المروحة ؟

وكانت العربة قد بلغت المندرة وأوشك زكى أن يدير العربة للعودة عندما أمسك توفيق بيده فجأة وصاح به :

ــ قف .

وسأله زكى فى دهشة :

ــ لم ؟

ــ انظر !! ألا ترى ؟

ــ ماذا ؟

ــ هذه الطاحونة القديمة .

وعلى ربوة عالية كانت تستقر إحدى طواحين الهواء مواجهة الشاطئ وقد تعالى بناؤها الحجرى العتيق باسطا ذراعيه — كما قال إبراهيم — إلى السماء .. كأنها مارد مخيف .

وهبط توفيق من العربة قائلا :

— تعال .

— إلى أين ؟

— نرى هذه الطاحونة .. فقد يكون بها ما أزعج صاحبنا .

وهز زكى رأسه فى دهشة وهو يتبع توفيق وتمتم قائلا :

— لست أرى بها أى سبب للإزعاج .

وأخذا يخوضان فى الرمال التى تناثرت فيها الحشائش البرية والصبار .. متجهين نحو الطاحونة وقد بدت حولها هياكل مقابر قديمة .. أحنى الزمن على قوائمها فتهاوت وتآكلت .

وبدأ المكان خربا موحشا والريح تنفذ خلال أذرع المروحة الخشبية التى بلى قماشها وتمزق .. فتصدر من خلاله صفيرا أشبه بالنواح .. حتى بدت الطاحونة العجوز أشبه بثكلى بين القبور . ووصلا إلى بابها بعد أن دارا حولها دورة قصيرة ووقف زكى أمام الباب المغلق متسائلا :

— أترى يسكنها أحد ؟

— دعنا نرى .

وطرق الباب بقبضة يده .. وتجاوبت فى الربوة الخالية صدى الطرقات . وبعد برهة صدر من وراء الباب صوت أجش يهتف متسائلا :

— من هناك ؟

— أنا .. افتح يا حاج .

— ماذا تريد ؟

ـ أريد مشاهدة الطاحونة .

وفتح الباب .. وهو يصر صريرا مزعجا .. ووقف وراءه عجور مغضن الوجه أبيض الرأس ، واهن العظم .. قد كسا جسده صديرى وسروال فصفاض .. ونظر إلى الرحلين وقد بدت عليه الدهشة ، وأقرأه الزائران السلام .. فأجاب الرجل مرحبا بصوته الأجش :

ـ وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته .. أهلا وسهلا .. تفضلا .

ثم أفسح لهما الطريق وفتح الباب على مصراعيه .

ـ متأسفين يا حاج ..

وتوقف توفيق كأنه يستبين اسم الرجل ، فأجابه الحاج بقوله :

ـ محسوبك شلبى .

ـ متأسفين يا حاج شلبى .. لم نكن نقصد إزعاجك .. ولكن منظر الطاحونة أغرانا بمشاهدتها .

وبدت على الرجل علامات الفخر .. وسره أن طاحونته ما زال بها ما يغرى بالمشاهدة ... وقال فى تواضع :

ـ تفضلا .تفضلا . ليس هناك أى إزعاج ، ولو أن الطاحونة .. قد أتلفها البلى .. وعفى عليها الزمن ، كما عفى على صاحبها .

ـ ربنا يعطيك الصحة .

ـ ولا صحة ولا عافية .. نحن نقول يا للّه حسن الختام ... أنأخذ زمننا وزمن غيرنا !

ـ البركة فيك يا حاج .

ـ اللّه يحفظكم .. تفضلا .. عدم المؤاخذة .. الطاحونة مظلمة .. ولكن عينيكما ستتعودان ظلمتها بعد لحظة .. وعندما نصعد إلى أعلى سنجد نورا أكثر .

وكان توفيق يدير دفة المجاملة بمهارة فقال للرجل :

ـ نورك يكفى .

ـ الله ينور عليك .

ووقف الثلاثة فى قاع الطاحونة وقد بدا أشبه بساحة صغيرة مستديرة وضع فيها كل ما يملك الرجل من أثاث ... فراش خشبى ومشجب من المسامير وبعض صفائح وصرر ومواجير ، وألقى توفيق على ما حوله نظرة فاحصة ورفع رأسه إلى أعلى فوجد السلم الخشبى المتآكل يدور صاعدا إلى أعلى .

كان منظر الطاحونة عجيبا ، بعروقها الخشبية الغليظة المتقاطعة والتروس الكبيرة والرحى الضخمة .

وتساءل زكى فى دهشة :

ـ أهذه الطاحونة كانت تدور ؟

وابتسم العجوز :

ـ هذه الطاحونة التى تراها كالهيكل البالى ... كان لها ماض .. إنها لم تكن تبطل أبدا . كنا نعمل بها ليل نهار .

ـ ومنذ متى وأنت هنا ؟

ـ منذ أن عرفت الحياة .. لقد ولدت بين حدرانها ، وقضيت عمرى فوق رحاها ، وسأموت فى باطنها .

ـ بعد عمر طويل إن شاء الله .

ـ طويل ؟! أبعد كل هذا يبقى لنا عمر طويل ؟ لقد أخذنا أكثر من كفايتنا .. يجب أن نتوقف عن الحياة .. كما توقفت الطاحونة ... لقد أصابنا من البلى ما أصابها ... ولكنها كانت أسبق منا إلى الموت .

ـ ولكن كيف كانت تدار ؟

ـ نضع القمح فى مكانه أعلى الطاحونة .. سأريكم إياه عندما نصعد .. فيهبط فى مجرى يصب فى وسط الرحى ، وعندما تفك السيور يدفع الهواء المروحة فتتحرك التروس التى تدير الرحى فيطحن القمح وينزل الدقيق فى أنابيب من القماش ، حيث نعبئه فى الصفائح .

ـ والآن .. ألا يمكن تشغيلها ؟!

ـ لا أظن .. لقد بليت السيور وكسرت المراوح وتمزق قماشها وتآكلت تروسها .. انتهت كما ينتهى كل شيء .. أبلاها الزمن الذى لا يرحم حتى الحجارة .. على أية حال لقد فعلت ما عليها .. أدت واجبها وأكثر من واجبها .. لقد أطعمت جيلا بأكمله .. ويكفيها كبرياء وفخرا أن تقف مصلوبة رافعة الهامة .. منتصبة القامة.. غيرها قد رقد فى باطن الأرض ، لا يستطيع أن يصلب عظمه أو يقيم عوده .

وكان توفيق ينصت إلى حديث العجوز وقد أخذت عيناه فى فحصه وفحص ما حوله .. وأخيرا قال متسائلا :

ـ أتبقى هنا دائما يا حاج شلبى ؟

ـ وإلى أين أذهب إذا لم أبق هنا ؟! إن هنا مأواى .

ـ ألا تخرج لترى الدنيا ؟!

ـ دنيا !!

وضحك الرجل فى سخرية ؟ ثم أردف وقد أطرق برأسه :

ـ ماذا أرى فى الدنيا أكثر مما أرى هنا .. عجلة تدور كما تدور المروحة ... واحدة تديرها ريح الزمن والأخرى تديرها ريح البحر ، واحدة تطحن بأيامها أبناء آدم والأخرى تطحن بحجارتها حبات قمح .. وفى النهاية .. يصبح هذا ترابا وهذا دقيقا .. ومن التراب ينمو القمح .. ومن الدقيق ينمو ابن آدم .. والعجلة تدور ، لا تشعر بهذا ولا بذاك ، والذى يذهب هذا ... ينبت ذاك .. لا فارق بين ابن آدم وحبة القمح إلا الغرور .. يظن نفسه شيئا .. وهوحبة فى الرحى .

ونظر الرجلان إلى العجوز فى دهشة .. لشد ما صدق فى كلمته .. حتى الطاحونة .. لها فلسفة .

وتقدم الرجل أمامهما صاعدا السلم الخشبى وهو يقول :

ـ تفضلا .. إلى أعلى .. أريكما الرحى والتروس وموضع القمح .. احذرا جيدا وانتقيا موضع أقدامكما .. فالخشب يكاد يهوى .

وصعد الثلاثة الدرج المتآكل وهو يئن من كل قدم تطؤه .

وأخيرا توقف الرجل .

وتلفت توفيق حوله فوجد الطابق العلوى قد أحاطت به النوافذ الضيقة وتوسطه حجران مستديران ثقيلان نفض عنهما إطار من الحديد وبدا أنهما كأنا يدوران بعمود ركب في وسطهما يديره ترس كبير من أعلى . وبدأ الرجل يشرح كيف كانت تعمل الطاحونة ، وعندما أتم شرحه اتجه توفيق إلى النافذة المطلة على البحر فصدمت وجهه ريح رطبة شديدة ، وأبصر من خلال النافذة جزءا من الرمال والأعشاب المحيطة بالطاحونة وتلاها جزء من الطريق ... ثم أخذ المنظر يتسع شيئا فشيئا كلما تباعد وبدت له رمال الشاطئ خالية تنبسط عليها الأمواج المتلاطمة حتى تنمحى .

واستطرد توفيق في الحديث سائلا الرجل :

ـ أتبقى هنا دائما ؟! لا تغادر الطاحونة أبدا ؟

ـ لا يخلو الأمر من شوط هنا وهناك .. جريا وراء القوت حتى لا نموت جوعا .. والله لا ينسى عبده .

ـ ألا يزورك إنسان ؟

ـ أحيانا .

ـ ألم يزرك أحد قريبا ؟

ـ والله لا أتذكر .

ووجد الرجل أن وقفة الزائرين قد طالت فقال وهو يشير إلى أريكة خشبية : .

ـ تفضلا .. اجلسا .. أم تفضلان الهبوط إلى الدور الأرضى حيث الجلسة أكثر راحة ، وحتى أستطيع أن أصنع لكما فنجانا من الشاى ؟

ـ أكثر اللّه خيرك يا حاج .. لا داعى لأن تتعب نفسك ... إننـا قـد تناولنا الشاى قبل أن نأتى إليك .

وهبط الثلاثة السلم .

وعاد توفيق إلى استجواب الرجل :

ـ لم تقل لى يا حاج .. متى قدم إليك آخر زائر ؟

ـ واللّه يا ابنى .. لا أذكر .. أظن منذ شهرين .

ـ بعد هذا .. ألم يزرك أحد ؟! تذكر جيدا !

ـ الذاكرة قد وهنت .. لم تعد تعى من أمسها شيئا .

ـ حاول أن تذكر .. ألم يزرك أحد منذ أسبوع فى الصباح المبكر ؟

ـ فى الصباح المبكر !!

وصمت برهة ثم رفع حاجبيه وهتف :

ـ أجل ... أجل .. تذكرت ... ولكنه لم يكن زائرا ، إنه لم يحاول مشاهدة شىء .. إنه لم يكن مخلوقـا طبيعيـا ... أو علـى الأقـل ... لـم يكن فى حالة طبيعية .. كأن به شيئا .

ـ كيف ؟.. وماذا دعاه إلى الدخول ؟

ـ لست أدرى .. لقد حدثت المسألة كلها فى دقـائق معـدودات .. طرق الباب طرقات عاجلة.. ولم ينتظر حتى أجيبه أو آذن لـه بـالدخول بل اندفع بسرعة إلىالداخل وقد تلاحقت أنفاسه وتلفت حولـه فىحيرة وعندما وقع بصره على السلم سألنى قائلا : أأستطيع أن أصعد إلى أعلى بضع دقائق ... ثم اندفع صاعدا قبل أن أجيبه بشـىء .. وتوجسـت منـه خيفة وظننته هاربا من أحد وتبعته إلى أعلى لأسأله عمـا بـه ، وعمـا إذا كنت أستطيع أن أساعده فى شىء . وعندما وصلت إلى هنا وجدتـه قـد وقف وراء هذه النافذة وأخذ يحملق منها كأنه يرقب شيئا علـى الشـاطئ . وهممت بأن أستطلع منه ماذا يرقب .. وماذا يريـد عندمـا انطلقـت منـه صرخة فزع مفاجئة كأنما قد أبصر ما روعه ، ثم اندفع يعدو إلى أسـفل

كالصاروخ وأنا فى أعقابه محاولا اللحاق به .. لأعرف منه شيئا أو لأعينه على شىء ، ولكنه انطلق يعدو من الباب .

وصمت الرجل فترة .. يتمالك خلالها أنفاسه ، ولكن توفيق سأله فى لهفة :

ــ وماذا أبصر من النافذة ؟

ــ وأنىّ لى أن أعرف .. لقد انطلق يعدو بين الرمال وتركنى حائرا .. وعندما صعدت إلى النافذة لأستطلع ما رأى لم أجد شيئا ألبتة .. كان الشاطئ خاليا كما تراه ... ولم أشك أنه مخبول .. وقلت لله فى خلقه شئون .

ــ ألم تر شيئا أبدا ؟

ــ أبدا .. أبدا .

وضغط توفيق على نواجذه غيظا ودهشة وقال لزكى :

ــ عجبا !! ما كل هذه الطلاسم ؟! ما الذى دعاه إلى الدخول .. فى مثل هذه العجلة ؟! وماذا رأى ؟

وسأله زكى وهو يهز رأسه فى حيرة :

ــ ولكن أواثق أنت أنه هو ؟

ــ أعتقد هذا .

ثم التفت إلى العجوز متسائلا :

ــ ما شكله يا حاج ؟

ــ شاب فى مثل سنك أسود الشعر أميل إلى السمرة ، يرتدى قميصا وبنطلونا .. طويل القامة عريض المنكبين .

وقال توفيق مؤكدا :

ــ إنه هو .. لاجدال فى ذلك .

ثم وجه السؤال إلى العجوز :

ــ أكان يمسك فى يده شيئا ؟

ـ شيئا كماذا ؟

ـ حقيبة مثلا ..!

ـ لا .. لا أظن .. لقد كانت يديه خاليتين .

وبدت على العجوز نظرات الحيرة والتشكك :

ـ ماذا فعل ؟! ولماذا تبحثون عنه ؟

ـ لا شيء .. لا شيء مطلقا .

ـ أنا على أية حال لم أر منه أكثر مما رويت .. لم أره قبل هذا ولا بعد هذا .. المسألة كلها ـ كما قلت لكم ـ لم تستغرق سوى بضع دقائق .. دخل مندفعا وخرج مندفعا دون أن أستطيع إبقائه ولا مقاومته وأنا رجل عجوز أكاد أجر ساقي .. وليس لي به أي شأن .

وقال توفيق مطمئنا :

ـ لا تخش شيئا يا حاج ... إننا فقط نحاول الاستقصاء عما فعله في هذا الصباح .. ألاتذكر شيئا غير ما قلت ؟

ـ مطلقا .

وأطرق توفيق برأسه مفكرا ثم قال بعد فترة صمت :

ـ متشكرين جدا يا حاج ... لقد أتعبناك معنا .

ـ العفو .. أنا لم أتعب في شيء .. كنت أود أن أقدم لكم فناجين من الشاي .

ـ شاكرين فضلك .. السلام عليكم .

ومد توفيق يده وسلم على العجوز واضعا في يده بضعة قروش .

وحاول الرجل التمنع ولكن توفيق ألح عليه :

ـ خذ يا حاج .. لقد أضعنا وقتك وأتعبناك .

وضحك الرجل :

ـ أما عن وقتي فهو ضائع ضائع ... وأما عن التعب فما أحسست منه شيئا .. أكثر الله خيرك وزاد فضلك .

وغادر الرجلان الطاحونة وطافا حولها ثم عادا إلى الشاطئ مرة أخرى دون أن يجدا شيئا يسترعى الالتفات .. وأخيرا اتخذ كل منهما مكانه فى العربة .

وقال زكى متسائلا وهو يدير العربة وقد وجد توفيقا مغرقا فى التفكير :

ــ فيم تفكر ؟! أتعتقد أن ما رواه الرجل صحيح وأن الشخص الذى دخل عليه هوإبراهيم ؟

ــ أجل .. أرجح هذا .. لقد كنت واثقا عندما وقع بصرى على الطاحونة أنها لا بد ستوصلنا إلى شيء .. أنى أعتقد تمام الاعتقاد أن هذه الطاحونة أو شيئا حولها .. هو الذى أثار الجذوة الكامنة فى نفسه منذ حادثة مروحة الهواء .. إن هذه الطاحونة بها حل العقدة الأخيرة .. إنها لا بد أن توصلنا إلى شيء .. فلو أعرف ماذا وقع عليه بصره من النافذة .. ما هذا الذى أفزعه ، وجعله يعدو كالصاروخ ... إنه قطعا لم يره بوجه المصادفة لأن صعوده إلى الطاحونة ، واتجاهه إلى النافذة يعنى .. أنه يعرف أن هناك ما يرقبه .. ترى ما هو ؟! لا بد أن نعرف .

ــ ولكن كيف ؟

ــ كيف !.. إنى سأغامر بالتجربة الأخيرة .. وإذا نجحت فسيكون فيها شفاؤه ، سأحاول أن أواجهه بالطاحونة .

وأخذت العربة تنساب فى الطريق مخلفة وراءها الشبح الطويل القائم على الربوة تصفر الريح فى أجنحته وتحيط به الشواهد .. كالطلل البالى ، أوكالنائحة بين القبور .

الفصل الثالث عشر

ليلى الثانية

فى صبيحة اليوم التالى كانت العربة تعدو مرة أخرى منسابه فى طريق الكورنيش متجهة إلى المندرة .

كان زكى يجلس أمام عجلة القيادة وبجواره إبراهيم مطبقا بذراعه على الحقيبة وفى المقعد الخلفى جلس توفيق يرقبه .

كان إبراهيم يجلس فى حذر وهو يتساءل أسئلته الحائرة التى لا تتجاوز شفتيه .

لماذا خرج به صاحبه فى هذه الساعة المبكرة ؟.. لقد قال إنه سيذهب به فى نزهة على الشاطئ .

ولكن من قال إنه يريد أن يتنزه !! لقد كان يفضل لو أنه تركه مستريحا آمنا فى حجرته .. ولكنه مع ذلك لم يملك سوى الموافقة والاستسلام .

إن هذه أفضل كثيرا من الاستفسار أو المعارضة .

وكانت العربة تجتاز الشارع الموصل بين شارع أبو قير والكورنيش ، ولم تكد تعبر شريط الترام حتى أخذ الطريق فى الانحدار ، رويدا رويدا ، وبدا البحر بأمواجه المتكسرة وهديره الجياش .

وأحس إبراهيم برعدة فى جسده .. وتلاحقت أنفاسه .

أف لهذه الزرقة المترامية .. والعباب المخيف ، لشد ما يحس أنه يكرهها ويخشاها .

ماذا حدا بصاحبه أن يأتى به إلى هذا المكان المروع ؟!

ولفت العربة يمنة .. وانسابت في طريق الشاطئ .. وقد ثبت إبراهيم عينيه على الأمواج المتلاحقة .

وبعد ؟!! أما لهذا البحر الزاخر من نهاية ؟! إنه يحس منه بما يشبه الغثيان .. إنه يكرهه ... ويخشى هذه الرمال الناعمه التى تكاد تبتلع السائر عليها .

وأحس بأنه يكاد يغيب فى أحلامه المفزعة ، ويوشك أن يعدو هاربا من الأصوات المروعة التى تلاحقه ، أو التى تستغيث به .

ووقفت العربة .

حمدا لله .. لقد انتهت الرحلة البغيضة .

ولكن لم يقفان هكذا على الشاطئ ؟.. أيخبرهما أنه يكره البحر ويخشاه !!

ولكن إذا سألاه .. لمه ؟ فماذا يقول ..

أجل .. لماذا يخشاه !! إنه ليس طفلا .

وهبط صاحبه من العربة .. وبدا له أنه لا بد له من الهبوط كذلك .

إلى أين ؟

وأتاه الجواب من صاحبه وهو يفتح له باب العربة ويسأله :

ـ أتحب أن تتنزه قليلا على الشاطئ ؟

وعادت الرعدة تسرى فى بدنه .. وكان بصره مثبتا فى المياه الزرقاء الصاخبة الموج وكأنه لا يستطيع انتزاعه منها .

نزهة على الشاطئ ؟ وفى هذا المكان ؟

لا.. لا .. هذه المرة .. لن يستسلم أبدا .. سيقاوم مقاومة عنيفة .. لن يتركهم يأخذوه إلى هذه الرمال الفظيعة والأمواج المخيفة .. لا .. لا ..

ووجد نفسه يهتف بحدة وهو يهز رأسه :

ـ لا .. لا .. أنى أكره البحر .. أكرهه .. لا تأخذونى إليه . وربت

الرجل الأخر كتفه محاولا تهدئته .. وقال في رفق :

- لا تخف .. لن يأخذك أحد إليه .. دعنا نهبط لنتنزه في الناحية الأخرى .. ما دمت تكره البحر .

أجل .. هذا أفضل .. أفضل كثيرا .. ومد قدمه فأخرجها من باب العربة وأسندها على الرصيف ثم أحنى رأسه وغادر العربة وكنزه الثمين ما زال تحت إبطه .

ووقف على الرصيف وتنفس الصعداء وهو يدير ظهره للبحر وقد أحس بشيء من الهدوء والراحة.. ولكنه لم يكد يرفع بصره .. ويرى ما أمامه حتى بدت عليه أقصى آيات الرعب والذعر .

هذا المارد المخيف يوشك أن ينقض عليه .. أجل .. أجل .. إنه يبدو مروعا .. بضخامته وارتفاعه وفظاعة منظره ، وهذه المخالب المخيفة المرتفعة التي توشك أن تطبق على أنفاسه وتمزق جسده أربا أربا .

وهذا النواح المخيف .. الذى لا ينفك يصدر من جوفه كأنه نواح الضحايا الذين افترسهم .

لا .. لا .. أبعدوه .. إنه لا يحتمل .. الغوث .. النجدة .. الرحمة .

وأمسك الرجلان به من ذراعيه وهو يوشك أن يتهاوى إلى الأرض .

وأخذا يسيران به تجاه الطاحونة وهويحاول التملص .. بكل ما يملك من قوى خائرة .. وجسد منهك وأعصاب محطمة .

ووصلوا إلى الباب فطرقه زكي بقبضته ، ولكن توفيق لم ينتظر حتى يفتح العجوز بل دفعه بقدمه فانفتح واندفع الثلاثة إلى الداخل ، وإبراهيم قد تصبب منه العرق بغزارة وعلى وجهه شحوب مخيف .

وصاح توفيق بالرجل العجوز في عجلة :

- يا حاج .. سنصعد بعد إذنك إلى أعلى .. لا تؤاخذنا في هذا الإزعاج ، ولكن المسألة يتوقف عليها شفاء مريض .

وصعد الرجلان السلم الضيق المتآكل وهما يكادان يحملان

إبراهيم .. الذى تثاقلت أقدامه وأحس كأنه يجر بهما أكياسا من الرمال .

هذا المكان مخيف .. مخيف جدا.. إنه يحس كأن به شبحا يطبق على عنقه ويخمد أنفاسه .

أما من مغيث !! أما من منجد !

وأخيرا وصلا إلى الطابق العلوى .. ومد توفيق يده فجذب صندوقا وضعه بجوار النافذة المطلة على الشاطئ . ثم تعاون مع زكى على وضع إبراهيم فوقه .

وأحس إبراهيم بريح رطبة تلفح وجهه واستنشق منها شهيقا ملأ به صدره وشعر ببعض الانتعاش .. وخف عنه ذلك الحمل الذى كان يجثم فوق صدره ويطبق على أنفاسه وأخذت الأشباح التى تكاثرت عليه تتباعد رويدا رويدا .

وأدار وجهه إلى النافذة .. وألقى ببصره على ما وراءها .

وفجأة ندت عنه صرخة عنيفة تجاوبت صداها جدران الطاحونة ثم وثب من مكانه وثبة عنيفة وهم بالاندفاع هابطا إلى أسفل .. ولكن توفيق كان أسرع منه حركة فحال بينه وبين الهبوط وتعاون مع زكى على إعادته إلى مكانه .

وحاول إبراهيم التخلص وهو يصيح :

– لا بد لى من اللحاق بها .. لا بد أن أحدثها قبل أن تذهب .

وأخذ ينظر حوله فى ذهول ودهشة :

أجل .. أجل .. لا بد أن ينطلق فى إثرها قبل أن تتحرك العربة . ولكن أين العربة ؟! وأين هى ؟.

أم تراه فى أحد أحلامه المزعجة !

أجل .. لا شك فى هذا .. ولكن من هؤلاء ؟! ومن أحضرهم فى حلمه !.. لعلهما صاحباه .

ولكن ماله بهما .. إنها هى التى يهمه أمرها .. يجب أن يعدو إليها .

وهمّ مرة أخرى بالنهوض ، ولكن توفيق كان يمسك بذراعه جيدا .

وعاد يحدق من النافذة .. فى الأمواج المتلاطمة .. والرمال المنبسطة ، وأحس كأن رأسه يوشك أن ينفجر ، ووضع يده عليه وأخذ يضغط جبينه عله يوقف ذلك الانفجار ، الذى خلط كل شىء برأسه وجعل كل المرئيات تتشابك وتتداخل كأنه واقع فى دوامة .. أو كأن المروحة قد أطبقت عليه بذاراعيها وأخذت تدور به .

وأخيرا بدأت الحركة تخف، والدوامة تهدأ ، والمروحة تتوقف .. رويدا .. رويدا .. بدأ ينجلى كل شىء .

إنه هنا .. فى نفس المكان الذى كان به آخر مرة .. هذه هى الطاحونة المشئومة بعروقها البالية ، وتروسها المتآكلة ، ورحاها المحطمة ، ومنظرها الكئيب الموحش .. وهذا هو نفس المنظر الذى أبصره من النافذة .. الأعشاب الشائكة ، والقبور المهدمة والطريق ، والرمال ، والأمواج المتلاطمة .

وهذا هو زكى .. ماذا أحضره إلى هنا ؟! بل ماذا جاء به هو نفسه إلى الطاحونة ثانية ؟! إنه لا يذكر كيف أتى .. ولا يذكر أيضا هذا الرجل الجالس بجواره ذى العوينات والذى يربت ساقه برفق ويقول له مترفقا :

ـ كيف الحال الآن ؟!

كيف الحال ؟!.. إنه يشعر بانهيار شديد .. أعصاب محطمة وأعضاء مهدمة ، وقوى خائرة ، ورأس مجهد متعب .

ولكنه لم يملك إلا أن يقول فى ضعف شديد :

ـ الحمد لله .

وسأله الرجل :

ـ ماذا أخافك من النافذة ؟! من الذى كنت تريد اللحاق بها ؟

وتذكر ما أخافه من النافذة .. وأصابته قشعريرة شديدة . وأخفى عينيه براحته وقال :

ـ لا فائدة .. لا فائدة هناك .. لقد انتهى كل شىء .. لقد ذهبت بلا عودة .

ـ من هى ؟!

وأجاب إبراهيم فى شبه همس :

ـ ليلى .

ـ من تكون ليلى ؟ ليلى أختك ؟

ورفع إبراهيم حاجبيه فى دهشة شديدة ثم قال فى حزن :

ـ من أدراك بليلى أختى ! إنها ذهبت منذ زمن طويل .

ـ إذن من تقصد بليلى ؟

ـ ليلى الثانية .. ليلى المسكينة .

ثم أطلق زفرة حارة وعاد يخفى وجهه بكفه ، وقال توفيق مهدئا :

ـ لا داعى لهذا .. قص على ما حدث ... أتذكره جيدا ؟

ـ أذكره بالطبع .. ولكن لماذا تريد أن تعرف ؟.

وأجاب زكى :

ـ يريد أن يعرف من أجلك .. إنه الدكتور توفيق الذى يتولى علاجك بعد أن أصبت بالصدمة التى أصبت بها .. قص عليه ياإبراهيم كل شىء وثق به .

وتنهد إبراهيم .. وشرد ببصره من النافذة وأخذ يقص القصة فى صوت خفيض متهدج :

« كنت أسير على الشاطئ ، كعادتى كل صباح ، وطال بى السير وأنا أبصر المكان من حولى خاليا ، والشاطئ على طوله لا يكاد يطرقه أحد سواى ، وكنت أشعر أن هذه الزرقة الجياشة والصفرة المترامية قد باتت كلها ملكا لى وأننى أتنزه فى أملاكى الخاصة .

وبهذا الأحساس العجيب والنشاط الذى يملأ جسدى والقوة التى تتدفق فيه .. أخذت أقطع الطريق فى نشوة والوقت ربيع ونسيم البحر يملأ جوانحي والشمس ما زالت مختفية وراء المشرق تحاول جاهدة البزوغ من وراء البيوت المتناثرة على الشاطئ .

وفجأة .. ووسط هذا الفراغ الطويل العريض وجدت من يشاركنى فى أملاكى الخاصة .. ووجدتنى أتوقف على حاجز الشاطئ لأرقب هذا المخلوق العجيب الجالس وحده فى هذا الخلاء .

وأخذت أحملق فى عجب شديد ، والسكون قد ران من حولى إلا من حفيف الموج المنبسط على الرمال ، الموجة تلو الموجة .

ووجدت بصرى قد لصق بها لا يبغى عنها حولا كأن بها شيئا عجيبا .. لست أدرى ماكنهه .. يشدنى إليها .

قد تكون وحدتها فى ذلك الفراغ العريض والوقت المبكر . أو تكون رقتها البادية من هيلكها النحيل ووجهها الدقيق .. أو يكون .. أكثر من هذا وذاك .. ذلك الشبه العجيب الذى وجدته بينها وبين مخلوقة عزيزة على فقدتها وهى طفلة منذ أمد بعيد .

ووقفت أتأملها دون أن تشعر وقد جلست على الشاطئ تتشاغل بإبرتين طويلتين فى يدها ولفافة من الصوف على حجرها .. وقد ارتدت ثوبا بدا فضفاضا حول جسدها النحيل ولفت حول رأسها « إيشارب » من الحرير .

وعلى حين غرة .. أطارت هبة من ريح البحر « الإيشارب » الذى يلف رأسها .. وشعرها الذهبى ، وانطلق المنديل يعدو والريح تطارده فوق الرمال ، وبغير إرادة منى وجدتنى أقفز الحاجز وأعدو فى الرمال ، أسابق الريح وراء المنديل المنطلق .

وأخيرا أمسكت به واستدرت عائدا ليقع بصرى عليها تنظر فى ابتسامة .. دهشة من هذا المخلوق الذى انبعث من باطن الأرض ليحضر لها المنديل .

ووقفت أمامها أمد يدى بالمنديل فتناولته وهى تتمتم فى استحياء :

ـ متشكرة جدا .

ـ العفو .

وانعقد لسانى فلم يسعفنى بأكثر من هذا .. وحاولت أن أطيل الحديث فقد كانت بى رغبة خفية في الحديث إليها ، ولكن حياءها الطبيعى .. وحيائى الطارئ ، جعل الموقف ينتهى عند هذا الحد ... ووجدتنى برغمى أشير إليها برأسى ثم أنصرف عائدا إلى الطريق .

وفى تلك الليلة ... وجدت صورتها تعاودنى مرة أو مرتين .. برأسها الجميل المطرق فى استحياء .. ويديها متشاغلتين بالإبرتين الطويلتين .. وفى كل مرة تطوف صورتها فى ذهنى تلاحقها صورة أخرى ، باهتة حائلة ، كاد الزمن يطمس معالمها ويخفى قسماتها .. هى صورة ليلى الصغيرة .

وفى اليوم التالى .. كنت أقف وقفة الأمس .. وأنا أرنو إليها ببصرى دون أن أجرؤ على التقدم إليها .. أو مبادأتها بالحديث .

ومرة ثانية .. وجدت الريح قد كفتنى مئونة التمنى والتطلع . وبهبة منها .. منحتنى فرصة أخرى .. كان على ألا أتركها تفلت .

لم يكن المنديل هذه المرة هو الذى أطارته الريح .. بل كانت ورقة من كتاب انهمكت في قراءته .. وسواء عندى أكان المنديل .. أم ورقة .. اندفعت مرة أخرى أسابق الريح فى مطاردة الصيد الثمين .. وسرعان ما أطبقت على الورقة الهاربة لأعيدها إلى قواعدها المستقرة على حجر الساحرة .

ووقفت أمد يدى بالورقة . وابتسمت هى وقد تملكها استحياء أشد .. وأجابتنى بصوت هامس :

ـ متشكرة جدا .

وبرغم أنه كان يجب على أن أحذر رد البارحة الذى يختم الحديث فقد وجدتنى أتورط فيه قائلا فى ارتباك :

ـ العفو يا أفندم .

وكاد الحديث ينقطع والصمت يخيم بحيث لا أجد لى مفرا من الانصراف . ولكنها .. كانت أسرع منى وأقدر على وصل ما انقطع فقالت متمتمة :

ـ متأسفة جدا .. إنى أتعبتك مرة أخرى .. واضطررتك إلى الجرى .

ثم أردفت قائلة وقد علت وجهها ابتسامة حلوة :

ـ ولكن ما حيلتى ؟! تأبى الرياح إلا المعاكسة عند مجيئك .

ووجدت باب الحديث قد فتح ، والكلفة قد أزيلت ، والمزاح مستطاعا ، فقلت ضاحكا :

ـ ليس لى إلا أن أشكر فضلها .. لأنها منحتنى فرصة طيبة .

ـ إذاً فأنتما على اتفاق ؟

ـ أنا والرياح ؟! يا ليت .

ـ يا ليت ماذا ؟! أيهمك أن تتفق مع الرياح ؟

ـ ومن الذى لا يهمه هذا ؟! ألا يكون الإنسان مع الرياح أفضل من أن يكون ضدها .. على الأقل يضمن ألا تأتى بما لا تشتهى السفن !

وزادت ابتسامتها وقالت فى جذل :

ـ وماذا تشتهى السفن ؟.

ـ أمنيات كثيرة .

ـ مثل .

ـ أظن أول مـا تشتهيه ، هـو أن تجلـس قليـلا ، أعنـى ترسو علـى الشاطئ برهة .

ـ وماذا يمنعها ؟

ـ تخشى أن تعصف بها الرياح وتطردها شر طردة .

ـ لو كانت عاقلة .. لرسـت برهـة ثـم سـارت قبـل أن تعصـف بهـا الرياح .

وضحكت .. واعتبرت قولها إذنـا بـالجلوس برهـة .. وهبطـت إلـى الرمال بجوارها .. وأخذت أتحـدث معهـا متطلعـا إليهـا فـى نـوع مـن الشغف .

وتحدثنا حديثا عابرا .. عن البحر والهواء ، وأشـياء أخـرى تافهـة لا أذكرها حتى بدأت أحس منها قلقا .. وتذكـرت نصيحتهـا .. فنهضـت واقفا ومددت يدى أصافحها قائلا :

ـ لقد آن للسفن أن تسير .. فإن الريح توشك أن تهب .

وعلت ضحكتها وهى تشد على يدى قائلة :

ـ إنها سفن مطيعه طيبة .. مع السلامة .

وعدت إلى الدار وبى نشـوة .. ولكنهـا نشـوة غـير خالصـة .. بـل يشوبها كثير من قلق وخشية .. قلق مبعثه وخزات متتابعة مـن الضمـير .. وخشية منشؤها الإحسـاس بـأن التـوازن يكـاد أن يضيـع والاسـتقرار يوشك أن يذهب .

وألحت صورتها على أكثر من الليلـة السـابقة ، وكـانت هـذه المـرة تلاحق صورتها صورة ليلى الصغيرة ، وصورة ثالثة تلاحق الصورتيـن .. هى صورة راجية .

لقد بدأ النضال .. وبدأت الموازنة .. وكان على أن أستوضح النفس ما خفى من أمرها ، وأسائلها ما مرادها ؟

ورحت أؤكد لنفسي أني أحب راجية .. أحبها أكثر مما أحب أي شيء في هذه الحياة .. بل أكثر من الحياة نفسها ، وأن أرض حبنا أثبت من أن تهزها هزة يسيرة طارئة ، وأن شجرته أصلب من أن تعصف بها نسمة خفيفة عابرة .

ورحت أوقف وخز الضمير بجزمي أن المسألة لا تستدعي كل هذا القلق .. وأن من الغباء أن أخشى على راجية من لقاء عابر لفتاة لا أعرف شيئا عنها .. حتى اسمها .

وذهبت إلى راجية ... لأؤكد لنفسي وفائي لها .. وتناجينا تلك الليلة بأعذب المناجاة وأرق الحديث .

وفي الصباح التالي .. وبغير إرادة ولا تفكير ، كنت أجلس على الرمال أمام الساحرة الرقيقة الشقراء .. بلا انتظار معونة من الريح ، أو إذن منها .

وفي هذه المرة .. لم أشعر بجهد في خلق الحديث ... لقد زالت الكلفة .. وأقبل كل منا على صاحبه إقبال صديق حميم .

ولم أستطع أن أمنع رجفة سرت في أوصالي عندما علمت منها أن اسمها ليلى .. ولم أستطع أن أمنع نفسي كذلك من استعادة صورة ليلى الصغيرة .. هاوية من عل .. مسجاة على الرمال .

وسرعان ما طردت الشبح البائد والصورة الغابرة وأقبلت على ليلى أقول مازحا :

- أتستطيع السفن أن ترسو على الشاطئ كل صباح ؟

- الشاطئ ممتد ، وحرية الرسو مكفولة .

- أقصد .. أن ترسو على هذه الميناء ذاتها ؟

- هذه الميناء ذاتها ؟ ولمه ؟

- لأنها أكثر ملاءمة .

- إذا كان الأمر كذلك فلا بأس من رسوها .. ولكن لفترة قصيرة .

– وإذا أطالت ؟

– تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .. وتطردها شر طردة .

– لا .. لا .. لا داعى لذلك .. إنها سترحل بمجرد أن تحس من الرياح أول هبة .

– اتفقنا إذاً ؟

– أجل .

وهكذا اتفقنا على لقاء دائم يستمر حتى أرى منها قلقا فأرحل .

ووجدت فى يدها كتابا سميكا فسألتها :

– أهذا هو كتاب الأمس الذى أطارته الريح ؟

– أجل إن الكتاب كبير والغلاف رقيق ولذلك يتفكك ورقه بسهولة .

– أأستعد إذا للعدو ؟

– لا .. اطمئن .. إنى أمسك به جيدا .

– ما موضوعه ؟

– إنه قصة طويلة .

– أعجبتك ؟

– لم أتمها بعد .. ولكنى كنت منذ لحظة أقرا فى قطعة لطيفة أعجبتنى .

– عن أى شىء ؟

– إنها حديث على لسان بطلة القصة .. تصف أول شعور لها بالحب .

– أأستطيع سماعها ؟

ومدت يدها إلىّ بالكتاب وقد فتحته على صفحة معينة وأشارت بأصبعها قائلة :

– هنا .. أول هذه الصفحة .. خذ اقرأ .

ـ ولم لا تقرئين أنت ؟! أنى أحب أن أسمعها منك .

وعلا وجهها احمرار وأصابها ارتباك وقالت متلعثمة :

ـ أنا .. أقرؤها .. أنا ؟

ـ أجل .. ولم لا ؟! ألا تعرفين القراءة ؟

ـ أعرفها .. ولكن لا أظننى أجيد المطالعة .. إنى أخطئ دائما فى التشكيل .

ـ وأنا لا أفهم فيه .

ـ إذا كان الأمر كذلك .. فسأقرأ لك .

وأمسكت بالكتاب .. وما زال بوجهها حمرة الخجل ، ووجدتها تبلل شفتيها بطرف لسانها ثم تبدأ القراءة :

« وأحسست وأنا أحدق فى الأفق بحنين إلى شيء مجهول . وبدا لى كأنى شيء ناقص .. ما زال له بقية .. هنا أو هناك ، وإنى أتلهف على بقيتى .. وخيل إلى أنها تحوم حولى .. أو أحوم حولها .. وأنها تتوق إلىّ كما أتوق إليها .. وأن كلا منا سيظل يلهث فى الحياة ويخبط حتى نلتقى فنصبح شيئا تاما كاملا .. قائما بذاته » .

وصمتت فترة .. وخيل إلىّ أنى أسمع صوت أنفاسها المتلاحقة .

ورفعت عينيها عن الكتاب فالتقت بعينى وسألت قائلة :

ـ ما رأيك ؟

ـ مدهش .

ـ أتود أن أكمل ؟

ـ بالطبع .

وعادت تتمم القراءة فى صوتها الرقيق المتهدج :

« ولم أحاول أن أحدد لنفسى أى شكل خلقت بقيتى ، وعلى أية صورة كونت ، ولا حاولت أن أقترب بها من الحقيقة فأجسدها على هيئة معينة ، وألبسها لمخلوق بالذات فقد كنت أجبن عن ذلك . كنت

أفضل أن أبقى هائمة وأن أقول لنفسى إن هذه أوهام وأحلام ، على أن أعترف لها بأنى - ببساطة - أسعى إلى الحب .. وأن هذه البقية التى أتوق إليها .. إنسان حى كائن .. أشعر به يقترب من محيط حياتى ويطرق باب قلبى » .

وصمتت مرة أخرى .. وسقط الكتاب على حجرها وهى تشرد ببصرها بعيدا فيما وراء الأفق والبحر الرجراج .

وبدأت أتأملها وقد رق منى الحس وأرهف الشعور وأخذت أرقب طاقتى أنفها الدقيقتين تنفرجان برقة والهواء يندفع إليهما وصدرها يعلو ويهبط .. وأحسست برغبة جارفة فى أن أضمها إلىّ .

وتمالكت نفسى .. وقلت أخرجها من صمتها وأوقظها من سباتها :

- وبعد ؟

وانتفضت انتفاضة خفية وقالت لى متسائلة :

- وبعد ماذا ؟

- وبعد ما خشيت أن تعترفى بأنك تشعرين به ويقترب من محيط حياتك ويطرق باب قلبك ؟

- من هو ؟

- المجهول المنتظر .

- يطرق قلبى أنا ؟

- قلب من إذاً ؟.

- بطلة القصة .. إنها هى التى تقول .. ولست أنا .

- بطلة القصة ؟.. أجل .. أجل ..

وصمت برهة وعدت أقول وأنا أبتسم معتذرا :

- لست أدرى ما الذى جعلنى أتوهم أنك تتحدثين عن نفسك .. وأنك أنت بطلة القصة .. على أية حال .. إن الحديث يمكن أن ينطبق

على أكثر من واحدة .. ألم تشعرى أحيانا وأنت تقرئين بعض الكتب أن الكاتب يكاد يعبر عن إحساسك أنت وكأنه يعبر عن كل ما فى قلبك ؟

ـ قد يحدث ذلك .. ولكن فى هذه الحالة ذاتها .. لا أظن .

ـ ولم ؟ .. أتريـن السبب لأن المجهـول المنتظـر قـد طـرق البـاب ودخل ؟.. أعنى أنه لم يعد منتظرا ولا مجهولا ؟

ـ أيضا .. لا .

ـ غير معقول .

ـ ولماذا ؟

ـ لأن القلـب المرهـف ـ العـامر بالإحساسـات كالحديقـة الغنـاء العامرة بالأزهار والرياحين لا يمكن أن تظل مغلقة دون أن يطـرق بابهـا أحد ليمتع بما فيها .

ـ وإذا كان البـاب مغلقـا فمـن أيـن للطـارق أن يعـرف أنهـا عـامرة بالأزهار ؟

ـ هبات النسيم تحمل إليه العبير .

ـ وإذا كانت الحديقة بعيدة .. ونائية .. لا يقربها طارق ولا يغشاها عابر .. والنسيم الذى يمر بها لا يمر بغيرها .. أو هو يفقـد العبـير علـى بعد الشقة وطول الرحيل .. إذا كـانت الحديقـة بريـة تعـودت الوحشـة والوحدة والعزلة ، واكتفت بصادح الطير .. وهاتف الورق الذى يهتـف فى جوانحها .. ويصدح بيـن أغصانهـا .. أليـس مـن الخـير أن تكفـى نفسها مئونة التمنى والانتظار ؟!

وبدا لى من حديثها مرارة كثيرة .. وأحسست أن جوانحهـا تنطـوى على شىء .

وأطرقت فى حيرة لاأدرى ماذا أقول .. ومـا لبثـت أن رفعـت إليهـا بصرى قائلا :

ـ ولكن الحديقة لا تبدو أنها كما تقولين .

وتساءلت فى لهفة :

ـ كيف ؟

ـ أعنى أنى أكاد أبصر أزهارها المتفتحة وأشم عبيرها العطر الفواح .

وقالت فى صوت ذائب :

ـ من هى ؟

وتملكنى الاضطراب وقلت فى لهجة متلعثمة :

ـ هى .. أقصد .. أقصد .. الحديقة البرية .

وضحكت فى جذل وقالت :

ـ إنها خيالات وأوهام .. أنت لاتدرى عنها شيئا .. إنها ما زالت عنك بعيدة نائية .

ـ بل أعرف عنها الكثير .

ـ ماذا تعرف عنها ؟

ـ أعرف عنها .. بريتها واستيحاشها .. وعزلتها .. وأحس فى باطنها اكتئابا وحزنا وظلمة لست أدرى كنهها ولا مبعثها .. وإن كانت بنفسى لهفة على إزالتها .. وعلى أضاءة تلك الظلمات التى تكتنف أرجاءها ، وتبديد السحب المعتمة التى تخيم فى أنحائها .

ـ وما ذنبك أنت تجهد نفسك فى المستوحش النائى ؟

ـ ليس أقرب إلى قلبى من نائيها .. ولا أعمر من مستوحشها .. ولا أينع وأزهر من بريتها .. إنى أحس بشىء يشدنى إليها .

وهمست فى لهجة تكاد من الوجد تذوب :

ـ حقا تقول ؟

ـ والذى نفسى بيده .. ما أقول ألا أقلّ الحق .

ومددت يدى فأمسكت بيدها . ووقع نظرها على الساعة فى يدها الممتدة فسحبتها بسرعة وقالت فى قلق شديد :

- لقد سرقنا الوقت .. أرجوك أن تتفضل .. لقد تحدثنا أكثر من اللازم .

وأصابنى من قولها عجب شديد ، ولم أدر هناك ما يوجب هذا القلق المفاجئ .. ولا التعجل فى صرفى عنها وهى فى ذروة شعورها .

وقلت لها أتساءل فى دهشة :

- ولكن .. ماذا يدعو إلى مثل هذه العجلة ؟

وقالت وقد ازداد بها القلق :

- أرجوك .. لقد اتفقنا من أول الأمر على أن تنصرف عندما أطلب منك ذلك .

وبرغم لهفتى إلى مزيد من صحبتها لم أرغب أن أسبب لها ضيقا أو قلقا .. ونهضت توا ومددت يدى مصافحا وانصرفت قائلا :

- هنا .. غدا ؟!

وهزت رأسها قائلة :

- أجل .

وعدت إلى البيت وبنفسى خشية أكثر وقلق أشد .. كنت برغم كل ما حدث لا أكاد أعود إلى البيت حتى أشعر بمدى حبى لراجية .. وكانت كلما ازدادت نشوتى من الناحية الأخرى ازداد بى القلق وازدادت الخشية وازداد التصميم على إنهاء العلاقة الطارئه .. وأن أقى من شرها .. علاقتى الأصيلة الباقية براجية .. حبيبة الروح .. ومنية النفس .. ولكنى كنت أشبه بمتعاطى المخدر الذى لا يكاد يفيق حتى يقرع ضميره الندم ، ويحس بمدى تورطه وخطئه وانحرافه عن الطريق السوى .. ووجوب إقلاعه عن عادته الشائنة فإذا ما حان موعد تعاطيه .. أقبل عليه بلا تفكير ولا إرادة .

وكان ما بيننا قد أضحى موعدا .. لا لقاء عابرا ولا وليد صدفة .

وكنت إذا ما حان الموعد أسير إلى الشاطئ .. كمدمن الخمر .. يقصد الحان .. تحركه قدماه .. بلا وعى ولا حول ولا قوة .

وهكذا أضحى لقاء الشاطئ من ضروريات حياتى .. وأحس كل منا أنه يندفع نحو الآخر بسرعة الصاروخ .

كان يشدنى إليها حزن يفيض بنفسها من ينبوع لا أدرك كنهه ولا علته .. وكانت بنفسى لهفة على أن أمسح بيدى جبينها وأتحسس شعرها وأزيل أكداس الحزن الراسبة فى أعماق نفسها .. وكان أكثر ما يمتعنى .. أنى أصبحت على ذلك قديرا .. وأنى بت أحمل إليها بلقائى فرحة ومتعة .. وأن سحب الحزن أخذت تتبدد .. وبريق عينيها قد لمع بعد خبو .. وأضاء بعد ظلمة .

لقد تغير ما بنفسها عدا شىء واحد .. كان يملؤنى ضيقا وقلقا وحيرة .. وهو إصرارها العجيب على أن أنصرف فى الموعد المحدد . وعلى ألا أعرف عنها شيئا .

وبدأ الشك يساورنى ، والريب تلح على نفسى .. وأحسست بنوع من الغيرة الغامضة .. من مجهول يقطع على لقائى .. ويجعل منى مسلاة تتسلى بها إلى حين عودته .

وذات صباح أقبلت عليها وقد حملت فى جيبى جهاز إذاعة صغيرا فى مثل حجم الكف .. وجلست أمازحها متسائلا وأنا أمسك الصندوق الصغير بين كفى :

ــ ماذا تظنين هذا ؟

ــ علبه سجائر ؟

ــ لا .

ــ علبة شيكولاتة ؟

ــ لا .. ليس شيئا يؤكل ولا يشرب .

وفكرت برهة ثم قالت ضاحكة :

ـ علبة زينة ؟

ـ ولا هذا أيضا .

ـ قل أنت .. لقد غلب حمارى .

ـ أغمضى عينيك .

ـ وكيف أراها إذا ؟

ـ قلت لك أغمضى عينيك .

ـ ها قد أغمضت .

وعندما أغمضت عينيها بدأت أدير الجهاز .. وكنت أعلم أن بعض ألحانى تذاع فى هذا الصباح .. وعندما علا اللحن فتحت عينيها وتساءلت فى دهشة :

ـ ما هذا ؟

ـ راديو .

ـ راديو بهذا الحجم ؟

ـ ما رأيك فيه ؟

وتناولت الجهاز وأخذت تفحصه قائلة :

ـ مدهش !

ثم أدارت المفتاح مغلقة الجهاز .

وقلت متسائلا :

ـ لماذا أقفلته ؟

ـ دعنا نتحدث .. الوقت أضيق من أن يشغلنا فيه عن نفسينا ثالث .. حدثنى عن نفسك .

ـ نفسى أنا .. لست أجد فيها ما يستحق الحديث .. حدثينى أنت عن نفسك .. اكشفى الغطاء عن شخصيتك المغلقة المحاطة بالأسوار .. النائية فى عزلتها الموحشة .. دعينا نتشارك فى الوحدة والظلمة .

وأطرقت برأسها وخيمت على وجهها سحابة هم وأجابت فى صوت خفيض :

ـ لا داعى لهذا .. دع الصدر مطبقا على ما فيه .. والنفس منطوية على خباياها .. دع عنك نفسى .. وقل لى عن نفسك .. من أنت ؟! وماذا تعمل ؟! وكيف تعيش ؟

ـ من أنا ؟ أنا .. أنا ..

وعبث أصبعى بمفتاح الراديو فعاد ينبعث منه اللحن وقلت وأنا أنصت إليه :

ـ أنا .. أنا .. هذا .

ـ أنا اللحن .. واللحن أنا .. هذا قطعة منى .

ـ أتعنى أنك موسيقار ؟

ـ أجل !

ـ عجبا ! لم تكن لدى أقل فكرة .. وهل هذا لحنك ؟

وأخذت تنصت مرهفة سمعها .

وأشرت برأسى ... نعم .

وانفرجت أساريرها وبدا عليها طرب شديد . وعندما انتهى اللحن سألتها .

ـ أأعجبك ؟!

ـ جدا .

ـ ولكنه لم يعجبك فى أول الأمر .

ـ أجل .. إنى لم آبه له .. كلحن مجهول .. وفضلت عليه الحديث إليك .. لأنه أحب إلى نفسى من أى لحن .. فلما علمت أنه لحنك .. أطربنى كشىء صادر عنك ، أو كما قلت أنت « كقطعة منك » . أعلمت السبب فى تغيير رأيى ؟! إنه أنت .

وأحسست بنشوة .. وأنا أشعر أول مرة .. أن شخصي المجـرد قـد بات صاحب فضل على شخصي العبقرى .

وعادت الشقراء الرقيقة تتساءل :

ـ وماذا تفعل الآن ؟

ـ أضع مجموعة ألحان لأوبرا جديدة .. لا أكاد أفرغ منهـا لحظـة واحدة .. وعندما أتعب من التلحين .. ألجأ إلى القراءة .

ـ أتقرأ كثيرا ؟

ـ قدر ما أستطيع .

ـ وماذا تقرأ الآن ؟

ـ آخر ما قرأت .. رواية لكاتب نمسوى ... اسمه ستيفن زفيج .

ـ لا أذكر أنى قرأت له من قبل .. ما اسمها ؟

ـ « حذار من الشفقة » .

ـ أأعجبتك ؟

ـ جدا .

ـ ما موضوعها ؟

ـ إنها مأساة عاطفية تتلخص في أن أحد الأثريـاء يعيش فـى قصـره الريفى مع ابنته المقعدة المصابة بشلل الأطفال والتـى يئس الأطبـاء مـن علاجها ، وفـى نفس البلـدة تهبط كتيبـة مـن الفرسـان ويتعـرف أحـد ضباطها بالفتاة المقعـدة فـى إحـدى الحفـلات ، ويـتردد الضـابط علـى القصر بعد ذاك لتمضيـة وقـت طيـب فـى البلـدة التى يسـودها الملـل ، ويشجعه الأب الثرى الذى أحس من وجوده سـعادة لابنتـه ، فتتعلـق بـه الفتاة ، وتزداد العلاقة بينهما حتى يجد نفسه قد تورط فى خطبتها بدافع الشفقة ، ثم يتبين أنه لا يكن لها أية عاطفـة مـن الحـب ، وأنـه سـيدمر حياته بأن يقيد نفسه إلى الفتاة المشلولة مدى عمره .. وينتهى به الأمـر بأن يغادر البلدة هاجرا الفتـاة .. ويوخـزه النـدم بعـد هـذا فيصمـم علـى

العودة إليها .. ولكن عند عودته يجد الفتاة قد ألقت بنفسها من فوق هاوية تطل عليها إحدى شرفات القصر بالزحف بعربتها ذات العجل ، منتهزة فرصة وحدتها وقضت على نفسها .

وكنت أقص القصة فى عير اكتراث وأنا أعبث بسلسلة المفاتيح تارة وبالراديو تارة أخرى . وعندما انتهيت منها ورفعت بصرى إليها فراعنى شحوب شديد فى وجهها ووجدتها قد أغمضت عينيها كأنها تعانى ألما شديدا .. ولم أملك نفسى من الصياح مرتاعا وأمسكت بيدها أجسها ضاغطا وقلت لها فى فزع :

ـ ليلى .. ماذا بك ؟

وحاولت جهدها أن تتماسك ، وضغطت على يدى بكل ما استطاعت من قوى خائرة .. كأنما تخشى أن تتهاوى وباليد الأخرى أسندت رأسها ومسحت جبينها .. وبدا لى أنها على وشك الإغماء .

وعدت أسألها مضطربا :

ـ ماذا بك ؟! بم تشعرين ؟!

وأجابت فى صوت خافت :

ـ لا شىء . لقد أصابنى غثيان ، ولكنى الآن أحسن .

ـ أسبق لك أن أصبت به من قبل ؟

ـ أجل .. أحيانا .

ـ ولكن يجب أن تعالجى نفسك جيدا !!

وأجابت وهى تحاول جاهدة أن تستعيد حالتها وتسترجع قواها :

ـ إنها مسألة عارضة هينة .. سرعان ما تزول .. لا تقلق نفسك من أجلى .

وعلت شفتيها ابتسامة باهتة ورفعت عينيها إلى الأفق البعيد حيث تلاصقت السحب بالأمواج .. وأخذت شهيقا طويلا .. ورويدا رويدا

بدأت تستعيد قواها .. أو هكذا خيل إلىّ وكنت أنظر إليها فى إشفاق صامت .. وقد شرد ذهنها بعيدا .

وحاولت أن أقطع الصمت لأستعيدها من شرودها فقلت معلقا على حديثى الأول :

ـ قصة لطيفة .. وإن كانت خاتمتها قاسية .. ألا ترين ذلك ؟

ـ أجل .

وكان ردها مقتضبا .. وأوشكت سحب أن تخيم مرة أخرى .. ولكنى عدت أدفع الحديث دفعا :

ـ ولكن ما رأيك فى البطلة ؟

ـ من حيث ؟

ـ إقدامها على الحب أولا ، ثم إقدامها على الانتحار ثانيا ؟

وكنت أقول الحديث لمجرد الحديث .. وكانت تجيب لمجرد الإجابة .. وبدا الجو حولنا فاترا راكدا .. أنا لا أكاد أجد ما أقول .. وهى لا تجيب أكثر من إجابة مقتضبة لا تتفق بسبب للحديث .. ثم تعود إلى شرودها وذهولها .

وعادت تجيب إجابتها المقتضبة بقولها متسائلة :

ـ ما رأيك أنت ؟

ووجدت أنها زاهدة فى الحديث وأنها تلقى على عبئه .. فاسترسلت فيه مبديا رأيى .. مجرد ترثرة لا أكثر ولا أقل فلا إخالنى كنت مهتما بالبطلة إلى هذا الحد .. حد انتقاد حالتها وتحليل نفسيتها .. وماذا فعلت .. وماذا كان يجب أن تفعل .

قلت مثرثرا :

ـ كل خطأ يرتكبه الإنسان فى هذه الحياة .. لابد أن يتحمل عواقبه .. وكل متعة يحاول أن يأخذها الإنسان أكثر من حقه .. لابد أن يردها عذابا وألما ... ولقد أخطأت الفتاة فى أول الأمر .. بأنها

تطلعت إلى أكثر من حقها .. فكان عليها أن تتحمل بعد ذلك نتيجة خطئها .. إما عاجلا .. أو آجلا ... إما بصدمة سريعة .. أو بعذاب بطيء . ولقد اختارت الطريق الأقصر والأسهل . فقضت على نفسها وتخلصت من كل ما أصابها .. وما يمكن أن يصيبها من آلام .. ولو لم تختر هذه النهاية العاجلة .. لكان عليها أن تواجه مصيرا مريرا وحياة مضنية .. مليئة بالحرمان واليأس والآلام . حتى على أفضل الفروض .. لو أن صاحبها قد أقدم على زواجها .. فلا أظن حياتها يمكن أن تكون أسعد من حياة الحرمان .. إن دافع الشفقة لا يستمر طويلا .. وستجد نفسها عبئا ثقيلا على زوجها ... وهو إنسان له حق الحياة .. وحق المتعة .. فإما أن يكون وفيا لها فتفسد عليه حياته .. وإما أن يهجرها فتفسد حياتها هي .. إن لآمال الإنسان ومطامعه فى هذه الحياة حدودا يجب ألا تتجاوزها .. حتى تكون محتملة التحقيق ولا يكون اليأس المحتم مصيرها ومنتهاها .

لست أدرى إلى متى كنت أنوى الاسترسال فى ثرثرتى محاولا أن أبعث فى نفسها بعض التسلية وانتشلها من هذا الصمت الثقيل والشرود البغيض .. حتى وجدتها قد نظرت إلى الساعة وانتفضت فجأة كأنما قد أيقظتها من سباتها هزة عنيفة وقالت لى فى عجلة وقلق :

ــ أرجوك .. تفضل .. بسرعة .. أرجوك .

وكرهت طريقتها فى صرفى .. وعادت الشكوك تلح على نفسى .. والغيرة تنهش قلبى .. ولكن لم أملك سوى النهوض والانصراف .. كما أرادت .

ولكنى .. فى الواقع لم أنصرف .. فقد بيت فى نفسى أمرا .. صممت به أن أكشف خبيئة أمرها .. وأعرف الحقيقة ، وأقضى على الوساوس والشكوك .

تظاهرت بالانصراف واندفعت أحث الخطا فى طريق العودة ، ولكنى بدل أن أستمر فى طريقى عبرت الطريق إلى الرصيف الآخر .. ثم دلفت .. إلى الداخل متواريا بين البيوت المتناثرة أخوض بين الرمال والأعشاب والحجارة .. محاولا أن أنتقى لى موضعا للمراقبة أتوارى فيه وأرقب منه .

وبدت أمامى الطاحونة .. بهيكلها الضخم ونوافذها العالية فاندفعت إليها وطرقت الباب ثم دفعته فى عجلة وعدوت إلى أعلى فوق السلم الخشبى .

وفى لحظات قصار كنت أجلس وراء النافذة وقد بدا الشاطئ أمام عينى بوضوح .. وأبصرتها من بعيد جالسة فى مكانها تتلفت حولها فى قلق .

وأخذت أرقب .. وقد تلاحقت أنفاسى .. وأرهفت حواسى .. فلم أكد أشعر بشىء أو أرى شيئا .. سوى شبحها الجالس على الشاطئ .

ولم يطل بى الأمر حتى وجدت سيارة تنساب فى الطريق ثم تهدئ من سرعتها وتقف قبالتها .

وعصفت بى الغيرة .. وملأنى الغضب .. وقد توقعت أن يهبط منها الغريم المجهول الذى كنت مسلاتها فى غيبته ، والتى كانت تأبى إلا أن تصرفنى بسرعة كلما أزف ميعاده .

ولكنى رأيت السائق قد هبط من العربة .. ومعه رجل أسود يرتدى جلبابا أبيض ... كأنه خادم .. وتقدم الاثنان نحوها .. وأخذا يقتربان حتى وصلا إليها .

وكنت أرقبهما فى شىء من الدهشة وقد بدأ الغضب يهدأ والغيرة تتلاشى .

وفجأة حدث ما وقف له شعر رأسي .. حدث آخر ما كنت أتوقعه .. لقد مد الاثنان ذراعيهما وحملا الفتاة بمقعدها في صمت وأتجها إلى العربة ، وهنا فقط أدركت أن الفتاة مقعدة ، وأن بها شلل أطفال ، وأدركت كل ما قصدته بالروضة البرية الموحشة المهجورة ، وعرفت مبعث سحب الظلمات التى تحيط بها واليأس الجاثم عليها ، وتبينت سبب أصرارها على أن أنصرف فى كل مرة حتى لا أكتشف مصابها فأهجرها ، وأحرمها ذلك الإحساس الفياض الذى أغرقتها به .

وتذكرت قصة الفتاة المشلولة التى قصصتها عليها .. وتذكرت ثرثرتي البغيضة التى علقت بها على الفتاة وأحسست أن مطارق تهوى على رأسي .. وخناجر تمزق أحشائى ، واندفعت فى جنون أهبط السلم أربعا فى أربع ... ومرقت من الباب كالسهم المارق ، وعدوت أتخبط بين الرمال والحجارة وشواهد القبور .

وعندما وصلت إلى الطريق وجدت العربة تتحرك .. وصحت أستوقفها صارخا .. والتفتت هى فى دهشة من وراء الزجاج الخلفى للعربة وندت عنها صرخة مكبوتة وبدا عليها الارتياع .

ولكنها لم توقف العربة .. بل أخذت سرعتها تتزايد وهيكلها يتباعد ، وعدوت ألهث وراءها لأنبئها أنى أحبها أكثر مما أحب أى إنسان فى هذه الحياة .. وأن أسألها الزواج ... أسألها عن رغبة ولهفة وحب عميق .. لا عن عطف طارئ أو شفقة عابرة .

عدوت لأؤكد أن لها الحق فى أن تأمل فى كل شيء ، وأمحو من ذهنها السخافات التى صدمتها بها بثرثرتي الحمقاء .. عن الأمل المحدود .. وعن الطريق السهل للتخلص من الآلام . .

ولكنى توقفت أخيرا وقفة اليأس ... والعربة تنهب الأرض مسابقة الريح وأنا ألهث مبهور الأنفاس .

ونظرت حولى فى يأس .. فلم أبصر غيرالأمواج الصاخبة والبحر الهادر المتلاطم ، والطاحونة الخربة تقف كالشبح المخيف باسطة ذراعيها إلى السماء والريح تصفر من حولها وتئن وتعول وترن .

وعدت إلى البيت ذاهلا مرتاعا .. لا تفارق ذهنى صورة الوجه الأشقر الدقيق تكسوه لمحة الحزن واليأس ، وقد حملته الايدى إلى العربة كالطائر المهيض .

كنت أشعر بمدى الطعنة القاتلة التى وجهتها إلى الطائر الحزين البائس المقصوص الجناح .. وأنا الذى كنت أتلهف إلى أن أربأ صدعه وأجبر كسره وأشفى قرحه وألم جرحه .

وعاودتنى صورة طير آخر صغير .. هوى من حالق بعد أن أصابته رميتى .. وخيل إلى أنى أوشك أن أصيب الآخر بمثل رميته .. وأحسست أن رأسى يوشك أن ينفجر وبأنى لو لم أفعل شيئا .. لأنقذ به الضحية .. فإنى سأجن لا محالة .

وكنت على استعداد لأن أفعل من أجل ليلى المسكينة كل شىء .. كنت على استعداد لأن أفتديها بروحى ، وبأعز ما أملك ولكن التضحية بروحى لم تكن تغنى عنها شيئا ولذلك لم يبق أمامى .. إلا أعز ما أملك .. أعنى راجية .

كان ذلك هو السبيل الوحيد .. والعلاج الحاسم الناجع السريع .. كان على أن أفتديها بأى ثمن .. ولو كان ذلك الثمن راجية .. بكل ما بيننا من مواثيق وعهود ، وكل ما يجمعنا من سعادة وهناء .

كل ذلك هان على نفسى فى سبيل شىء واحد .. هو افتداء ليلى وإنقاذها .. ولم تكن المسألة بالعمل السهل ، ولا كان الإقدام على تنفيذها بالأمر الهين .. كنت أعلم أى صدمة سأصدم بها راجية وأى فجيعة وخذلان أليم سأسببه لها.. ولكنى كنت أعلم أيضا أن ذلك الثمن الضخم .. يرخص إذا ما قيس بالحياة التى سأفتديها به .

وفى نفس اليوم أقدمت على تنفيذ ما عقدت العزم عليه .. وبذهن شارد وخطا متثاقلة .. ذهبت إلى راجية .. وأنهيت الأمر .. وقد صممت الأذن عن كل رجاء .. ووأدت فى قلبى كل إحساس بالحنين وقتلت فى نفسى كل شعور بالتخاذل أو التراجع .

وعدت إلى الدار وأنا أشعر — برغم ما سببته من فجيعة لراجية ولنفسى — أنى قد أزحت عنى جزءا من العبء الذى يثقل كاهلى وينقض ظهرى .. وكان على أن أزيح الجزء الثانى بأن أذهب إلى ليلى وأنبئها .. أنى مصمم على زواجها .. وأنى لا أحس لها بأى رثاء ولا شفقة ، بل أحبها .. بكل ما فيها .. أحبها كما هى ... ولا أريد عنها بديلا .

ولم أكن أعرف كيف أصل إليها .. وكان على أن أنتظر ليلتى .. حتى يصبح الإصباح فأذهب إليها حيث تعودت أن ألقاها .. وأنبئها بكل ما أريد .

ولا أظننى فى حاجة لأن أقول أن النوم قد استعصى علىّ ولم يقرب جفنى .. وأنى ظللت طول الليل أتقلب على الفراش مفتح العينين .. وأن الصور الثلاثة كانت تتواتر على ناظرى الواحدة بعد الأخرى .. صورة ليلى المشلولة البائسة ، وصورة راجية الباكية المستعطفة ، وصورة ليلى الصغيرة الهاوية من عل .. تهتف بى .. إياك أن تفعل بليلى العزيزة ما فعلت بى .

وقبيل الفجر ... أثقل الجهد جفنى فرحت فى غفوة ، ورأيت فيما يرى النائم أنى أسير وراجية على ربوة عالية تشرف على البحر ، وعلى حافة الربوة أبصرت فتاة تحمل طفلة تشبهها وقد أخذت تدللها وتقبلها ثم أحسست كأن ريحا عاتية تهب من الشاطئ والتفت ورائى . فإذا بمروحة ضخمة تدور بسرعة هائلة وقد اندفع منها الهواء بشدة

مروعة .. ورأيت كل ما حولى يتطاير وقد أخذت الريح المنبعثة من المروحة تقذف بالحجارة والرمال كأنها الحمم تخرج من فوهة بركان .

وسمعت صرخات استغاثة صادرة من حافة الربوة ونظرت فإذا بالفتاة والطفلة توشكان أن تقعا فى الهاوية وقد تعلقتا ببعض الأعشاب تهتز تحت أيديهما .

واندفعت لإنقاذهما عندما أبصرت بصخرة كبيرة توشك أن تهوى على راجية ورأيتها تتعلق بى متوسلة ألا أتركها . وأخذت الصخور تتهاوى والرياح تشتد والموج يعلو وأحسست أن يدى راجية قد أفلتتا منى وأنى اندفعت أعدو وسط ضباب كثيف لا أسمع فيه سوى الصرخات التى تتصاعد من كل فج .. وأنى أصبح بصوت مبحوح لا يكاد يسمع : « ليلى .. ليلى » .

وفتحت عينى .. وأنا أصيح بليلى .. ورأيت ضوء الصبح قد تسلل من النافذة .. فنهضت فى عجلة وارتديت ثيابى واندفعت إلى الطريق .

حثثت الخطا تارة وانطلقت أعدو تارة .. حتى وصلت مكروب الصدر مبهور الأنفاس وأشرفت على الشاطئ ... دون أن يلوح هيكلها لناظرى . وأخذت أقترب .. أقترب .. وكلما ازددت اقترابا ، زاد بى الخوف واليأس .. ولكن الأمل لم ينقطع .. كان بنفسى خيط واه من رجاء .. كنت أقول .. ربما وجدتها وراء هذه الصخرة ، أو تلك .. أو ربما لم تأت بعد .

ووقفت أخيرا فى الطريق قبالة المكان الذى تعودت أن تجلس فيه ثم قفزت فوق السور المنخفض واندفعت أخوض فى الرمال وما زال بى بعض الأمل .

وفجأة وجدتنى توقفت .. وأحسست بعينى تثبتان على الرمال وتكادان من فرط الحملقة تخرجان من محجريهما .

فقد أبصرت مالا أجرؤ على ذكره .

أبصرت حقيبتها وقد بدا منها طرف « الإيشارب » والنظارة السوداء .. وبجوارها استقر على الرمال ... كتاب كتب على ظاهره « حذار من الشفقة » .

ثم أبصرت آثار زحف على الرمال تمتد حتى حافة البحر .. وبعيني المأخوذ المبهوت عدت أدقق البصر فى الكتاب وتذكرت الطريقة التى انتحرت بها الفتاة المقعدة الزاحفة بعربتها على الصخرة إلى الهاوية .

وخيل إلى أن ليلى المسكينة تهمس بى قائلة وهى تزحف على الرمال إلى البحر : « حذار من الشفقة » .

وانطلقت منى صرخة مجنون .. وتشنجت يداى وأنا أود أن أطبق بهما على شىء ، وعدوت نحو البحر أصيح بها والريح تبدد صرخاتى « ليس ما بى شفقة .. أنه حب .. حب .. حب » .

الخاتمة

وعاد إبراهيم يكرر كلمة « إنه حب .. حب » ... وشرد ببصره من النافذة وبدا عليه الإعياء التام .

وران الصمت برهة .. ثم مد نوفيق يده وأخذ يربت ساق إبراهيم برفق وقال له فى صوت هادئ النبرات ملئ بالثقة والإيمان وهو يهز رأسه هزات خفيفة .

ـــ لا .. يا إبراهيم .. لا .. إنه لم يكن حبا فى أيه لحظة من اللحظات ... لقد كان شفقة .. ولا شيء أكثرمن شفقة.. ألم تقل أنت بنفسك إن أول ما جذبك إليها إحساس بالشبه بينها وبين أختك الصغرى !! لقد كان هذا هو ما دفع إليها أول الأمر .. ثم أخذت اللهفة تتزايد لإحساسك بحزنها .. ويأسها ، ولرغبتك الجارفة فى مساعدتها وتبديد ظلمات اليأس من حولها .. يدفعك إلى ذلك شعور خفى بالرغبة فى التكفير عن جرم قديم ما زالت بقاياه راكدة فى ذهنك .. كامنة فى باطنك .. وكنت كلما زاد إحساسك بحزنها وميلها نحوك وحاجتها إليك .. زدت تعلقا بها .. ورغبة فى مساعدتها .

كنت ترى فيها أختك ليلى .. وكأن من العسير عليك أن تتخلى عنها بعد أن أطمأنت إليك ووجدت فيك ملجأها وملاذها .

وبلا قصد منك .. وعلى غير إرادة .. تورطت فى الحديث عن الفتاة المشلولة وأبديت رأيك فى انتحارها .. ووجدت أنك قد رميت سهمك الطائش عزيزا آخر .. كان بودك لو كفرت لغوثه ونجدته عن إصابتك للعزيز الأول .. واندفعت فى جنون تبحث عن وسيلة للإنقاذ وصممت على أن تفتديها بكل شيء .. بنفسك وسعادتك وحبك

ومستقبلك .. فأقدمت على فسخ خطبتك براجية .. حتى تستعيد حريتك .. وتكرس حياتك لأسعاد ليلى .. مكفرا بذلك عن جرميك .. نحو الاثنتين .

هذا هو ما أردته أنت .. ولكن القدر أراد شيئا آخر .. ونحن يا أخى لا نستطيع فى حياتنا أن نسيطر على إرادة القدر .. ولا نملك إلا أن نؤدى واجبنا فى حدود قدرتنا .. ثم نخضع لما يفرضه علينا القدر صاغرين .

وأنت مخلوق شديد الحساسية .. مفرط يقظة الضمير .. يثقل عليك كل إحساس بشقاء غيرك .. وتتوهم أنك قادر على إزالة هذا الشقاء وأن تركه تقصير .

أنك فى كل ما فعلت .. لا لوم عليك ولا تثريب .. لقد فعلت أقصى ما تستطيع .. لإزالة شقاء غيرك .. ولكن كما قلت لك لاتملك التصرف فى مصائر البشر .. فليس هناك ما يدعو لأن تشقى نفسك بأخطاء القدر .. إن واجبك الأول هو إزالة شقاء نفسك ... والتماسك والتجلد والمقاومة .. وأن تزيل بذلك شقاء مخلوقة أخرى .. هى راجية التى كانت الضحية الحقة فى كل ما حدث .. راجية التى قلت عنها إن حبك لها هو الأصيل الدائم الباقى .. إنها تستحق أن تكافح من أجلها مرضك وأن تستعيد قواك .. لكى تسعد حياتها .

وصمت توفيق .. وهمس إبراهيم وقد أسند رأسه بكفه وبدا كأنما يوشك أن يتهاوى إلى الأرض :

ـ راجية .. راجية .. أين راجية ؟

وكان هذا آخر ما فاه به ... فقد انهارت قواه ... وراح فى إغماءة ، وأسنده زكى على صدره وهو يمس جبينه قائلا :

ـ إن حرارته مرتفعة .. يبدو أنه محموم .

ونقل إبراهيم إلى داره ورقد على الفراش يرزح تحت عبء الحمى .

وكان أول ما فعله توفيق بعد عودتهم أن أنبأ راجية بما حدث .

وتملكتها الدهشة وهى تنصت للقصة يقصها عليها توفيق .. ثم أخبرها فى النهاية بأنه قد أصيب بحمى وأن زكى سيتولى علاجه وأنهم قد أرسلوا فى طلب ممرضة للسهر عليه .

وهمست راجية وهى تكفكف عبرات انسابت من عينيها :

ــ لا داعى للممرضة .. سأتولى أنا السهر عليه .

وكانت سيدة تقف إلى جوارها فقالت معترضة :

ــ ولكن .. ماذا يقول جدك .. عندما يعود ؟

وأجابت راجية :

ــ لن يقول شيئا . لقد سبق أن قلت له إنه ليس هناك من يستطيع أن يمنعنى من أداء واجبى .. إنى لن أترك إبراهيم لحظة واحدة .. إن جدى يعرف أنى لا أذهب إليه للهزل أو للعبث بل لأؤدى واجبى فى إنقاذه .. وهو لا شك يكره أن أتخلى عنه فى شدته وأتركه فى محنته .

ومرت الليالى ثقيلة بطيئة .. وإبراهيم مغرق فى غيبوبته وراجية ترقبه بمقلة أرقها الحزن وأضناها البكاء والسهر .

ولم تكن تكف عن التمتمة بالفاتحة وبما تحفظه من الآيات وعن دعوة الله فى توسل أن يبله من مرضه .. فى رجاء وأمل ... وقد أخذت تسائل نفسها :

ــ ترى ماذا سيقول عندما يعود إلى وعيه ؟

أتراه سيعرفها أم سينكرها ؟

ولكن بأى حق تبقى إلى جانبه .. وقد قطع هو كل ما بينهما ؟ ولكن ألم يكن ذلك لسبب ؟ ألم يكن معذورا ؟

أجل .. ولكن ذلك لا يمنع أن القطيعة ما زالت قائمة .. وأنها بوجودها ستفرض عليه نفسها .

إن خير ما تفعله هو أن تتركه بمجرد أن يدنو من الشفاء . ولكن هبه لم يسأل عنها !!

أبعد كل هذا .. تفقده مرة أخرى ؟!

ولكنها لن تفقده .. إنها ستعود إلى سابق أحلامها به وأوهامها فيه ... ستعود إلى القناعة بمشاركة الآلاف فى ألحانه .. بسماعه من بعيد .

أجل .. إن هذا هو خير عزاء لها.

ليت اللّه ينعم عليه بالشفاء .. وليفعل بها ما يفعل .

وقبيل الفجر .. أفاقت راجية من غفوة ألمت بها .. وفتحت عينيها فى خشية وهى تنفض عنها النوم .. وتطرد من ذهنها بقايا حلم بغيض طاف فى غفوتها .

ثم نهضت متسللة على أطراف أصابعها .. واقتربت من إبراهيم تطمئن عليه وتنصت إلى أنفاسه وترقب صدره يعلو ويهبط فى هدوء وتطلب من اللّه اللطف والرحمة .

وفجأة أبصرت جفنيه يرتجفان ثم يفتحان ببطء وبعينيه تحملقان فى سقف الحجرة بلا وعى ولا إدراك .

وكتمت أنفاسها وهى ترقبه فى خوف شديد .

أتراه سيعود إلى سابق حالته من الذهول والشرود والتجاهل والإنكار ؟

اللهم لطفك ورحمتك .

وتحركت مقلتاه يمنة ويسرة .. لتقعا على محياها المتلهف المشدوه .. وشع منهما بريق معرفة وإدراك وانفرجت أساريره وارتسمت على شفتيه بسمة خفيفة وانحنت عليه برفق وهمست به فى صوت ذائب :

— إبراهيم !

وأجابها هامسا : راجية .

ولم تستطع أن تمنع عبراتها الصامتة من الانسياب .

وأمسك إبراهيم بيدها وضغط عليها قربها من فمه :

- لا تبكى يا راجية ... إنى بخير .

- أجل بخير .. وستكون دائما بخير .

وأخذ يتحسس يدها فى حنو وشغف .. وأحس بأن الخاتم قد نزع من أصبعها فسألها فى شىء من الدهشة :

- أين الخاتم ياراجية ؟! أين خاتم الخطبة ؟!

وأجابت راجية فى لهجة متلهفة : أتريدنى أن ألبسه ؟

- طبعا . أعيديه إلى أصبعك ، ولا تنزعيه أبدا .. سيبقى فى يدك ، ما بقيت لى أنفاس تتردد ، أنت الروح . وأنت ..

- صه ... لا تتعب نفسك بالحديث .

- دعينى أنبئك بكل شىء .. دعينى أعتذر .

- لا تقل شيئا ولا تعتذر عن شىء .. ليس هناك أبدا ما يدعو إلى الاعتذار ، ولو كان ، لكنت أسبق إلى الغفران .

- ولكن أريد أن أقول ..

- أنا أعرف ما ستقول .. إنى أسمعه .. دون أن تقوله .. انتظر لحظة حتى أريك .

وغابت راجية عن الحجرة برهة ثم عادت إليه .. وبعد لحظة .. علا صوت المسجل من الخارج يهتف :

- أين أنا ؟

- بين ذراعىّ .

واستمرت المناجاة .. عذبة حنونا .. وقد أخذ الاثنان ينصتان إليها فى نشوة .. والشمس ترسل أشعتها من خلال النافذة .. والنسيم الرطب يحمل إليهما عطر الورود .

وأشرفت المناجأة على النهاية ... والصوت يقول :

- لم يعد لى غنى عنك لحظة واحدة .. أشعر كأنى لا أستطيع تنفس الهواء إلا إذا كان ممزوجا بأنفاسك .

ومد إبراهيم ذراعيه وقرب من أذنها أنفه وأحس من أنفاسها نشوة عجيبة وعاد الصوت يهتف في رقة :

ـ إن حياتي مستمدة منك .. أنت أحد عناصر الحياة لدى بل أنت عنصرها الأول .. بغيرك لا أستطيع الحياة .. لا أستطيعها أبدا .. أبدا .

وصمت الصوت وهمست راحية :

ـ أتريد أن تقول أكثر من هذا ؟

وأطبق إبراهيم على شفتيها وهو يهمس : لنبدأ من جديد .

وهمست راحية : أين أنا ؟

ـ بين ذراعيّ .

ـ ليتني أبقى بين ذراعيك دائما .. ليتني لا أفتح العين حتى يبقى الحلم إلى آخر العمر .

ـ أنت لست حلما ، إنك الواقع .. إنك الأصل ، وغيرك ظلال وأوهام وأضغاث أحلام .

ـ لا يا إبراهيم .. غيرى باق في قرارة نفسك .. إنك تحبه وأنا أيضا أحبه .. أنك لن تنسى ليلى أختك ولا ليلى الثانية ، ولن أنساهما أنا .. فهما انعكاس لنفسك المرهفة الطيبة .. وصدى لضميرك الحى الخير .. لن ننساهما أبدا .. وعندما ننجب ابنتنا الأولى سنسميها « ليلى » .. حتى تكون أمنيتنا الدائمة وهدفنا المشترك وحتى نقول لها كلانا « فديتك يا ليلى » .

رقم الإيداع : ٥٠٩٠ / ٨٧

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى الفجالة



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن : ٦٥٠ قرشا